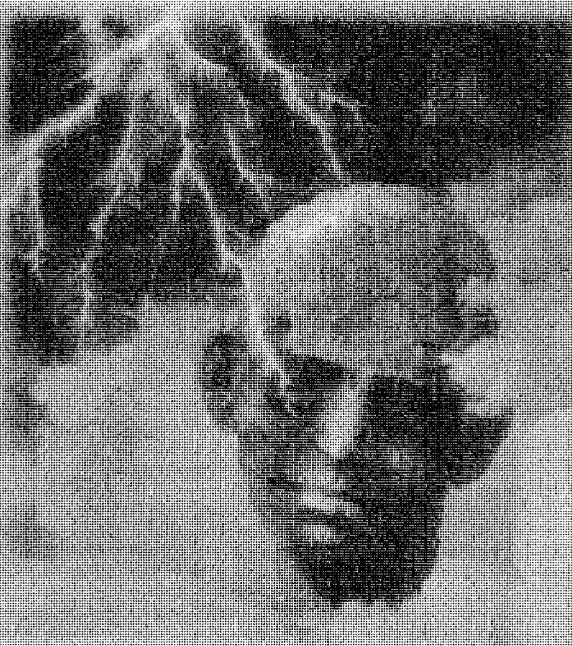
كارل يونغ
ريتشارد ويلهلم

القوى الروحية
و
علم النفس التحليلي



ترجمة : نهاد خياطة

القوى الروحية وعلم النفس التحليلي

- القوى الروحية وعلم النفس التحليلي
- تأليف : ريتشارد ويلهلم – ك.غ. يونغ
- ترجمة : نهاد خياطة

- الطبعة الثانية 2000
- الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع

سورية – اللاذقية – ص.ب 1018

القوى الروحية وعلم النفس التحليلي

تأليف

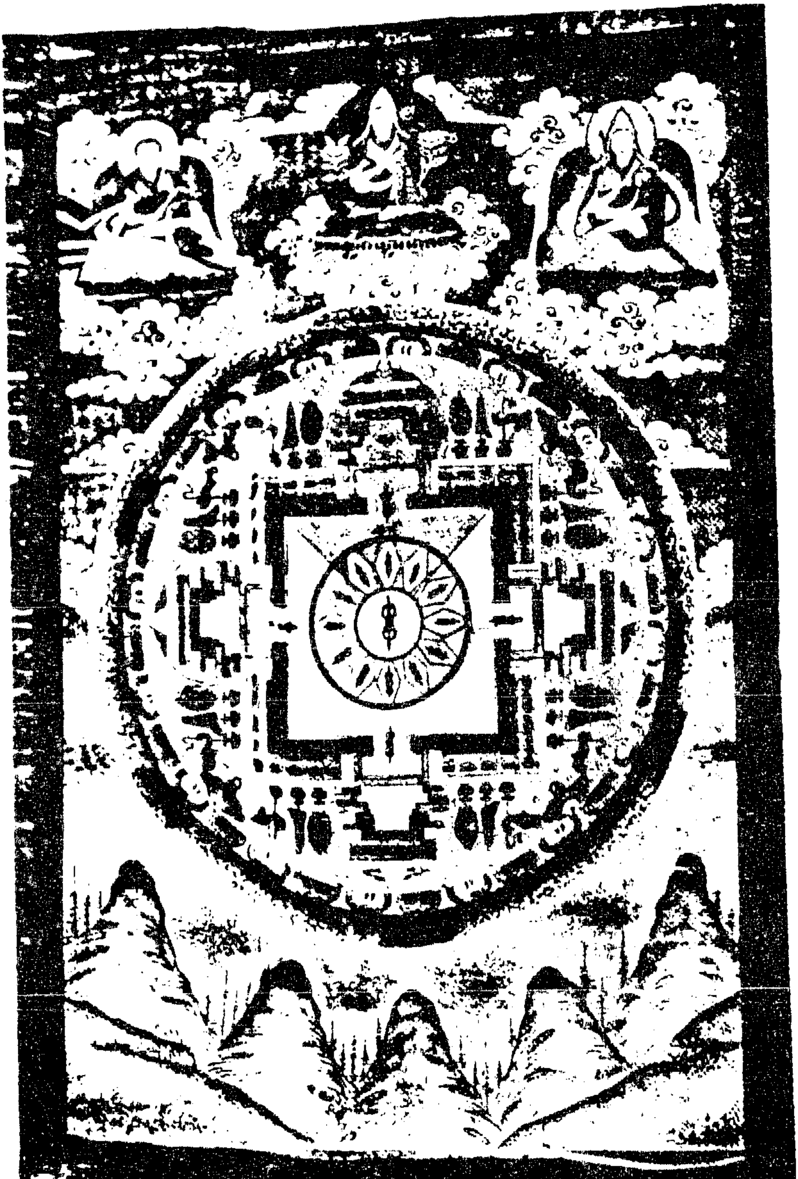
ريتشارد ويلهلم

ك.ع.يونغ

ترجمة

نهاد خياطة

دار الحوار



مقدمة الطبعة الإنكليزية

ظهرت الطبعة الأصلية الألمانية من «سـر الزهـرة الذهبية» لأول مرة في خريف عام ١٩٢٩ ، وتشكل الترجمة التالية لها الترجمة الإنكليزية المأذونة . في الأول من آذار من عام ١٩٣٠ ، توفي ريتشارد ويلهلم . وفي أيار من نفس العام أقيم له حفل تذكاري في ميونيخ دُعي اليه يونغ لالقاء الخطاب الرئيسي . وقد أُعطي هذا الخطابُ المكانَ المناسب له في الطبعة الانكليزية ، التي نشرت بعد عام أو أكثر مَن وَفاة ويلهلم . لقي الخطاب ترحيباً ، لا لأنه عرّف القارىء بويلهلم وحسب ، وإنما لأنه ألقى مزيداً من الضوء على القاعدة التي ينطلق منها الشرق في فهمه للعالم والحياة .

تتصف علاقة الغرب بالفكر الشرقي بالتناقض والالتباس . فالشرق ، من ناحية ، كما بيّن ذلك يونغ ، يتسلل إلينا من الباب الخلفي من خافيتنا ، ويؤثر فينا تأثيراً شديدا في اشكال منحرفة ، ومن ناحية ثانية ، نقوم نحن بطرده عنا بسابق حكم عنيف من حيث إنه معْني بغلالة رقيقة من الميتافيزيقيا التي تسمم عقليتنا العلمية .

وإذا ارتاب امرؤ في المدى الذي يؤثره الشرق فينا في الخفاء ، فما عليه الا ان يلقي نظرة سريعة على الميادين التي يغطيها اليوم ما ندعوه بـ «الأفكار الخفية» Occult

thoughts . ملايين الناس ينخرطون في هذه الحركات ، والأفكار الشرقية تستولي عليهم جميعاً . وبما أنه لا يوجد علامة على فهم سيكولوجي لهذه الظاهرات التي تنهض عليها هذه الحركات ، فقد أصبحتْ عُرْضةً لتشويه فظيع ، كما أصبحتْ تشكل خطراً حقيقياً على عالمنا .

ان الاطلاع الجزئي على ما يجري في هذا الاتجاه ، اضافة الى جهل الغربي الفطري لعالم الخبرة الداخلية وارتيابه فيها ، هو ما يشيد سابق الحكم على حقيقة الحكم الشرقية . عندما تُطرح الحكمة الصينية على الغربي ، من المحتمل جداً أن يتساءل في ارتياب يتبدى في رفع حاجبيه : لماذا لم تنقذ هذه الحكمةُ العميقة الصينَ من الأهوال التي تعاني منها في الوقت الحاضر ؟ طبعاً ، هو لا يتوقف ويفكر بأن الصيني يتساءل أيضاً في ارتياب : لماذا لم تنقذ الغرب معرفتُهُ العلمية التي طالما تبجّح بها ، ناهيك عن الأخلاقيات المسيحية التي طالما تبجّح بها أيضاً . من حرب كالحرب العالمية ؟ لكن الحقيقة هي ان الأحوال الراهنة في الصين لا تبطل قيمة الحكمة الصينية ، ولا الحرب العظمى تثبت عقم العلم . في كلا الحالين نحن نتعامل مع الجوانب السلبية من المبادىء التي يسير عليها الشرق والغرب ، ولم يتهيأ بعد لا للأفراد ولا للأمم القدرة على اجتناب عيوب ما لديهم من فضائل . التحكم بالعالم الداخلي ، مصحوباً بازدراء يناسبه للعالم الخارجي ، لا بد وأن يؤدي الى كوارث عظمى . والتحكم بالعالم الخارجي ، مع استبعاد للعالم الداخلي ، يُسْلمنا الى القوى الشيطانية الكامنة في هذا الأخير ، ويحيلنا الى همج بالرغم من اشكال الثقافة الظاهرية . الحل لا يمكن أن نجده في الهزء من الروحانية الشرقية ونعتها بالعجز ، أو بسحب الثقة من العلم ووصفه بمدمّر البشرية . يجب على الروح أن يتكىء على العلم بما هو دليل له في عالم الواقع ، ويجب على العلم أن يلتفت الى الروح من أجل معنى الحياة .

تلك هي وجهة النظر التي اعتمدناها في هذا الكتاب . فمن تضافر جهود ويلهلم ويونغ صار لدينا لأول مرة طريقة لفهم وتذوق الحكمة الشرقية ترضي جميع الجوانب من عقولنا . لقد انتزعناها من ميدان الميتافيزيقيا ووضعناها في نطاق الخبرة

السيكولوجية ؛ وصرنا نتعامل معها بأداة جديدة كل الجدّة ، في مأمن من التشويهات التي تعرّض لها الشرق على أيدي تجار المذاهب والنحل في الغرب . وفي نفس الوقت ، يَعْمُقُ لدينا معناها ، عندما نعلم أننا ، بالرغم من الفجوة الكبيرة التي تفصلنا عن الشرق ، نسير تماماً على دروب مماثلة حين نعير عالمنا الداخلي انتباهنا .

لكن هذا الكتاب لا يعطينا مقاربة جديدة للشرق وحسب ، وإنما يدعم أيضاً وجهة النظر التي تتطور في الغرب فيما يتعلق بالنفس . فصياغة جديدة للقيم الشائعة اليوم تُخرج الإنسان الحديث من عالم طفولة تقاليد الجماعة الى عالم رجولة الاختيار الفردي ؛ إذ يعلم أن اختياره وقدره باتا يتوقفان الآن على فهمه لنفسه . لقد تعلم ، في السنين الأخيرة ، الشيء الكثير عن العناصر القائمة في نفسه ، وظلّت الى اليوم لا يخامره ارتياب فيها ، لكن التوكيد كان في الأغلب منصباً على الجانب السكوني وحده حتى لقد ألفى نفسه لا يمتلك أكثر من قائمة بالمحتويات ، ذات طبيعة أثقلت كاهله تعباً أكثر مما حفزته على التحكم بالمشكلات التي تواجهه . ومع ذلك أن ما يستولي على مخيلة الإنسان الحديث أكثر من كل شيء آخر هو حاجته الى فهم نفسه من خلال التغير والتجدد . بعد أن شاهد الإنسان الحديث عالم المادة يختفي من أمام باصرته العلمية ، ثم يعود لكي يظهر ثانية في صورة عالم من الطاقة ، راح يطرح على نفسه سؤالاً جريئاً : ألا ينطوي هو في نفسه على ذخيرة من القوى الدفينة التي ، ان فهمها صحيحاً، تمدّه برؤية جديدة، وتعينه على ضمان المستقبل له؟ في هذا الكتاب يأتيه الجواب من مصدرين بينهما فرق شاسع : اليوغا الصينية وعلم النفس التحليلي . ان «سر الزهرة الذهبية» ، منتزعاً من إطاره القديم ، هو سر قوى النمو الكامنة في النفس ، وهذه القوى نفسها على نحو ما تتكشف فيه لعقول الغربيين تشكل أيضاً موضوع الشرح الذي تولاه يونغ . في هذا الشرح يبيّن لنا يونغ عمق التطور السيكولوجي العميق الذي ينتج عن العلاقة الصحيحة بالقوى الموجودة في النفس .

* * *

في الطبعة الألمانية يأتي شرح يونغ أولاً ، يليه تعريف ويلهلم للنص الصيني ، ثم يلي ذلك النص نفسه . بناء على طلب يونغ ، تغيّر هذا الترتيب بحيث يأتي الشرح بعد النص .

الكلمات الصينيّة الواردة في هذه الطبعة هي في صيغتها الإنكليزية ، أنا مدين للسيد آرثر وايْلي وللعقيد ف . سي . سي ايكرتون من أجل القيام بأعمال النسخ الضرورية . وقد تفضل هذا الأخير بإبداء انتباهه الشخصي الى كتابة مخطوطتي .

بغية مساعدة القارىء على أن يثبت في ذهنه الصلة بين مختلف المفاهيم الصينية من مثل : هْسِنْغ ـ مِنْغ ـ كْواي ـ شِن ، الخ ، اضفت ملحقين أحدهما مكتوباً والآخر مرسوماً .

من حسن حظي انني قمت بهذه الترجمة تحت اشراف الدكتور يونغ ، والى هذه الواقعة ، وإلى مزيد العون الذي تلقيته من السيدة يونغ ، انا مدين بالنجاح الذي قد أصبته في مواجهة ما اعترضني من صعاب .

كذلك كان لي امتياز قيام الدكتورة ايرلا رودا كيفتش بقراءة المخطوط ونقده ، وأنا شديد الامتنان لمساعدتها التي لا تقدر بثمن .

زوريخ ،

آذار ، ١٩٣١

كاري . ف . باينز

ملاحظة المترجم على الطبعة الجديدة المنقحة

انقضى ثلاثون عاماً على ظهور الطبعة الانكليزية الأولى من «سـر الزهـرة الذهبية» . وفي غضون ذلك نشبت حرب عالمية ثانية ، وتلوح حرب عالمية ثالثة احتمالاً قائماً . والإنسان ما برح ينفق طاقته على العالم الخارجي لا يعوقه في ذلك عائق . وسط هذا التوجه الى الخارج ، (الموقف الانبساطي) ، تنحسر قارّة الروح عن الأفق . تُراها ، أما تزال موجودة ؟ ان الطبعة الجديدة من هذا الكتاب تحمل الجواب بالإثبات . فهي تذكرنا بأن الانسان فعلاً ما فقد قط رؤيته لـ قارة الروح ، وأن غزو الفضاء الداخلي ، أعني فهمه لنفسه ، لسوف يظل الهدف النهائي للإنسان ، ك . غ . يونغ ، الذي مَحَض نفسه كليّاً لهذا الهدف ، مات في عام ١٩٦١ . وقرّاء هذه الطبعة الجديدة سوف يرون فيها إحياء لذكراه بوصفه ثاني اثنين اشتركا في هذا الكتاب .

* * *

اضيفت الى الطبعة الألمانية الخامسة من «سـر الزهـرة الذهبية» عدة صفحات من نص صيني آخر في اليوغا له صلة وثيقة بنص «الـزهـرة الذهبية» . هذا النص هو ال «هُوي مِنْغ تِشنغ» ، أو «كتاب الوعي والحياة» . وتظهر هذه المادة الجديدة

بالإنكليزية لأول مرة ، ومعها مذكرة تمهيدية بقلم سالومي ويلهلم تتضمن رأياً موجزاً ، لكن هاماً ، ابداه زوجها في ال «هْوِي مِنْغ تِشنغ» . كذلك تظهر لأول مرة بالإنكليزية مادة جديدة أخرى هي مقدمة يونغ على الطبعة الألمانية الثانية .

وقد أحدث التنقيح بعض التغييرات الجذرية على المصطلحات في هذه الطبعة ، بناء على نصيحة هلموت ويلهلم ، أبدلنا ترجمة كلمة «هْسِنْغ» من «الجوهر» (Wesen) ، الى جوهر الطبيعة البشرية ، أو «الطبيعة البشرية» ، اختصاراً ، أن «هْسِنْغ» ، التي غالباً ما تتناسق مع «مِنْغ» (الحياة) ، هي كهذه الأخيرة ، مبدأ كوني . طبعاً ، ان القارىء الغربي ليروعه ان يفكر في الطبيعة البشرية من خلال هذه المفاهيم ، لكن الفكرة أساسية في الفلسفة الصينية . وهناك مبدأ عالمي ثالثْ هو «هْوِي» (hui) ، له أهمية في الطبعة الجديدة بسبب الـ هُوْي مِنْغ تِشْنغ» . ان «هُوِي» ، الوعي متعلق بـ «هُسِنْغ» ، الطبيعة البشرية ، لكنه غير متحد بها . ان بينهما حلقة مشتركة هي انهما كليهما ضدان لـ «مِنْغ» ، الحياة ، لكنهما مفهومان منفصلان في الفكر الصيني .

كذلك أدخلنا تغييراً هاماً على الترجمة ، أيضاً بناء على طلب هلموت ويلهلم ، اذ استبدلنا «الطاقة» (energy) بـ «القوة» (force) ومثاله «انكفاء الطاقة الى الخلف» .

لقد جرى تنقيح الترجمة وتدقيقها بعناية فائقة تلافياً لأخطاء محتملة . هذا وإن معاونة هلموت ويلهلم على تنقيح الجزء من الكتاب الذي كتبه والده قد أدّت الى إدخال تحسينات كثيرة الى جانب ما تقدم ذكره . كذلك أنا مدين له بعدد من الهوامش التي بإذاني بها والإبانات الخاصة بالعلاقة ما بين هِسْنْغ ، مِنْغ ، هْوِي .

ابنتي ، اكزيمينا دي انكولو ، قدّمت لي مساعدة لم يكن لي غنى عنها فيما يتعلق بتنقيح الكتاب على وجه الإجمال .

موريس ، كنكتكوت
١٩٦١

كاري ف . باينز

مقدمة الطبعة الألمانية الثانية

بعث إلي صديقي الراحل ، ريتشارد ويلهلم ، الذي اشترك معي في تأليف هذا الكتاب ، بنص «سر الزهرة الذهبية» في وقت كان بالنسبة الى عملي الخاص وقتاً دقيقاً للغاية . فقد كنت منصرفاً الى البحث في سياقات الخافية الجامعة منذ العام ١٩١٣ ، ووصلت الى نتائج بدت لي موضعاً للتساؤل في أكثر من ناحية . كانت نتائج لا تتعدّى كل ما هو معروف لدى السيكولوجيا «الأكاديمية» وحسب ، وانما تتعدّى أيضا حدود السيكولوجيا الطبية الشخصية حصراً . لقد كانت لُقى ذات صلة بظاهراتيّة رحيبة لم يعد ممكناً أن نطبّق عليها المقولات والمناهج التي عرفناها حتى الآن . لكن النتائج التي توصلت اليها ، وهي مبنيّة على مجهود بذلته طوال خمسة عشر عاماً ، بَدَتْ لي نتائج غير حاسمة ، لأن ما من مقارنة ممكنة كانت متاحة . إذ لم أعرف حقلاً من حقول الخبرة البشرية كان يمكنني به أن أدعم لُقاي دعماً على شيء من اليقين . المقارنات الوحيدة الممكنة ـ وقد كانت هذه موغلة في القدم كما يجب علي أن اعترف ـ هي ما وجدته متفرقاً في تضاعيف التقارير التي كُتبتْ عن الهراطقة . غير أن هذه الصلة لم تكن لتُيسّر عليّ المهمة التي ندبْتُ نفسي لها ؛ على العكس ، لقد زادت من صعوبتها ؛ ذلك أن الأنظمة الغنوصية لم تكن تتألف من الاختبارات النفسية المباشرة الا في جزء صغير منها ، لقد كان القسم الأعظم منها عبارة عن

تعديلات ذات طابع نظري وتصنيفي . ولما كنا لا نملك غير القليل من النصوص المفصلة ، وكان معظم ما هو معروف منها آتياً من روايات نقلها أو وضعها خصومهم المسيحيون ، كان لنا ـ انْ لم نُرد ان نقول غير الأقل ـ معرفة غيرُ مكافئة عن تاريخ هذا الأدب الغريب والمختلط الذي تصعب الإحاطةُ به ، ويصح نفس الشيء عن محتوياته . لكن بعد أن أخذت بعين الاعتبار ان حقبة لا تقل عن سبعمائة وألف سنة أو ثمانمائة وألف سنة تفصل الحاضر عن الماضي ، بدا لي أن أستمد سنداً من ذلك الميدان ضرْباً من المخاطرة الخارقة . ثم ان الصلات بين النتائج التي توصلت إليها وما يمكن أن أدعمها به من المادة الغنوصية كانت في جزء منها ذات طابع ثانوي تركت ثغرات في القضية الرئيسية ، مما جعل الإفادة من هذه المادة أمراً مستحيلاً .

ولقد جاء النص الذي أرسله لي ويلهلم لكي يساعدني على الخروج من هذه الورطة . اذ اشتمل بالضبط على تلك القطع التي طالما بحثت عنها على غير طائل عند الغنوصيين . وبذلك أصبح النص مناسبة طيّبة لكي انشر ، في صيغة وقتية على الأقل ، بعضاً من النتائج الأساسية التي توصلت اليها في أبحاثي .

يومئذ بدا لي من غير المهم أن يكون «سر الزهرة الذهبية» نصّاً طاوّياً عن اليوغا الصينية وحسب ، وإنما أن يكون أثراً سيمياوياً أيضاً . مهما يكن من أمر ، فقد أتاحت لي دراسة عميقة للآثار اللاتينية قمت بها فيها بعد أن أصحح نظرتي اذ أظهرتني على أن الطابع السيمياوي الذي اتسم به النص لذو أهمية من الدرجة الأولى . لكن هذا ، من غير ريب ، ليس هو المكان الذي ينبغي أن أدخل فيه في مزيد من التفاصيل حول هذه النقطة . لن أؤكد على أن نص «الزهرة الذهبية» هو أول ما وضعني على وجهة الطريق الصحيح . فلدينا في السيمياء الوسيطة الحلقة الواصلة التي طالما بحثنا عنها بين الغنوص وسياقات الخافية الجامعة التي نلاحظها اليوم في الإنسان الحديث .

اغتنم هذه الفرصة لكي أشير الى بعض أخطاء في الفهم وقع ضحيتها حتى العالمون من قراء هذا الكتاب . ليس من الأمور غير المكرورة أن يظن أناس أن

غرضي من نشر هذا الكتاب هو أن أضع بين أيدي الجمهور منهجاً في تحقيق السعادة . لقد حاول مثل هؤلاء القراء ، في فهم مغاير كلياً لما أقول في الشرح ، أن يقلدوا «المنهج» الموصوف في النص الصيني . عسى أن يكون هؤلاء الممثلون للعمق الروحي قليلي العدد !!

وهناك خطأ آخر في الفهم نشأ عنه رأي يقول بأنني ، في الشرح ، كنت رسمت الى حدّ ماصورة لمنهجي في العلاج النفسي الذي قيل بأنه يتكون من ايحائي لمرضاي بأفكار شرقية لأغراض شفائية . لا أعتقد أنّ في شرحي ما يعبر نفسه الى ذلك النوع من الخزعبلات . على كل حال ، ان مثل هذا الرأي خاطىء كلياً ، وهو مبني على المفهوم لشائع بأن علم النفس ما هو الا اختراع من أجل غرض محدد وليس بالعلم التجريبي . وإلى هذه الطائفة ينتسب الرأي الآخر الذي يساويه سطحية وغباءً والقائل بأن فكرة «الخافية الجامعة» Collective Unconscious ما هي الا فكرة «ميتافيزيقية». انها مسألة مفهوم تجريبي يجب وضعها الى جانب مفهوم «الغريزة» ، كما يضح ذلك لكل من يقرأ في شيء من الانتباه .

اضفتُ الى هذه الطبعة الثانية الخطابَ الذي ألقيْتُهُ تكريماً لريتشارد ويلهلم في الحفل التذكاري الذي أُقيم له في ميونيخ في العاشر من أيار من عام ١٩٣٠ . وقد سبق وأن نُشر في الطبعة الإنكليزية الأولى لعام ١٩٣١ .

ك . غ . يونغ

مقدمة الطبعة الألمانية الخامسة

أُضيف الى هذه الطبعة ترجمة الجزء التمهيدي من نص تأملي آخر ينبع من تقليد مماثل للتقليد الذي يكوّن «سرُّ الزهرة الذهبية» جزءاً منه ، ويظهر مع هذا الأخير في الطبعة الصينية . وقد كتب ريتشارد ويلهلم المدخل القصير التالي الى هذا النص التأملي في عام ١٩٢٦ :

كتاب الـ هُوِي مِنْغ تِشْنغ» ، أو كتاب الوعي والحياة ، كتبه ليو هْوا ـ يانغ في العام ١٧٩٤ . كان المؤلف من مواليد مقاطعة كيانكسي ، ثم أصبح راهباً في دير «زهرة اللوتس المزدوجة» في مقاطعة انْهُوي . الترجمة مستقاة من طبعة جديدة عِدّتها ألف نسخة طبعت مون «سر الزهرة الذهبية» في عام ١٩٢١ ، وتولّى طبعها شخص انتحل لنفسه اسم هْوي تشن ـ تسو («الذي أصبح عارفاً للحقيقة») .

يتضمن النص توجيهات بوذيّة وطاويّة تتصل بالتأمل . وتقوم فكرته الأساسية على أن قطري النفس ، الواعية والخافية ، ينفصلان عند الولادة . فالواعية هي العنصر الذي يعيّن ما هو منفصل ومستقْرد في الشخص ، والخافية هي العنصر الذي يوحّد الانسان بالكون . وان توحيد العنصرين عن طريق التأمل هو المبدأ الذي يقوم عليه العمل . يجب تلقيح الخافية بالواعية من حيث هي منغمسة فيها . بهذه الطريقة

تنشط الخافية وترتفع ، الى جانب الواعية المغتنية ، الى مستوى عقلي يفوق المستوى الشخصي ، ويتبدّى ولادةً روحيةً جديدة . ثم تؤدي هذه الولادة الجديدة أولاً الى تمايز داخلي متقدم لحالة الوعي في بُنى فكرية مستقلة . غير أن خاتمة التأمل تؤدي اضطراراً الى محو جميع الفروقات من الحياة المتكاملة النهائية ، وهي حياة خالصة من الأضداد .

ظهرت الترجمة الألمانية (لهذا النص التأملي) أول مرة في عام ١٩٢٦ ، وقد قام بالترجمة الدكتور ل . س . لو ، الذي كان في ذلك الحين معاوناً لريتشارد ويلهلم وأميناً للمعهد الصيني في فرانكفورت . وقد تمت الترجمة بناء على اقتراح من ويلهلم الذي قام بمراجعتها فجاءت في صيغتها الراهنة قريبة جداً من أسلوب ترجمة «سر الـزهـرة الذهبية» ، ولما كانت الترجمة الأولى محدودة النسخ ، رأينا من المناسب اغتنام هذه الفرصة ووضع النص في متناول دائرة أوسع من القراء .

١٩٥٧

سالومي ويلهلم

تعريف ريتشارد ويلهلم بالنص

أصل ومحتويات كتاب الـ «طّآي آي تشنْ هْوا تسونْغ تشيهْ»

أو

سر الزهـرة الذهبية

١ ـ اصل الكتاب

مصدر الكتاب دائرة باطنية صينية . وقد ظل حقبةً طويلة ينقل بالرواية الشفهية ، ثم صار يُنقل كتابةً . ترجع أول طبعة له الى القرن الثامن عشر . ثم أعيد طبع ألف نسخة منه في بكين عام ١٩٢٦ ، ومعه «هُوي مِنْغ تِشنْغ» ، كتاب الوعي والحياة ، ووزعت على طائفة صغيرة من الناس الذين رأى الناشر انهم يفهمون المسائل التي يتناولها . وهذا يفسر أسباب حصولي على نسخة منه . كانت اعادة طبع الكتاب ووضعه في التداول ناشئة عن اليقظة الدينية الجديدة النابعة من متطلبات الأوضاع الاقتصادية والسياسية في الصين ، حيث تشكلت سلسلة من الفرق السرّية ترمي الى الوصول ، عن طريق ممارسة التقاليد السرية التي ترجع الى الأزمنة القديمة ، الى حالة نفسية ترفعهم فوق جميع أنواع بؤس الحياة . وكانت الطرق المؤدية الى ذلك هي الكتابة السحرية والصلاة والتضحية الخ . اضافة الى الجلسات الوسيطية الواسعة الانتشار في الصين ، حيث كان يجري بواسطتها محاولة الاتصال المباشر بالآلهة والموتى ؛ هذا فضلاً عن إجراء التجارب بواسطة اللوحة الصغيرة[1] ، أو القلم ذي الروح الطائرة كما يسميه الصينيون .

(١) ـ من الأمور الغريبة ان الرجل الذي أذاع هذا النص كُتب له على اللوحة الصغيرة مقدمة أعدّها=

لكن ، جنباً الى جنب مع هذه الممارسات ، كان هناك حركة باطنية محضت نفسها للطريق السيكولوجي ، وأعني به التأمل ، أو ممارسة اليوغا . كان اتباع هذا الطريق ، تمييزاً لهم من الـ «يوغي» ، الأوروبيين الذين لا تعني لهم هذه الممارسات الشرقية أكثر من شكل من أشكال الرياضة ، يصلون الى الخبرة المركزية ، ويكاد أن يكون ذلك بلا استثناء . وبذا يمكننا القول أن ثمة طريقاً مضموناً تماماً يفضي بنا الى اختبارات نفسية محددة . (هنا يجب أن نلاحظ أن ك . غ . يونغ كان على حق عندما بيّن ان العقلية الصينية ، حتى عهد قريب جداً على الأقل ، تختلف اختلافاً جوهرياً في بعض جوانبها الأساسية عن العقلية الأوروبية) . الى جانب التحلل من اغلال العالم الخارجي الوهمي ، ثمة أهداف كثيرة أخرى كانت الفرق المختلفة تسعى الى تحقيقها . فالفرق ذات المستويات الأعلى تستخدم هذا التحلل (من الأغلال) ، الحاصل بالتأمل ، لكي تصل الى النرفانا البوذية ، أو هي تعلّم ، كما في المثال المبين في هذا الكتاب ، أن باستطاعة الانسان عن طريق اتحاد المبدأ الروحي الكامن فيه بالقوى النفسية المتلازمة معه أن يعدّ نفسه لامكانية الحياة بعد الموت ، لا كمجرّد كائن شبحي محكوم عليه بالتفسخ والانحلال ، بل كروح واعية مدركة . يضاف الى ذلك ، وفي الأغلب فيما يتصل بهذه الفكرة ، وجود مدارس فكرية تحاول بواسطة هذا التأمل أن تمارس تأثيراً نفسياً على سياقات معينة في الجملة العصبية . (لعلنا كأوروبيين كنا تكلمنا هنا على جملة الغدد الصمّاء) . ومن شأن هذا التأثير أن يقوّي ويجدّ ويسوي سياقات الحياة ، حتى ليقهر الموت بطريقة تجعله نهاية منسجمة للحياة . أي ، أن المبدأ الروحي ، بعد أن يتكيف مع استمرارية مستقلة من الحياة في جسد الروح ، المخلوق من نظام طاقته الخاصة ، يغادر الجسد الأرضي ويخلّفه وراءه كما تخلّف ذبابة الـ «سيكادا» قشرتها .

لو ـ تسو ـ شيخ أسرة طانغ (٦١٨ ـ ٩٠٧م) ، الذي عهد اليه بهذه التعاليم . غير أن هذه المقدمة تختلف جداً عن الأفكار التي يعرضها الكتاب ، أفكار سطحية ولا معنى لها ، شأنها كشأن أكثر ما ينتج عن هذه التجارب (ر . و) .

أما الطبقات الدنيا من هذه الفرق فقد سلكت هذا الطريق سعياً وراء اكتساب قوى سحرية وقدرة على طرد الأرواح الشريرة والأمراض ، مستعينة بالطلاسم والتعاويذ ، الشفهية منها والمكتوبة . ان سلوك هذا الطريق قد يؤدي الى جنون جماعي طارىء يتخذ لنفسه شكل الاضطرابات الدينية والسياسية كما تبدى ذلك في حركة البوكسر على سبيل المثال . لكن ، في الآونة الاخيرة ، ظهر اتجاه توفيقي ذو حضور دائم تمثل في الانضمام الى هذه المنظمات اتباع ينتمون الى جميع ديانات العالم الخمس (الكنفوشيوسية ، الطاوية ، البوذية ، المحمدية ، المسيحية ، بل حتى اليهودية) من دون أن يترتب عليهم أن يقطعوا العرى مع دياناتهم التي نشؤوا عليها .

بعد أن وصفنا بإيجاز القاع الذي انبثقت منه هذه الحركات في زماننا ، لا بدّ لنا من قول كلمة عن المصادر التي تحدّرت منها تعاليم هذا الكتاب . فقد ظهرت اكتشافات رائعة الى النور ، ونحن نرى أن هذه المبادىء أقدم بكثير من صيغتها المكتوبة الراهنة . وقد يرجع كتاب «سر الزهرة الذهبية» الى القرن السابع عشر باعتبار انه طُبع نقلاً عن ألواح خشبية . يصف لنا الناشر عثوره على نسخة غير تامة من الكتاب ترجع الى ذلك التاريخ في أحد شوارع بكين القديمة حيث تباع الكتب والتحف ، ويذكر لنا كيف أتمّه فيما بعد نقلاً عن كتاب كان في حوزة أصدقائه . لكن التقليد الشفهي يرجع الى أقدم من ذلك التاريخ ، الى ديانة «اكسير الحياة الذهبي» التي ظهرت في القرن الثامن . ويقال أن مؤسس هذه الديانة هو شيخ الطاوية الشهير ، واسمه لو ين (لو تونغ - بن) ، الذي اعتبره الفولكلور أحد الخالدين الثمانية ، وتجمعت حوله بمرور الزمان ذخيرة غنية من الأساطير . وقد لقيت هذه الفرقة ، شأنها في هذا كشأن جميع الأديان ، من وطنية وأجنبية ، تسامحاً وعطفاً في حقبة «طَأَنْغ» ، وانتشرت انتشاراً واسعاً . لكن ، بما انها كانت ديانة باطنية وسرّية ، بدأت مع الأيام تعاني من الاضطهاد ، لأن اتباعها كان يُشك في انهم لا يحيكون المؤامرات والدسائس السياسية . ثم توالت الملاحقات على اتباعها من قبل حكومة ناصبتهم العداء ، ثم بطريقة بالغة القسوة من قبل أسرة «مانشو» ، قبيل

سقوطها[1] . فتحوّل كثير من أتباعها الى المسيحية ، وكانوا جميعاً ، حتى ولو لم يدخلوا الكنيسة فعلاً ، يتخذون من المسيحية موقفاً يتصف بالمودة .

يقدم لنا هذا الكتاب خير وصف متوفر لديانة «اكسير الحياة الذهبي» وتنسب الأقوال التي تضمنها الى لو ـ ين ، واسمه الآخر لو تونغ ـ بن ، أو «لو» ، نزيل الكهف . ويعرّفنا به الكتاب بالأب لو ، لو ـ تسو . عاش بين نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع . وقد أضيف الى أقواله شرح لاحق ينبع من نفس التقليد .

من أين حصل «لو» على علمه الباطني ، السـرّي ؟ هو نفسه ينسب علمه الى «كْوان ين ـ هْسي» ، المعلم ين ـ هْسي الباسيّ ، الذي دوّن لأجله «لاو ـ تسي» كتابه الموسوم بعنوان «طاوتهْ تشنغ» ، على ما يذكر التقليد . والحق اننا لنجد في هيكلية التعاليم أفكاراً كثيرة جداً مأخوذة من تعليم صوفي باطني وسرّي نجده في «طاوتهْ تشنغ» ، من ذلك «آلهة الوادي» التي نجدها تحت اسم «روح الوادي» عند لاو ـ تسي . لكن بينما أخذت الطاوية تنحطّ تدريجياً في الحقبة الهانيّة[1] الى سحر خارجي بسبب سعي سَحَرة القصر الطاويين بواسطة السيمياء للعثور على الحبّة الذهبية (حجر الفلاسفة) التي تخلق من المعادن الخسيسة ذهباً وتهب الناس خلوداً فيزيائياً ، كانت حركة «لو ين» تمثل إصلاحاً في الطاوية ، اذ غدت العلامات السيمياوية رموزاً للسياقات النفسية . من هذه الناحية ، كانت وثيقة الصلة بأفكار «لاو ـ تسي» الأصلية . غير أن هذا الأخير كان إنساناً حراً تماماً ، وكان خَلَفُهُ «تشوانغ ـ تسو» يحتقر من كانوا يمارسون اليوغا في شعوذة ، كما كان يحتقر المتطببين والجارين وراء «اكسير الحياة» ، رغم انه هو نفسه ، طبعاً ، كان يمارس التأمل الذي استطاع بواسطته أن يصل إلى ذلك الحدس بالوحدة التي أسس عليها في وقت لاحق نظامه المتطور فكرياً . عند «لو ين» نجد قدراً معيناً من الإيمان ، اتجاهاً دينياً أقْنَعَهُ ، بتحريض من البوذية ، بالصفة الوهمية لجميع الأشياء الخارجية ، لكن بطريقة تختلف

---

(١) ـ في عام ١٨٩١م ، قتل أُجراء «مانشو» ١٥,٠٠٠ من أتباعها .

(١) ـ بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الثالث بعده (ك . ف . ب) .

اختلافاً بيّناً عن البوذية . فقد كان ينشد بكل ما أوتي من قوة القطب الثابت في زوالية الظاهرات ، حيث يستطيع الشيخ أن يبلغ الحياة الأبدية ، وهذه فكرة غريبة جداً عن البوذية ، التي تنكر على «الأنيّة» Ego أن يكون لها جوهر . غير أننا يجب الا نقلل من أهمية تأثير البوذية المهيانية التي كانت سيطرت على الفكر الصيني في تلك الحقبة . فالمقاطع البوذية يُستشهد بها مرة بعد مرة . والحق أن هذا التأثير في النص الذي نعرضه هو أكبر مما قد يظن أن تكون عليه الحال في ديانة اكسير الحياة الذهبي عموماً . ففي النصف الثاني من الجزء الثالث اشارة صريحة الى المنهج المعروف بـ «تثبيت التفكر» ، (تشيه ـ كْوان) ، وهو منهج بوذي صرفاً كانت تمارسه مدرسة طْيَيان طْاي التي من تشيه كْاي [تشيه آي ٥٣١ ـ ٥٩٧م] .

بعد هذه النقطة نلاحظ انقطاعاً في سلسلة التفكير . فمن ناحية ، نجد زيادة في وصف تعهد الزهرة بالعناية ، ومن ناحية ثانية ، تظهر أفكار بوذية صرفة تشجب العالم ، وتنقل الهدف بصورة توكيدية نحو النرفانا. ثم يلي ذلك عدة أجزاء(١) ليس لها قيمة أكثر من سقط المتاع ، اذا اعتبرنا الارتقاء الروحي والتماسك الذي تميز به العمل على وجه الإجمال . زد على ذلك أن السعي نحو الولادة الداخلية الجديدة من خلال «دوران النور» ، وخلق لباب الحبّة الإلهية ، لا يوصف الا في مراحله الأولى ، مع أن المراحل الأخيرة هي المسمّاة بالهدف . (قارن ذلك بـ هُوي مِنْغ تشنْغ ، الذي وضعه ليو هْوا ـ يانغ ، حيث تُشْرح هذه المراحل بعناية أكبر) . ولذلك لا يَسعنا الا الارتياب في أن جزءاً من المخطوط قد ضاع فعلاً واستُعيض عنه من مصادر أخرى . ان صح هذا ، فقد يفسر لنا انقطاع الاستمرارية وتدني نوعية الأجزاء التي لم نترجمها هنا .

غير أننا ، حين نقرأ النص خالين من الغرض ، لسوف نجد أن هذين المصدرين ، الطاوية والبوذية ، غير كافيين لتغطية كل المجال الفكري الذي تضمنه

---

(١) ـ هذه الأجزاء محذوفة من الترجمة الحالية (ر .و) .

النص : فالكنفوشيوسية في الهيئة التي قام عليها كتاب الـ «آي ـ تشنغ» داخلة فيه أيضاً . فالمثلثات الثمانية الأساسية (باكوا) التي تضمنها كتاب الـ «آي ـ تشنغ» مندرجة في مختلف المقاطع من النص باعتبارها رموزاً لسياقات داخلية معينة ، وفيما بعد سوف نعمل على شرح الأثر الناتج عن استخدام هذا الرمز . فيما يتعلق بالجوانب الأخرى ، بما أن الكنفوشيوسية بجمعها والطاوية قاعدة مشتركة واسعة ، فإن اجتماع هاتين المدرستين الفكريتين في النص لم يفقده تماسكه .

ولعل أكثر من قارىء اوروبي يستوقفه ويروعه أن يجد في النص أقوالاً مألوفة له في التعليم المسيحي ، بينما نجد ، من ناحية أخرى ، نفس هذه الأشياء المعروفة ، التي غالباً ما تعتبر في اوروبا اصطلاحات اكليريكية ليس غير ، نجدها هنا في منظور مختلف تماماً بسبب الصلات السيكولوجية التي تستعمل فيها . ففيه نجد حدوسا ومفاهيم من مثل ما يلي ، نختار لا على التعيين بضعة منها مما نقف عنده على وجه الخصوص : النور حياة الإنسان . العين ضياء الجسد . الإنسان يولد روحياً ولادة ثانية من الماء والنار . وإلى ذلك يجب أن نضيف «أرض الفكر» (روح) ، بما هي رحم ، أو حقل محروث . لنقارن هذا بأقوال يوحنا : «اعمدكم بالماء ، وسوف يأتي بعدي من يعمد بالروح القدس ونار» ، أو : «ما لم يولد الإنسان من الماء والروح ، لن يدخل ملكوت الله . لشدّ ما تغدو فكرة الماء موحية ، مثلاً من حيث إنها «لباب الحبّة» في النص الصيني . ولشدّ ما يتضح الفرق بين فعالية «الجريان نحو الخارج» الذي يستنفد نفسه في ولادة (ما هو مولود من الجسد يظل جسداً) ، وبين حركة «الجريان الى الخلف» (الولادة الجديدة) .

والحمام ، أيضاً ، يلعب دوره في الولادة الجديدة ، كما يفعل ذلك في المعمودية التي بشّر بها يوحنا ، وفي المعمودية المسيحية أيضاً . حتى الزواج السرّي ، الذي يلعب مثل هذا الدور الهام في الأمثال المسيحية ، يظهر مرات عديدة . كذلك هناك ذكر للولد ، الصبي الذي في داخل نفوسنا (Puer aeternus ، المسيح ، الذي يجب أن يولد فينا ، الذي هو عريس الروح من جانب آخر) ، والعروس أيضاً . ولعل أكثر ما يستوقفنا ، حتى وإن كان ذلك جزئيّة صغيرة

ظاهرياً ، هو الحاجة الى تعمير المصابيح بالزيت لكي يسطع نورها ، نجدها ترتدي معنى سيكولوجياً جديداً ووزناً في نصنا . وجدير بالذكر أن تعبير «الزهـرة الذهبية» (تشن هْوا) ، في سياقه الباطني ، ينطوي على كلمة «النور» . فلو كتبنا الحرفين احدهما فوق الآخر حتى يتلامسا ، لَشَكّل الجزء الأسفل من الحرف الأعلى ، والجزء الأعلى من الحرف الاسفل ، الحرفَ الدالَّ على «النور» (كْوانغ) . واضح أن هذه العلامة السرية كان اختراعها في زمن الاضطهاد ، عندما كان ضرورياً إسدالُ ستار كثيف من السرّية لكي يتاح للقصيدة مزيد من الانتشار . ولقد كان هذا بدوره دائماً هو السبب في بقاء التعليم مقصوراً على أوساط سرّية . لكن حتى في يومنا يظل اتباعها أكبر مما يبدو لنا من الخارج .

ولو تساءلنا من أين جاءت ديانة النور هذه ، لذهب تفكيرنا قبل كل شيء الى فارس ، فقد كان في الحقبة الطّأنْغيّة معابد فارسية في كثير من أنحاء الصين . ولكن حتى ولو اتفقت نقاط معينة مع ديانة زرادشت ، وخصوصاً مع التصوف الفارسي ، تظل ، من ناحية ثانية ، فروق كبيرة جداً قائمة . وهناك رأي آخر يجب أخْذُه بعين الاعتبار ، وأعني به التأثير المسيحي المباشر . فقد كانت المسيحية على مذهب نسطور ديانة احدى القبائل التركية ، الأويغور ، التي كانت متحالفة مع الامبراطور في تلك الحقبة . حظيت هذه الديانة بعطف شديد ، كما يشهد على ذلك النصب التذكاري النسطوري الذي أقيم في «شيان فو» في عام ٧٨١ ، وقد نُقش عليه كتابة بالصينية والسريانية . وبذلك تكون الصلات بين النساطرة وديانة اكسير الحياة الذهبي امراً ممكناً جداً . حتى لقد ذهب تيموثي ريتشارد الى حد اعتباره ديانة اكسير الحياة الذهبي مجرد احياء لقدماء النساطرة . وقد أدّى به الى هذا الرأي موافقات معينة في الطقس وتقاليد معينة في ديانة اكسير الحياة الذهبي تتصل باكتساب العضوية وثيقة القربى بالممارسات المسيحية . وفي وقت لاحق تبنى هذه النظرية من جديد ب . ي . ساكي Saeki [1] ، وعزّزها بليتورجية نسطورية اكتشفها بليوت Pelliot في طون ـ هْوانغ ،

(1) — The Nestorian Monument in China, London, 2nd edition, 1928.

وبنى عليها سلسلة من المقارنات ، حتى لقد ذهب الى حد المواحدة بين «لو ـ ين» ، مؤسس ديانة اكسير الحياة الذهبي ، وبين المدعو «آدم» الذي كتب النص على النصب النسطوري ، ودلّ على نفسه بالاسم الصيني : لو هْسيو ـ ين . بناء على هذه الفرضية ، يكون «لو ـ ين» ، مؤسس ديانة اكسير الحياة الذهبي ، مسيحياً من الفرقة النسطورية ! لقد أوغل «ساكي» استغراقاً في متعة المقارنات والمشابهات : تكاد أن تكون جميع أدلته مقنعة ، لكن تظل تعوزها النقطة الحاسمة التي «تبرشم» المسألة . كثير من براهينه الجزئية تشكل برهاناً واحداً ، لكن علينا أن نجاريه على الأقل الى حد نقبل معه ان في ديانة اكسير الحياة الذهبي مزجاً قوياً من الأفكار النسطورية التي نجدها واضحة أيضاً في المخطوط الراهن . بعض هذه الأفكار يبدو غريباً جداً في ثيابه الغريب ، بينما اتخذت أفكار أخرى نوعاً جديداً ورائعاً من الحيوية . هنا نصل الى احدى هذه النقاط التي ما برحت تثبت أن «الشرق والغرب لم يعد بوسعهما أن يظلا مفترقين» ، على حد تعبير غوته .

٢ . المقدمات السيكولوجية والكوسمولوجية التي اشتمل عليها النص

لكي تكون هذه الترجمة مفهومة ، يجدر بنا قول بضع كلمات أخرى عن الأسس الفلسفية التي ينهض عليها المنهج . هذه الفلسفة هي ، الى مدى معيّن ، الخاصيّة المشتركة لجميع الاتجاهات الفلسفية الصينية . انها مبنيّة على مقدمة مؤداها أن الكون والإنسان ، في التحليل الأخير ، يخضعان لنفس الناموس ، إن الانسان هو العالم الأصغر ، ولا تفصله عن العالم الأكبر حواجز ثابتة . وأن نفس القوانين التي تنطبق على احدهما تنطبق أيضاً على الآخر ، وأن الطريق الى أحدهما يفضي الى الآخر . وان النفس من الكون كالعالم الداخلي من العالم الخارجي . لذلك يسهم الإنسان في الطبيعة في كل الحوادث الكونية ، وهو منسوج معها داخلياً وخارجياً .

الطاو ، أوالطريق ، اذن يحكم الإنسان كما يحكم الطبيعة غير المرئية والمرئية (السماء والأرض). ويتكون الحرف الذي يدل على الطاو في صيغته الأصلية من «رأس» ، وربما يجب أن نترجمه بـ «البداية» ، ومن الحرف الذي يدل على «الذهاب» في صيغته المزدونة التي تنطوي أيضاً على معنى «الطريق» ، وتحت هذين الحرفين حرف يدل على «السكون» ، صار يحذف في طريقة الكتابة المتأخرة . اذن ، المعنى الأصلي يدل على «طريق» ينطلق من البداية ويفضي رأساً الى النهاية او الغاية ، وإن كان الطريق نفسه ثابتاً . وتقوم الفكرة الأساسية على أن الطاو هو الوسيلة لكل حركة وهو الذي يهبها امانوف ، وإن كان هو نفسه لا حَرَاك فيه . وعلى هذا تكون الأفلاك السماوية هي الطرق التي تسير عليها الكواكب ، وفلك الإنسان هو الطريق الذي يجب أن يسافر عليه . لقد استخدم لاو ـ تسي هذه الكلمة ـ وإن كان استخدامه لها بالمعنى الميتافيزيقي ـ باعتبارها المبدأ العالمي النهائي الذي يسبق التحقق (أو الصيرورة في الواقع) ، ولم يزل غير منقسم بفعل تباعد الأضواء التي يتوقف عليها الانبثاق الى واقع .

في الكنفوشيوسية فرق في المصطلح ، فيها لكلمة «طاو» معنى عالم داخلي ، ومعناه «الطريق الصحيح» ، فهو ؛ من ناحية ، طريق السماء ، وهو ، من ناحية أخرى ، طريق الإنسان . في الكنفوشيوسية ، المبدأ النهائي للواحد غير المنقسم هو ال «طَاي ـ تشي (قطب التقاطع الأعظم ، النهاية العظمى) . ويظهر اصطلاح «قطب» عَرضاً في هذا الكتاب أيضاً ، وحيثما يظهر يكنْ متماثلاً عن الطاو (الطريق) ، والطّاي ـ تشي (قطب التقاطع) ، صدرت مبادىء الواقع ، باعتبار ان احد القطبين هو النور (يانغ) والثاني الظلام أو الظل (ين) . من الباحثين الاوروبيين من التفت أولاً الى الجنس في تفسير هذين «المبدأين» ، لكن الحروف تدل على ظاهرات في الطبيعة . ين هو الظل ، وبالتالي هو الطرف الشمالي من الجبل والطرف الجنوبي من النهر (لأن موقع الشمس في النهار يجعل الطرف الجنوبي من النهر مظلماً) . اما يانغ ، في صيغته الأصلية الدالة على اعلام ترفرف وفي تطابق مع الحرف الدال على ين ، فهو الطرف الجنوبي من الجبل والطرف الشمالي من النهر .

انطلاقاً من معنى «النور» و«الظلام» ، اتسع المبدأ بعد ذلك حتى بات مشتملاً على جميع الأضداد القطبية ، ومنها الأضداد الجنسية . هذا ، ولما كان ين ويانغ كلاهما لها أصل مشترك في «واحد» غير منقسم ، ولا يفعلان الا في نطاق الظاهرات ، حيث يكون يانغ هو المبدأ الفاعل والشرط ، ويكون ين هو المبدأ القابل (= السالب) المشتق والمشروط ، كان من الواضح أن الثنائية الميتافيزيقية ليست هي الأساس في هذه الأفكار . وهناك مفهومان أقل تجريداً من ين ويانغ هما مفهوما المبدع والمتقبل اللذان يرتد أصلهما الى «كتاب التغيرات» (آي تشنغ) ، ويرمز لهما بالسماء والأرض . من خلال اتحاد السماء والأرض ، ومن خلال فعالية القوى الأولية الثنائية في هذا الميدان من النشاط (المحكوم بالقانون الأولي) ، الطاو) ، تكونت «عشرة آلاف الأشياء» ، أي ، العالم الخارجي .

من هذه الأشياء ما لو نظرنا اليه من الخارج لوجدناه أيضاً في الإنسان في هيئته الجسمانية الذي ما هو في جميع أجزائه الا عالم صغير . وهكذا ، على ما تذهب اليه الكنفوشيوسية ، تأتي طبيعة الإنسان الداخلية من السماء ، أو هي ، كما يعبر عن ذلك الطاوية ، شكل ظاهراتي من الطاو ، في عالم الظاهرات ، ينمو الإنسان ويتكثر أفراداً وفي كل منهم جوهر فرد مركزي (روحي) هو مبدأ الحياة . لكنه في لحظة الحمل ، أي قبل الولادة ، ينقسم الى ظاهرتين ثنائيتيّ القطب هما الطبيعة البشرية (هْسِنْغ) والحياة (مِنْغ) . الكلمة التي تدل على الطبيعة البشرية مؤلفة من كلمات تدل على القلب أو العقل (هْسِن) ، وعلى الأصل ، بما هو مولود (شنغ Sheng) . والقلب ، في الفكر الصيني ، هو مركز الواعية الانفعالية ، التي توقظها الحواس الخمس من خلال الرجوعات (= ردود الأفعال) غير الفكرية على الانطباعات التي تتلقاها من العالم الخارجي . اما الذي يبقى بمثابة طبقة سفلية حيث لا مشاعر يعبر عنها ، ويظل في حالة مفارقة تسمو على الوعي فهو الطبيعة البشرية (هْسِنْغ) . وتتفاوت الطبيعة البشرية بحسب ادق تحديد لهذا المفهوم ، فتكون اما خيِّرة في أصل نشأتها ، اذا نظرنا اليها من منطلق الفكرة الأبدية (منشيوس) ، او تكون شريرة ، أو

حيادية في أحسن الأحوال . لكن ان نظرنا اليها من منطلق التطور التاريخي - التجريبي ، لا يمكن أن تصبح شيئاً خيّراً الا بتطوير للجذور .

وتبدو الطبعة البشرية ، بما هي فكرة لا شك انها ذات صلة باللوغوس (الكلمة) ، تبدومحبوكة حبكاً جيداً بالحياة (مِنْغ) عندما تدخل في عالم الظاهرات . الحرف الدال على «مِنّغ» يعني في الحقيقة أمراً ملكياً ، وبالتالي قدراً ومصيراً ، أي القدر المكتوب على الإنسان ، وبالتالي أيضاً ، مدة الحياة أو العمر ، ومقدار الطاقة الحيوية الموضوعةتحت تصرف الإنسان ، وبذلك تكون الحياة وثيقة الصلة بالإيروس (العشق) . كلا المبدأين غير فردي ، او يتجاوز الفرد ، ان صح التعبير . فالإنسان ، بما هو كائن روحي ، مخلوق بشرياً بطبيعته (هِسْنغ) . ورغم أن الفرد يمتلكها ، الا انها تمتد بعيداً الى ما وراء حدود فرديته . والحياة (منغ) أيضاً غير فردية ، من حيث أن الانسان يجب أن يسلّم بقَدَره بلا مناقشة ، لأنه لا ينبع من إرادته الواعية الكنفوشيوسية ترى في الحياة (منغ) قانوناً سماوياً يجب على الإنسان ان يتكيف بحسبه ، والطاو تفهمها لعبة متعددة الألوان من الطبيعة لا فكاك لها من نواميس الطاو ، لكنها مصادفة بحتة مع ذلك ، اما البوذية الصينية فتراها صنْعاً صنعته (الكرْما) في قلب عالم الوهم .

إلى جانب هذه الثنائيات ، تتطابق في الإنسان الشخصي - الجسماني التوترات الثنائية القطب التالية : الجسد ينشطه تبادل التأثير والتأثر بين بنيتين نفسيتين : الأولى ، هُون hun ، وقد ترجمتها ، بسبب من انتسابها الى مبدأ (يانغ) ، بالأنيم[1] ، والثانية ، بْؤو ، التي تنتسب الى مبدأ (ين) ، وقد ترجمتها

---

(١) - استخدام ويلهم لاصطلاح «الأنيم» animus يمنح الكلمة معنى مختلفاً عن المعنى الذي يدل عليه مفهوم يونغ ، حيث الأنيم عنصر في تكوين المرأة النفسي . فيونغ يرى الـ «هُوْن» قريباً من معنى (اللوغوس) ، لكن هذا الاصطلاح لا يمكن استخدامه بدلاً من الـ «هون» ، أولاً ، لوجود مفهوم صيني آخر لم يزل أقرب الى اللوغوس وأعني به «هسنغ» ، أو الطبيعة البشرية ، وأيضاً ، لأن الـ «هُوْن» يوصف بأنه عمل شخصي ، بينما (اللوغوس) غير شخصي ، بتدقيق المعنى . والتعبير «روح - =

بالأنيمة[٢] . كلتا الفكرتين آتية من ملاحظة ما يجري عند الموت ، ولذلك تحتوي كلتاهما ، في هيئتها المكتوبة ، على علامة الشيطان أو العفريت[١] ، أي المغادر أو البارح (كُواي) . وكان يُعتقد أن الانيمة ذات ارتباط وثيق بالسياقات الجسمانية ، عند الموت تغور في الأرض وتتحلل . أما الأنيم فهو الروح الأعلى ، بعد الموت يعلو في الهواء ، حيث يظل في مبدأ الأمر ناشطاً مدة ثم يتبخر في الفراغ الأثيري ، أو ينكفىء الى حيث مخزن الحياة العام . وعند الأحياء ينطبق الاثنان الى درجة معينة على الجملة الدماغية وعلى جملة الضفيرة الشمسية ، ترتيباً . الأنيم يسكن في العينين ، والأنيمة في البطن . الأنيم ساطع ونشيط ، والأنيمة مظلمة ومقيدة الى الأرض . هذا ، وإن العلامة الدالة على الـ «هون» (الأنيم) مركبة من أحرف تدل على «الشيطان» و«الغيم» ، بينما العلامة الدالة على الـ «بْؤو» (الأنيمة) مؤلفة من الأحرف الدالة على «الشيطان» و«الأبيض» . ان من شأن هذا أن يدل على أفكار تماثل ما نجده في عقائد أخرى كالظل ـ الروح والجسد ـ الروح ، ولا شك أن المفهوم الصيني يتضمن شيئاً من هذا القبيل . غير أننا يجب أن نحاذر من الوقوع في مسألة المشتقات ، لأن الرسم الدال على الشيطان لا وجود له في معظم الكتابة القديمة ، ولذلك قد نجد أنفسنا نتعامل مع رموز أولية غير اشتقاقية . على كل حال ، ان الأنيم (هُون) هو روح يانغ المضيء ، والأنيمة (بْؤو) هي روح ين المظلمة .

= نفس» ، بما هو مضاد للنفس او الروح الأرضية ، قد يشتمل على معنى «هُوْن» كما شرحه ويلهلم . ولكي نتجنب التباساً محتملاً في المصطلح قررنا احداث هذا التبديل في الترجمة الانكليزية ، بعد ان اتفق المؤلفان على ان مثل هذا التغيير أمر مرغوب فيه . ولكن رغم ان الاستبدال قد يسهل الأشياء على القارىء ولن يتضمن تغييراً في المعنى ، الا انه يظل يستلزم ترتيباً جديداً لعدد من المقاطع مما من شأنه أن يفضي الى تباين واسع بين الطبعتين . لهذا السبب ، قررنا الا نحدث التغيير المطلوب (ك . ف . ب) .

(٢) ـ يجدر بالملاحظة أن «بْؤو» لا تنطبق الا على جانب واحد من (الأنيمة) كما يفهمها يونغ بحسب مفهوم هذا الاخير ، الجانب الروحي من (الأنيمة) هو في مثل أهمية الجانب الحيواني منها تماماً (ك . ف . ب) .

(١) ـ كلمة «شيطان» في الصينية لا تنطوي بالضرورة على مدلول شرير .

الدفق العادي وفق اتجاه عقارب الساعة[١] ، اي تدفق سياق الحياة انحداراً نحو الأسفل ، هو الدفق الذي تدخل فيه الروحان في علاقة فيما بينهما ، بما هما العاملان العقلي والحيواني . الأصل ان تكون الأنيمة ، الإرادة غير المميزة التي تجبر الأنيم أو العقل ، مدفوعة بالعواطف والأهواء ، على خدمتها . على الأقل تفعل الأنيمة هذا الى الحد الذي يتجه فيه العقل نحو الخارج ، فترشح طاقة كل من الأنيم والأنيمة الى الخارج وتستهلك الحياة نفسها .

من النتائج الايجابية لذلك خلق كائنات جديدة تستمر فيهم الحياة ، بينما «يستظهر»* الكائن الأصلي نفسه ، وفي النهاية تحوله الأشياء الى شيء . النتيجة هي الموت . الأنيمة تغوص ، والأنيم ينهض . أما الأنية Ego ، بعد أن سُلبت منها طاقتها ، فتُخلَّف الى الوراء في حالة مشكوك فيها .

اذا اذعنت الأنيّة للاستظهار ، مضت مندفعة نحو الأسفل وغارت في شقاء الموت ، لا تقتات الا على قليل من صور الحياة الوهمية التي تظل منجذبة اليها بدون أن تكون قادرة على المشاركة في شيء بصورة ايجابية (جحيم ، ارواح جائعة) . لكن اذا حاولت الأنيّة جاهدة أن ترتقي الى الأعلى بالرغم من سياق «الاستظهار» ، احتفظت لمدة (طالما شدّ من عزيمتها الجهود التي يبذلها الأحياء في القرابين

---

(١) ـ الكلمة الألمانية المستعملة هي Rechtlaufig التي تعني ، لو ترجمناها حرفيا ، «الدفق الصحيح» وهي تصف «طاقات» الجسد التي تتدفق انحداراً نحو الأسفل . وهكذا ترجمناها في جميع الحالات ، ما عدا الحالة المذكورة اعلاه ، بالدفق الذي ينحدر الى الأسفل بل يسد عليها ، توصف الحركة بأنها دفق الى الخلف Rucklaufig . يعلمنا نظام اليوغا تقانية التأمل التي نستطيع بواسطتها ان نعكس دفق الطاقة الطبيعي ، وأن نرفع الطاقة الى المراكز العليا ، حيث تصبح روحاً . اذا تركنا هذه النتيجة الأخيرة ، يصبح من اليسير على تلميذ علم النفس التحليلي أن يدرك الصلة بين جريان الطاقة الى الأسفل او الى الأعلى ومفهومي الانبساط والانطواء . هناك فرق هام هو أن الانبساط والانطواء لا ينطبقان الا على حركة الطاقة النفسية بينما يشتمل المفهوم الصيني على السياقين النفسي والفيزيولوجي جميعاً (ك ف ب) .

* ـ أي يجعل نفسه في «الظاهر» أو «الخارج» ـ المترجم .

والأضاحي) بحياة سعيدة نسبياً ، كل بحسب ما يستحق . في كلا الحالين ، يتقهقر العنصر الشخصي ثم يعقبه انطواء يتناسب مع الاستظهار . وعندئذ يصبح الكائن شبحاً عاجزاً لافتقاره الى طاقات الحياة ، ويأتي الى نهايته المحتومة .انه الآن ينال قسطه من ثمار أعماله الصالحة أو الشريرة ، إنْ في الجنة أو في النار ؛ وهما ، على كل حال ، ليسا شيئين خارجيين ، بل احوال داخلية صرفة . وكلما توغل الكائن في هذه الأحوال ، اشتد انطواؤه حتى يتلاشى نهائياً من صعيد الوجود ، كائنةً ما كانت طبيعته ، ثم يدخل رحماً جديدة ، ويبدأ وجوداً جديداً مزوّداً بتصوراته السابقة . هذه الحال هي حال الشيطان ، الروح ، البارح ، الذي ينسحب ، الكلمة الصينية الدالة على هذه الحال من الكينونة هي (كْواي)Kuei (غالباً ما تترجم خطأ بـ «الشيطان») .

ومن ناحية ثانية ، اذا امكن للإنسان احداث «الدفق الى الخلف» في أثناء الحياة ، أي توجيه حركة طاقات الحياة الى الأعلى ، وسيطر الأنيم على طاقات الأنيمة ، عندئذ يتحرر من الأشياء الخارجية . وهي أشياء معترف بها لكن يجب ألا تكون مشتهاة . بذلك يُسلب الوهمُ طاقته ، وتحدث دورة للطاقات داخلية ومتصاعدة . وتنسحب الأنية من شراك هذا العالم ، وتبقى حية بعد الموت لأن «الاستبطان»* حال دونها وتبديد طاقات الحياة في العالم الخارجي . فبدلاً من تبديد هذه الطاقات ، تخلق في قلب الدوران الداخلي للجوهر الفرد (الروحي) مركز حياة مستقلاً عن الوجود الجسماني . مثل هذه الأنيّة تكون إلهاً ، Shen, deus والحرف الدال على shen يعني الامتداد والخلق ، والـ (شن) هو ضد الـ (كْواي) . في الكتابة الصينية الأقدم ، يتمثل الـ (شن) بشكل متعرج مزدوج ، ويمكن أن يعني أيضاً الـرعد والصاعقة والتحـريض الكهـربائي . مثل هذا الكائن يظل حياً (بعد الموت) ما ظل الدوران الداخلي مستمراً . فيستطيع ، حتى ولو كان غير مَرْئي ، أن يؤثر في الناس ، ويوحي اليهم بالأفكار العظيمة والأفعال النبيلة . والأولياء والحكماء في

* ـ جعل الشيء في الباطن أو الداخل ـ المترجم ـ .

الأزمنة القديمة الذين ألهموا وعلموا البشـرية على مدى آلاف السنين هم كائنات مثل هؤلاء .

الا أن حدّاً يظل قائماً . هذه الكائنات تحتفظ بهيئتها الشخصية ، وهي بالتالي تخضع لتأثيـرات الزمان والمكان . فهي ليست كائنات خالدة بأكثر من خلود السماء والأرض . وليس يخـلُدُ غير «الـزهـرة الذهبية» التي تنبت من الانفصال الداخلي عن جميع أنواع الارتباط بالأشياء . والإنسان الذي يبلغ هذه الدرجة يخلع عنه أنيّته ولا يعود أبداً محدوداً بالجوهر الفرد ، بل يسـري في الدائـرة السحـرية ذات الثنائية القطبية لجميع الظاهرات ، ويعود الى «الواحد» غيـر المنقسم ، الى الطاو . هنا يكمن فرق بين البوذية والطاوية . في البوذية ، ترتبط هذه العودة الى النرفانا بانطفاء الأنية انطفاء تاماً ، التي هي كالعالم ليست غير وهم . واذا لم تُفسَّر النرفانا بالموت والانقطاع ، ظلت متعالية تدقيقاً . أما في الطاوية فالهدف هو الاحتفاظ بفكرة الشخص في هيئة اسمى وأجّل ، وهي «الآثار» التي تخلفها الخبرة . ذلك هو النـور الذي يعود مع الحياة الى نفسه ويـرمز اليه في النص بالـزهـرة الذهبية .

بغية استكمال الدراسة ، يجب علينا أن نضيف بضع كلمات عن المثلثات الثمانية الموجودة في «كتاب التغيـرات» (آي تشنغ) والمستخدمة في النص الذي بين أيدينا . المثلث (تشن Chen) وشكله ☳ ، يمثل الرعد والموقظ والحياة التي تتفجر من أعماق الأرض ؛ هو بداية جميع الحـركات . المثلث (صن) Sun ، وشكله ☴ ، هو الريح والغابة واللطيف ، ويصف جـريان طاقات الواقع في هيئة الفكـرة . وكما تشيع الـريح في جميع الأمكنة ، كذلك يشيع المبدأ الذي يـرمز اليه (صن) في الكل ويخلق «التحقيق» ، المثلث (لي) Li ، وشكله ☲ ؛ هو الشمس والنار والإضاءة والتعلق ؛ يلعب دوراً كبيراً في ديانة النور هذه ؛ يسكن في العيون ، ويـرسم الدائـرة الواقية ، ويحدث الولادة الجديدة . المثلث (كُوْون) K un ، وشكله ☷ ؛ هو الأرض والمتلقي (أو القابل) ، وأحد المبدأين الأولين ، أي مبدأ (ين) الذي يتجسد في طاقات الأرض ؛ هو الأرض التي ، عندما تكون حقلاً

محروثاً ، تلتقط حبّة السماء وتمنحها الشكل . المثلث (تْوي) Tui ، وشكله ☱ ؛ هو البحيرة والضباب والمبتهج ، هو الحال الأخيرة من جانب (ين) ، وهو بالتالي يعود الى الخريف . المثلث (تشئيان) Ch; ien ، وشكله ☰ ؛ هو السماء والخالق والقوي ؛ هو تجسيد مبدأ (يانغ) الذي يخصب (كْؤون) ، المتلقي أو القابل . المثلث (كْأن) K,an ، وشكله ☵ ؛ هو الماء والهاوية ، هو ضد (لي) Li ☲ كما هو مبين في بنيته الخارجية ، يمثل إقليم (الإيروس) ، بينما يرمز (لي) الى (اللوغوس) . (لي) هو الشمس ؛ (كْأن) القمر . وزواج الشمس والقمر هو السياق السحري السرّي الذي يثمر عن ولادة (الصبي) ، الإنسان الجديد . المثلث (كن) Ken ☶ ، هو الجبل والسكون ؛ رمز التأمل الذي ، اذ يخضع الأشياء الخارجية ، يهب الحياة للعالم الداخلي . لذلك كان (كن) هو المكان الذي يتلاقى فيه الموت والحياة ، وتستكمل فيه دائرة الصيرورة .

ترجمة كتاب

طْآي تشن هْوا تْسونغ تْشيه
أو
سـر الزهـرة الذهبية

١ . الواعية السماوية (القلب)

قال المعلم لو ـ تسو ، ما هو موجود بنفسه يسمى الطريق (الطاو) . لكن الطاو لا اسم له ولا شكل . هو الجوهر الواحد(١) ، الروح الأوّلي الواحد . الجوهر والحياة لا يُرَيان . انهما في نطاق نور السماء . ونور السماء لا يُرى . انه في نطاق العينين . اليوم سأكون مرشدكم وأكشف لكم أولاً عن سر الزهرة الذهبية في الواحد العظيم ، ثم أتولّى شرح الباقي بالتفصيل .

الواحد العظيم هو الاصطلاح الدالّ على ما ليس فوقه شيء . يتكون سرّ سحر الحياة من تسخير الفعل وصولاً الى اللافعل . يجب ألا نتشهّى القفز فوق كل شيء ونخترقه رأساً . قضت الحكمة المنقولة الينا أن نتناول بيدنا العمل على الطبيعة البشرية (هْسِنْغ) ، ونحن اذ نفعل ذلك يهمنا ألا نسلك الطريق الغلط .

الزهرة الذهبية هي النور ، ما لون النور ؟ ان احدنا ليستعمل الزهرة الذهبية بما هي رمز . هي الطاقة الحقيقية في الواحد العظيم المتعالي . وتشير اليها عبارة «أن رصاص اقليم الماء ليس له غير طعم واحد» .

خلقت السماء من خلال الواحد . تلك هي الطاقة الحقيقية في الواحد العظيم . اذا ادرك الإنسان هذا الواحد صار حيّاً ، وإذا ضيّعه مات . لكن الإنسان ، حتى ولو عاش في الطاقة (النَفَس الحيوي) ، لا يرى الطاقة ، تماماً كما يعيش السمك في الماء ولا يراه . يموت الإنسان حين ينقطع عنه نفس الحياة ، تماماً كما يهلك السمك حين يُسلب منه الماء . لقد علّم الناس أهلُ الخبرة أن يتمسكوا بالأوّلي ، وأن يحرصوا على الواحد ؛ انه دوران النور والاعتصام بالمركز . فإذا أوْلينا هذه الطاقة الحقيقية حمايتنا ، استطعنا إطالة مدة الحياة ، واستطعنا عندئذ تطبيق منهج خلق الجسد الخالد بواسطة «الإذابة والمزج» .

---

(١) ـ هْسنغ Hsing ، ترجمت في غير مكان بـ «الطبيعة البشرية» (ك ف ب) .

ويتوقف العمل في دوران النور كلّياً على حركة الانكفاء الى الخلف حتى تتجمع الأفكار (محل الواعية السماوية ، القلب السماوي) بعضها الى بعض . والقلب السماوي يقع بين الشمس والقمر (اي ، بين العينين) .

يقول «كتاب القلعة الصفراء» : «في نطاق الإنش المربع من البيت الذي مساحته قدم مربعة ، يمكن أن تنتظم الحياة ، البيت ذو القدم المربعة هو الوجه . والإنش المربع في الوجه : ماذا عساه أن يكون غير القلب السماوي ؟ في وسط الإنش المربع تسكن الروعة . وفي القاعة الأرجوانية من مدينة اليشب يسكن إله الفراغ الأقصى والحياة . يسميه أتباع كنفوشيوس مركز الفراغ ، ويسميه البوذيون مصطبة الحياة ، ويسميه الطاويّون أرض الأسلاف ، أو القلعة الصفراء ، او الممر المظلم ، أو مكان السماء السابقة . القلب السماوي هو البيت ، والنّور ربّ البيت .

لذلك عندما يدور النور تظهر مجمل طاقات الجسد امام عرشها مثلما الملك المقدس ، بعد أن يكون شيّد العاصمة وأرسى قواعد النظام الأساسية ، تتقرب منه جميع الدول بتقديم آيات الولاء والتعظيم ، او مثلما المولى ، عندما يكون هادئاً وساكناً ، يطيع الخدم والجواري أوامره من تلقاء أنفسهم ، ويؤدي كلٌّ عمله .

لذلك ما عليك الا ان تدوّر النور : ذلك هو السرّ الأعمق والأعجب . من اليسير على النور أن يتحرك ، لكن من الصعب أن يتوقف . فإذا دوّرناه مدة كافية تجمّع ؛ ذلك هو الجسد الروحي الطبيعي ، ويتشكل هذا الروح فيما وراء السموات التسع . انه الحالة التي يقول عنها «كتاب خاتم القلب» : «ساكنا انت تحلّق عند الصباح» .

لتحقيق هذا المبدأ الأساسي لا حاجة بك الى البحث عن طرائق أخرى ، بل ما عليك الا أن تجمع أفكارك عليه . جاء في كتاب «لنغ ين» : «بتجميع الافكار يستطيع المرء أن يطير ويولد في السماء» . والسماء ليست هي السماء الزرقاء الرحيبة بل هي المكان الذي تولد فيه الجسدانية في بيت المبدع . وإذا ثابر امرؤ على تجميع

أفكاره ، استطاع أن يطوّر جسداً روحياً آخر ، اضافة الى جسده ، بصورة طبيعية تماماً .

الزهـرة الذهبية هي أكسير الحياة (تِشن ـ طان ؛ حرفياً ، الكرة الذهبية ، الحبّة الذهبية) . كل تغيرات الواعية الـروحية تتوقف على القلب . ها هنا سحـر خفيّ ، وإن كان يعمل بدقة بالغة ، بلغ من السيولة مبلغاً نحتاج معه الى أقصى حدود الذكاء والصفاء ، والى أقصى حدود الاستغراق والسكينة ، لكي نمسك به . بدون هذه الدرجة العليا من الذكاء والفهم لا نجد سبيلاً الى تطبيق هذا السحـر ؛ وبدون هذه القدرة القصوى على الاستغراق والسكينة لا نستطيع أن نمسك به بإحكام .

يبين لنا هذا الجزء أصل الطريق العظيم (الطاو) في العالم . فالقلب السماوي هو جرثومة الطـريق العظيم . فإذا استطعت أن تكون هادئاً على وجه الإطلاق ، عندئذ يتجلى القلب السماوي من تلقاء نفسه . واذا تحرك الشعرر وعبّر عن نفسه بالدفق السـوي (انكفاء الطاقة الى الخلف) ، خُلق الإنسان خلْقاً اوّلياً .

ويقيم هذا المخلوق في مكان حقيقي بين الحَبل والولادة ، وعندما تدخل في الولادة العلامةُ الوحيدة على صيرورة الفرد فرداً ، تنقسم الطبيعة البشـرية والحياة الى قسمين . ومنذ ذلك الحين فصاعداً ، اذا لم تتحقق الدرجة القصوى من السـكينة ، لم ترَ الطبيعة البشـرية والحياة احداهما الأخرى أبداً .

لذلك يقال أن في خطة الأخير على «أن ينطوي الواحد العظيم على طاقة حقيقية ، وحبّة وروح ، وأنيم وأنيمة . فإذا سكنت الأفكار سكوناً مطلقاً بحيث تصبح رؤية القلب السماوي أمـراً ممكناً ، استطاع العقل الـروحي أن يبلغ الأصل بدون عون من سواه . هذه الطبيعة البشـرية تعيش حقاً في مكان حقيقي ، لكن شعاع النور يسكن في العينين . لذلك يعلمنا السيد دوران النور حتى يمكننا بلوغ الطبيعة البشـرية الحقيقية . والطبيعة البشـرية الحقيقية هي الروح الأولية . وما الروح الأولية الا الطبيعة البشـرية والحياة ، انها الطاقة الأولية اذا قبلنا ما فيها من حقيقي . وما الطـريق العظيم الا هذا الشيء .

كذلك ان المعلم حريص على ألا يضل الناس الطريقَ الذي يؤدي الى اللافعل غير الواعي انطلاقاً من الفعل الواعي . ولذلك نجده يقول أن سحـر إكسير الحياة يسخـر الفعل الواعي لكي

تصل به الى اللافعل غير الواعي . ويقوم الفعل الواعي على تدوير النور بواسطة التفكير لكي يتجلّ للعيان انعتاق السماء . ثم اذا ولدت الحبّة الصحيحة ، واتبعنا المنهج الصحيح في اذابتها ومزجها ، وخلقنا اكسير الحياة بهذه الطريقة ، عندئذ نجتاز الممر ويتخلق الجنين الذي لا ينمو الا بالتدفئة والتغذية والتحميم والتغسيل . وبذا ننتقل الى ميدان اللافعل غير الواعي . وتحتاج هذه الفترة النارية الى عام بأكمله حتى يولد الجنين ويطرح عنه القواقع ويخرج من العالم العادي الى العالم القدسي .

ان المنهج غاية في البساطة واليسر . لكن فيه كثيراً من التحولات والتغييرات حتى لقد قيل ان الانسان لا يصل الى هناك بقفزة واحدة . ومن ينشد الحياة الأبدية ، فعليه أن يجد المكان الذي انطلقت منه الطبيعة البشرية والحياة في الأصل .

٢ . الروح الأوّلي والروح الواعي

قال المعلم لو ـ تسو : بالمقارنة مع السماء والأرض ، الإنسان مثل ذبابة ايار . لكن السماء والأرض ، بالمقارنة مع الطريق العظيم ، مثل الفقاعة او الظل . ولا يقهر الزمان والمكان الا الروح الأولي والطبيعة الحقيقية .

ان طاقة الحبّة ، كالسماء والأرض ، طاقة زائلة ؛ لكن الروح الأوّلي موقعه فيما وراء الفروق القطبية* . هو ذا المكان الذي تستمد منه السماء والأرض وجودهما . عندما يتعلم التلاميذ كيف يمسكون بالروح الأوّلي يتغلبون على الضدين القطبّيين ، النور والظلام ، ولا يمكثون طويلاً في العوالم الثلاثة(١) . لكن ليس كمن شاهد وجه الطبيعة البشرية الأصلي بقادر على فعل هذا .

عندما يخرج الإنسان من الرحم ، يسكن الروح الأوّلي في الإنش المربع (بين العينين) ، ويسكن الروح الواعي في القلب الذي هو أدنى . لهذا القلب اللحمي السفلي هيئة الإجاصة الكبيرة : يغطيه جناحان هما الرئتان ، ويسانده الكبد ، وتقوم

(*) الاقطاب المتضادة ـ المترجم ـ

(١) ـ السماء والأرض والجحيم .

على خدمته الأحشاء . هذا القلب يعتمد على العالم الخارجي ؛ اذا لم يأكل صاحبُهُ يوماً واحداً أضناه التعب ، وإذا سمع ما يُرعب خفق واضطرب ، او سمع ما يغضب سكن وتوقف ، او صادف ميتاً حزن وأسف ، أو رأى جمالا أُخذ وانبهر . اما القلب السماوي ، ومحله الرأس فمتى عساه أن يتحرك ان كان له ان يتحرك أصلاً ؟ انت تسأل : هل يستطيع القلب السماوي الا يتحرك ؟ وعندئذ أجيب : كيف يسع الفكرة الصحيحة في الإنش المربع أن تتحرك ؟ فإذا تحركت فعلاً لم يكن ذلك خيراً . ذلك انها لا تتحرك الا بموت الإنسان ، وهذا ليس بخير . انما الخير كل الخير أن يتصلب النور في جسد روحي ، وأن تشيع طاقة حياته تدريجياً في الغرائز والحركات . لكن هذا سرّ ظل طي الكتمان آلاف السنين دون أن يكشف عنه ستار .

يتحرك القلب السفلي مثلما يتحرك قائد شديد البأس يزري بالحاكم السماوي لما فيه من ضعف ، بعد أن كان اغتصب منه القيادة في ادارة شؤون الدولة . لكن عندما يصبح في الإمكان تحصين القلعة الأولية والدفاع عنها ، يغدو الأمر كما لو أن حاكماً اتصف بالحزم والحكمة قد جلس على العرش . وتأخذ العينان في تدوير النور ، مَثَلهُما في هذا كمثل وزيرين احدهما عن اليمين والآخر عن الشمال يؤازران الحاكم بكل ما أُوتيا من قوة . عندما يكون الحاكم في المركز على هذا النحو من الانتظام ، يتقدم جميع هؤلاء الأبطال المتمردين من الحاكم ، منكسين رماحهم ، مستعدين لتلقي الأوامر .

يعرف الطريقُ الى اكسير الحياة ماء الحبّة ، ونارَ الروح ، وأرضَ الفكرة ، على أن هذه الثلاثة هي السحر الأعلى . ما هو ماء الحبّة ؟ انه الطاقة الحقيقية الوحيدة في السماء السابقة (ايروس) . ونار الروح هي النور (لوغوس) . وأرض الفكرة هي القلب السماوي في المسكن الأوسط (الحدس) . تدل نار الروح على التأثير والفعل ، وأرض الفكرة على المادة أو الهيولى (اي : على العنصر المتأثر أو المنفعل ـ المترجم ـ) ، وماء الحبّة على الاساس . والناس العاديون يجعلون أجسادهم في الأفكار (أي : في الوجود الخارجي بما هو وجود مادي ـ المترجم ـ) ، مع أن الجسد ليس هو الجِرْم الخارجي المحدود بطول سبع أقدام فقط . ففي الجسد تسكن

الأنيمة ، وهذه تلازم الوعي وتؤثر فيه . اما الوعي فيعتمد في نشأته على الأنيمة ، وهي مؤنثة (ين) ، وهي مادة الوعي . وما دام الوعي لا ينقطع ، يظل يولّد (الأفكار ـ المترجم ـ) جيلاً بعد جيل ، ولا تنقطع كذلك التغيرات التي تطرأ على هيئة الأنيمة ، ولا التحولات في المادة .

لكن ، الى جانب هذه الثلاثة ، يوجد أيضاً الأنيم الذي تقبع فيه الروح . والأنيم يسكن في العينين نهاراً ويبصر ، ويبيت في الكبد ليلاً ويحلم.. وتنشأ الأحلام عن تجوال الروح في جميع أقطار السموات التسع والأرضين التسع . ومن يكن في الظلام ، وفي مزاج مكتئب عند الاستيقاظ ، مقيداً الى صورته الجَسَدانية ، يكنْ أيضاً مقيداً الى الأنيمة . لذلك يُصار الى تركيز الأنيم وشدّ عزيمته بواسطة دَوَران النور حتى تتماسك الروح ، وتخضع الأنيمة ، وينقطع الوعي ويتوقف . بغية اجتناب العالم ، سار القدماء على منهج يقوم على تذويب نُفايات العالم تذويباً تاماً حتى يمكنهم الرجوع الى المبدع خالصين من الشوائب . وليس هذا المنهج غير اخضاع الأنيمة وتمكين الأنيم وتقويته . وما دَوَران النور غير الأداة السحرية لتبديد الظلام والسيطرة على الأنيمة . ثم أن العمل ، وإن كان لا يرمي الى استعادة المبدع ، بل اقتصر على اعتماد الوسائل السحرية لتدوير النور ، كان النور بحد ذاته هو المبدع . فإذا اتّبعنا هذا المنهج ، توفّر الكثير من ماء الحبّة من تلقاء نفسه ، واتّقدت نار الرياح ، وتصلّبت وتجمّعت أرض الفكرة . بذلك تنضج الثمرة المقدسة ، ويطرح الجُعَلُ بيضته ، وفي البيضة تنمو الحياة نتيجة للجهد غير المنقسم للتركيز الروحي . فإذا كان الجنين يستطيع ان ينمو في السماء ، وأن يطرح عنه قواقعه ، فلماذا لا يستطيع المكان الذي يسكن فيه قلبنا السماوي أن يخلق جسداً لو ركّزنا عليه الروح .

عندما تنزل الطبيعة البشرية الحقيقية الفعالة الواحدة (اللوغوس متحدةً بالحياة) في بيت المبدع ، تنقسم الى أنيم وأنيمة . يحتل الأنيم القلب السماوي ، لأنه من طبيعة النور ، وقوة النورّية والطهر . وهو الذي تلقيناه من الفراغ العظيم الذي يتماثل شكلاً مع البداية الأولية . أما الأنيمة فتقتسم مع الظلام طبيعته ؛ فهي قوة الثقيل والكثيف ، ومقيدة الى القلب اللحمي الجَسَداني . الأنيم يحب الحياة ،



الرسم رقم (١) ويمثل المرحلة الأولى من التأمل وهي جمع النور.

والأنيمة تطلب الموت . جميع الشهوات الحسية والدوافع الغضبية هي من آثار الأنيمة ، فهي الروح الواعية التي تتغذى بالدم بعد الموت ، لكنها في أثناء الحياة تكون في منتهى الشقاء . المظلم يعود الى الظلام ، كما تنجذب الاشياء بعضها الى بعض كل بحسب نوعه . لكن التلميذ يعرف كيف يستقطر الأنيمة المظلمة تماماً حتى تتحول الى نور صاف (يانغ)[1] .

في هذا الجزء وصف للدور الذي يلعبه الروح الأوّلي والروح الواعي في خلق جسد الإنسان . يقول المعلم ، حياة الإنسان كحياة ذبابة أيار : ليس غير الطبيعة البشـرية الحقيقية الآتية من الروح الأوّلي ما يستطيع ان يتجاوز دورة السماء والأرض وتقلبات الزمان . وتنطلق الطبيعة البشـرية الحقيقية مما ليس له قطبية (الذي لا نهاية له) ، وتتلقى طاقة القطبية الاولى (الذي له نهاية) التي تضم بواسطتها الى نفسها الجوهر الحقيقي للسماء والأرض ، وتصبح الروح الواعي . وهو ، كروح أوّلي ، يتلقى طبيعته البشـرية من أب وأم . هذا الـروح الأوّلي لا واعية له ولا علم ، لكنه قادر على تنظيم السياقات التكوينية للجسد . أما الـروح الواعي فبيّن وظاهر جداً ، وهو يستطيع الا يتوقف عن التكيّف . هو حاكم القلب البشري . وما دام باقياً في الجسد فهو الأنيم ، لكنه بعد أن يغادر الجسد يصبح روحاً . وفي الوقت الذي يدخل فيه الجسد الى حيز الوجود ، يكون الروح الأوّلي لم يَخْلُقْ بعدُ جنيناً يتجسّد فيه . يتجمّع في «الواحد» الطليق غير المستقطب .

يحب الروح الأوّلي السكون ، والروح الواعي يحب الحركة . وهو في حركته يبقى مقيداً بالعواطف والشهوات ، يبدد الحبّة الأولية في الليل والنهار حتى تُستنفد طاقة الروح الأوّلي كلّيةً . عندئذ يغادر الروح الواعي القوقعة .

من رجحت كفّة اعماله الخيّرة ، كانت له طاقة روح صافية وجليّة إذا حَضَره الموت ، وخرجت روحه من المنافذ العليا المؤلفة من الفم والأنف ، وارتفعت الطاقة الخفيفة والنقيّة الى الأعلى وعامت في السماء وأصبحت جنّي الظل أو روح الظل ذا الحضور الخماسي . لكن إن كان الروح الأوّلي ، في أثناء الحياة ، مسخرّاً من الروح الواعي للجشع والحمق والشهوات وارتكاب الآثام ، كانت الروح في

---

(١) ـ المراد بالنور هنا مبدأ عالمي هو القطب الموجب لا الغور الذي يضيء .

لحظة الموت كَدِرة عكرة وخرجت الروح الواعية هي والنفْس من المنافذ السفلى لباب البطن . ذلك بأن طاقة الروح ان كانت عكـرة وغير نظيفة ، تجمعت باتجاه الأسفل وغاصت في الجحيم وغدت شيطاناً . عندئذٍ لا يفقد الروح الأوّلي طبيعته وحسب ، وإنما تتدنى بذلك القوة والحكمة اللتان تتصف بهما الطبيعة البشـرية الحقيقية . ولذلك يقول المعلم اذا تحركت فليس هذا بخير .

واذا أراد امرؤ أن يحافظ على الروح الأولي ، فعليه أن يبادر الى اخضاع الروح المدرك . وطـريقة اخضاعه تتم بدوران النور . فإذا دار النور نسي الجسد والقلب كليهما . ينبغي للقلب أن يموت ، وللروح أن تحيا . وعندما تحيا الروح ، يبدأ النَفَس يدور دوراناً عجيباً . ان هذا ما يدعوه المعلم بالخير المحض[1] . ثم ينبغي ان يتاح للروح الغوصُ في البطن (الضفيرة الشمسية) ، فتتزاوج الطاقة والروح ، ويتحد الروح بالطاقة ويتجمّع . ان هذا منهج بداية العمل .

في الوقت المناسب ، يتحول الروح الأوّلي القاطن في الحياة الى طاقة حقيقية . في هذا الوقت ، يجب اعتماد طـريقة بغية تقطيـره حتى يصير «اكسيـر الحياة» . وهذا هو منهج العمل المركّز . وعندما تتكون دُرّة اكسيـر الحياة ، يتكوّن الجنين المقدس ، وعندئذٍ يجب أن يتجه العمل الى تدفئة الجنين وتغذيته . وهذا هو منهج الإتمام .

وعندما تتخلّق الطاقة ـ الجسد لدى الطفل تخلقاً تاماً ، يجب أن يتجه العمل بحيث يتاح للجنين ان يولد ويعود الى الفراغ . ذلك هو منهج نهاية العمل .

من أقدم الأزمنة الى اليوم ، لم يكن هذا بالكلام الفارغ ، بل أثر من الطريق الأعظم في المنهج الصحيح الذي يهدف الى تحقيق حياة أبدية وروح خالدة وإنسان قدْسي .

لكن اذا أوفى العمل على غايته ، يصبح كل شيء ينسب الى مبدأ الظلام مستغرقاً كلّياً ، ويولد الجسد نوراً محضاً ، وعندما يتحول الـروح الواعي الى روح أوّلي ، نستطيع القول عندئذ انه بلغ قدرة على التحول لا نهاية لها ، وبعد أن يخرج من ذروة الولادات يصل الى الجنّي الذهبي ذي الحضور

(١) ـ المراحل الأربع من الولادة الجديدة متميزة هنا . الولادة الجديدة (من الماء والروح) هي تطوير للجسد الروحاني في قلب الجسد اللحمي الهالك . وفي هذا علاقة ظاهرة بفكر بولص ويوحنا .

السداسي[1] . واذا نحن لم نعتمد هذا المنهج الارتقائي ، فكيف نستطيع التخلص من طريق الحياة والموت ؟ .

٣ . دوران النور وحماية المـركز

قال المعلم لو ـ تسي ، منذ متى كان اكتشاف تعبير دَوَران النور ؟ لقد كشف عنه رجال بداية الصورة الحقيقيون ، (كُوان ين ـ هْسي) .[2] وعندما اتخذ النور حركته على هيئة دائرية تجمعت جميع طاقات السماء والأرض ، والنور والظلام . وهذا ما اصْطُلِح عليه اسمُ «التفكير الشبيه بالبزرة» ، أو تطهير الطاقة ، أو تطهير الفكرة . وعندما يبدأ الإنسان ممارسة هذا السحر ، يكون الأمر كما لو أن هناك ، في وسط الوجود ، لا وجوداً . وعندما يصبح العمل ناجزاً مع الأيام ، ويكون جسد فيما وراء الجسد ، يكون الأمر كما لو أن هناك ، في وسط اللاوجود ، وجوداً . ولا يكون النور أصيلاً الا بعد انقضاء مائة يوم من العمل المركز . وعندئذٍ يصبح نار الروح . بعد مائة يوم تنشأ في قلب النور نقطة من قطب نور حقيقي (يانغ) . ثم تنشأ فجأة دُرَّة الحبّة . والأمر أشبه ما يكون برجل وامرأة تجامعا ونشأ حَبَل عن جماعهما . وما على المرء حينئذٍ الا ان يتحلّى بالهدوء التام ويترقّب . دَوَران النور هو حقبة النار .

وسط التحوّل الأوّلي ، يكون اشعاع النور (يانغ ـ كْوانغ) هو الشيء الحاسم ، في الطبيعة هو الشمس ، وفي الإنسان هو العين . ان اشعاع الواعية الروحية وتبدّدها انما يحدث بصفة رئيسية بواسطة هذه الطاقة عندما تتجه الى الخارج (تتدفق

---

(١) ـ الروح ذو الحضور الخماسي ، الذي يتحول اليه الإنسان عندما يموت بعد ان كان جاهد ليعمل صالحاً لكن عن غير دراية ، محدود بإقليم الحواس الخمس ؛ ولذلك يظل محبوساً على هذه الأرض . الولادة الثانية تنقله الى المملكة الروحية السادسة .

(٢) ـ أحد تلاميذ لاو ـ تسي (بحسب احدى الأساطير هـ . و) .

الى الأسفل) . لذلك يتوقف «طـريق الزهـرة الذهبية» كلياً على توجه الدفق الى الخلف .

يقف قلب انسان تحت علامة النار[١] . ألسنة اللهب تندفع الى الأعلى . عندما تنظر العينان كلتاهما الى أشياء العالم يكون ذلك في رؤية متجهة الى الخارج . اما حين يغمض الإنسان عينيه ، عاكساً رؤيته ، متجهاً بها الى الداخل ، ناظراً الى حجرة السلف ، فهذا هو توجّه الدفق الى الخلف . اما طاقة الكِلْيتين تحت علامة الماء . عندما تتحرك الشهوات وتتجه الى الخارج ، يجري الماء الى الأسفل فيخلق الأولاد . والشهوات ، في لحظة انطلاقتها ، اذا لم يُسمح لها بالتدفق الى الخارج ، بل انكفأت الى الخلف بواسطة طاقة التفكير بحيث تنسرب في بوتقة «المبدع» ، عندئذٍ تجدد القلب والجسد وتغذيهما ـ تلك هو أيضاً توجّه الدفق الى الخلف . لذلك يقال ان «طـريق اكسيـر الحياة» يتوقف كلّياً على تدفق الى الخلف .

ان دوران النور ليس هو دوران زهرة حبة جسد الإنسان وحسب ، وإنما هو دوران الطاقات الحقيقية المبدعة الخلاقة . انه ليس بالتخيل الطليق الآني Fantasy ، بل هو استنفاد دورة (هجرات الروح) جميع الدهور . لذلك كانت مدة نَفَس واحد (من دوران النور ـ المترجم ـ) تعني سنة واحدة في الحساب البشري ومائة سنة بالقياس الى الليل الطويل من المرات التسعة (التقمصات) .

بعد أن يخلّف الإنسان وراءه صوت التكوّن الفردي[١] ، يولد الى الخارج بحسب الظروف ، والى أن يبلغ سنّ الشيخوخة لا ينظر الى الخلف أبداً . عندئذٍ

---

(١) ـ القطبان السيان يتناظران هنا احدهما مع الآخر . ويتمثلان باللوغوس (القلب ، الواعية) ، ويندرجان في مثل النار لنا ، وبالايروس (الكِلْيتان ، الجنس) ، ويمثلث الماء (كَأن) . الإنسان الطبيعي ، يدع كلا هاتين الطاقتين تعمل الى الخارج (الفكر وسياق التناسل) ؛ وبذلك تجريان الى الخارج ، وتنفذان . والأريب من يعكس جريانهما الى الداخل ويضمهما بعضهما الى بعض ، وبذلك يخصبهما بعضهما بعض وينتج عن ذلك حياة للروح نشطة وقوية بالتالي .

(١) ـ الحرف « b » الذي نترجمه هنا بالتكون الفردي individuation يُكتب رمزاً «للطاقة» في داخل «سور» . وبذلك يعني تمام الشكل المنطبع في الجوهر الفرد . انه انفصال وحدة الطاقة وتنميتها =

تستنفد طاقةُ النور نفسها وتتسرب الى الخارج ، وهذا ما يجلب الظلمات التسع (من التقمصات) الى العالم . وقد جاء في كتاب Leng Yen[٢] : «بتـركيز الفكـر يستطيع الإنسان أن يطير ؛ بتـركيز الشهوات ، يسقط» . عندما لا يعطي التلميذ الا القليل من الاعتناء لأفكاره ، والكثيـر من الاهتمام لشهواته ، فإنما يسلك السبيل الى الانغماس فيها . ان الحدس الصحيح لا ينشأ الا من طريق التفكر والسكون : ذلك لأن الدفق الى الخلف منهج ضروري .

جاء في كتاب «المراسلات السـرّية»[١] : «الانعتاق في العين» . وفي الأسئلة البسيطة للحاكم الأصفر[٢] : «أزهارُ حبّة جسد الإنسان يجب أن تتركزّ الى الأعلى في الفراغ ، هذه الجملة تتضمن الخلود ، وتتضمن كذلك السيطرة على العالم . وهذا هو الهدف المشترك لجميع الأديان .

هذا النور ليس في الجسد وحده ، ولا هو خارج الإنسان وحسب . فالجبال والأنهار ، وكذا الأرض العظيمة ، انما ينيرها الشمس والقمر ؛ كل هذا هو هذا النور . ولذلك لم يكن وجوده في الجسد وحده . فالفهم والوضوح ، والإدراك والتنوّر ، وجميع حركات (الـروح) هي أيضاً هذا النور ؛ ولذلك لم يكن هو مجرد شيء خارج الجسد . ان زهـرة نور السماء والأرض تملأ آلاف الأمكنة جميعاً . لكن زهـرة نور جسد الإنسان تمرّ من خلال السماء وتغطي الأرض أيضاً . ولذلك ما إن يبدأ النور دورانه حتى تدور معه السماء والأرض والجبال والأنهار في نفس الوقت .

= بطاقات الحبّة المفضية الى التجسد ، يُنظر الى السياق على أنه متصل بالصوت . تجريبياً ، يتصادف مع الحَبل . ومنذ ذلك الحين يحدث «تطور» و«تفتح» يتقدمان باستمرار ، الى أن تقوم الولادة بإخراج الانسان الى النور ، ومنذ ذلك الحين يتوالى التقدم تلقائياً الى أن تُستَنْفَد الطاقةُ ويُعقب ذلك الموت .

(٢) ـ السورام غاما سوترا ، وهي سوترا بوذية .

(١) ـ ين فوـ تشنغ ، عمل طاوي كلاسيكي (من أجل ترجمة انكليزية له انظر هنري بلفور ، نصوص طاوية ، لندن وشانغهاي ، ص ص ٤٩ ـ ٦٢ . هـ . و) .

(٢) ـ هوانغ ـ تي ناي ـ تشنغ سوـ ون ، عمل طاوي في زمن متأخر يُفهم منه أن صاحبه هو الحاكم الأسطوري هوانغ تي .

انتتجمعزهرة حبّة الجسد البشري الى الأعلى في العينين ، إن هذا لهو المفتاح العظيم للجسد البشري . ايها الأولاد ، حذار ! إنكم إنْ غفلتم عن التأمل يوماً واحداً ، جرى هذا النور الى الخارج ، ومن يدري إلى أين ؟ وإنكم إنْ تأملتم مدة ربع ساعة فقط ، تخلصتم من عشرة آلاف دهر ومن ألف ولادة . كل المناهج تفضي الى السكون . هذا السحر العجيبَ لا يُسْبَرُ له غَوْر .

لكن عندما تبدأ الممارسة ، على المرء أن يغذّ السير من الظاهر الى الباطن ، ومن الكثيف الى اللطيف . كل شيء يتوقف على ألا يكون ثمة انقطاع . يجب أن تكون البداية والنهاية في الممارسة شيئاً واحداً . وبينهما لحظات باردة ودافئة . وهذا غني عن البيان . لكن الهدف يجب أن يصل بنا الى رحابة السماء وإلى اعماق المحيط ، حتى تبدو جميع المناهج غايةً في اليسر وأمراً مسلّماً به . وعندئذٍ فقط نسيطر عليه .

لقد أورث جميع القديسين احدهم الى الآخر هذه الحقيقة : لا شيء ممكناً بلا تفكر (فان ـ تشاو ، التدبر) reflection . عندما يقول كنفوشيوس : «الإدراك يصل بالمرء الى الهدف » ؛ او عندما يدعوه البوذا بـ «رؤية القلب» ؛ او يقول لاتوسي : «رؤية الداخلية» ، فإنما يقصدون نفس الشيء ،

يستطيع كل احد أن يتكلم عن التدبر ، لكنه لا يستطيع أن يسيطر عليه إن كان لا يدري معنى الكلمة . ان ما عليه أن يعكسه بواسطة التدبّر هو قلبُهُ الواعي لذاته ، الذي يجب أن يتجه نحو النقطة التي لا يكون فيها الروح المصور قد تبدّى بعد . في حدود جِرْمنا ذي الأقدام الست يجب علينا أن نسعى جاهدين للوصول الى الصورة التي كانت موجودة قبل خلق السموات والأرض . فإذا جلس الناس اليوم ولم يتأملوا غير ساعة أو ساعتين ، غير ناظرين الا الى أنياتّهم ، فكيف يمكن أن ينتج شيء عن ذلك ؟

اللذان أسّسا البوذية والطاوية قد علّما ان على المرء أن ينظر الى أرنبة أنفه . لكنهما لم يقصدا ان عليه أن يشدّ أفكاره الى أرنبة الأنف . ولا قصدا أن تتجمع

الأفكار على المتوسط الأصغر ، بينما تنظر العينان الى أرنبة الأنف . حيثما نظرت العين ، اتجه القلب أيضاً . كيف يمكنه أن يتجه في نفس الوقت الى الأعلى (المتوسط الأصغر) وإلى الأسفل (أرنبة الأنف) ، أو بالتعاقب بحيث يكون مرة الى الأعلى ومرة الى الأسفل ؟ كل هذا معناه ، التباس القمر بالإصبع التي تدل عليه .

ما المقصود بهذا اذن ؟ لقد كان تعبير «أرنبة الأنف» اختياراً موفقاً . فالأنف من العينين دليلهما ، سواء أفتح الإنسان عينيه واسعاً ونظر الى البعيد بحيث لا يُرى الأنف ، أم أطبق جفنيه عليهما بشدة بحيث لا يرى أنفه أيضاً . فإذا فتح المرء عينيه أوسع مما ينبغي ، ارتكب خطأ توجيههما الى الخارج . فيغدو من السهل ان يتشتت انتباهه . وإذا أغمضهما أكثر مما ينبغي ، وقع في خطأ توجيههما الى الداخل ، واستغرق في الأحلام . وأرنبة الأنف لا تُرى بالطريقة الصحيحة الا عندما نغمض الجفنين نصف إغماضة ، وعندئذٍ يكون الأنف دليلاً للعينين . الشيء الرئيسي هو خفض الجفنين بالطريقة الصحيحة ، ومن بعدُ تمكين النور من الدَوَران تلقائياً . بدون جهد ، أنت تريد للنور أن يدور مجتمعاً ؟ ليس النظر الى أرنبة الأنف غير بداية التجمع الداخلي ، بحيث تلتفت العينان الى جهات النظر الصحيحة ، وعندئذٍ تتعلقان بالدليل ، وبعد ذلك يستطيع المرء أن يدعه يتكوّن . تلك هي الطريقة التي يعلق بها المعمار شاقوله . وعندما يعلق الشاقول ، فإنما يعمل بهذْيٍ منه بدون أن يكلف نفسه عناء المضي في النظر إليه .

تثبيت التفكر[1] هو منهج بوذي لم يُنقل الينا قط على أنه سرّ ينظر احدنا الى أرنبة أنفه بكلتا عينيه ، ويعتدل في جلسته متخذاً وضعاً مريحاً ، ويجمع القلب على المركز في وسط الأحوال . في الطاوية يُسمّى المتوسط الأصغر ، وفي البوذية يُسمّى

---

(١) ـ منهج تثبيت التفكر (تشيه ـ كْواه) هو منهج التأمل في البوذية ، مدرسة تْيان طاي . ويقوم على التناوب بين تسكين العواطف بواسطة تمارين التنفس وبين تسكينها بواسطة «التفكر» . وفيما يلي يؤخذ ببعض مناهجها. «الأحوال» هي «الظروف»، البيئة، التي تدير عجلة الباطل (الوهم) بالاشتراك مع الأسباب (ين) ، القطب الثابت في جريان الظاهرات ، هو في وسط الأحوال ، بالمعنى الحرفي .

مـركز متوسط الأحوال . التسميتان لُمسمّى واحد . إنه لا يعني بالضـرورة متوسط الـرأس . انما الأمـر أن يـركّز أحدنا تفكيـره على النقطة التي تقع بين العينين تماماً . عندئذٍ يجري كل شيء على ما يُـرام . النور شيء متحول الى أقصى حد . وعندما يـركّز أحدنا تفكيره على النقطة الوسطى بين العينين ، يسري النور من تلقاء نفسه . ليس من الضـروري أن يتّجه الانتباه الى القلعة المركزية بخاصة . في هذه الكلمات كل شيء .

«المركز في وسط الأحوال» تعبير دقيق جداً ، المركز كلّي الحضور . كل شيء فداخل فيه ؛ انه متصل بإطلاق سياق الخلق كله . الحال هو المدخل . الحال ، أي تحقيق هذا الحال ، يصنع البداية ، لكنه لا ينتج الباقي بضرورة لا بد منها . معنى هاتين الكلمتين متسرّب ولطيف .

ان تثبيت التفكر أمر لا غنى عنه ، يضمن التعجيل بالتنوير . كل ما على المرء ان يفعل هو ألا يبقى جالساً في جمود اذا جاءت الأفكار الدنيوية ، بل عليه أن يتفحص اين مكان الفكرة ، وأين بدأت ، والى أين تذهب . لا شيء يمكن أن نجنيه من تزجية المزيد من الأفكار . يجب على المرء أن يقصر همّه على معرفة من أين نشأت الفكرة ، وألا يبحث عما وراء نقطة المنشأ ؛ لأن البحث عن القلب (الواعية ، الوصول الى ما وراء الواعية بالواعية) أمر غير ممكن . ان ما نريده هو أن نجمّع أحوال القلب على الراحة ، أي التفكير الصحيح . وما يناقضه هو التفكر الزائف . ان هذا لا يفضي بنا الى غاية ، عندما يظل جريان الأفكار يتسع أكثر ، يجب أن نتوقف ونبدأ التفكر . فلنتفكر ثم لنعد الى التثبيت ثانية . ذلك هو المنهج المزدوج للتعجيل بالتنوير . ان معناه دوران النور . الدوران هو التثبيت ، النور هو التفكر . التثبيت بدون تفكر هو دوران بلا نـور . التفكر بلا تثبيت هو نور بلا دوران . خذوا علماً بذلك !

المعنى العام لهذا الجزء هو ان حماية المركز أمر ضروري لدوران النور . وقد عالج الجزء الأخير اهمية الجسد البشري وأنه ثروة ثمينة جداً عندما يكون الروح الأوّلي هو السائد . لكن عندما يكون

مسخراً للروح الواعي ، ينتج عن هذا الأخير أن يتفرق الروح الأوّلي ويتبدد في الليل والنهار . وعندما يشتد ارهاق الجسد يموت . وهنا يأتي المنهج الذي نصف به الروح الواعي بالخضوع والروح الأوّلي بالمحميّ ؛ وهذا مستحيل اذا لم نبدأ تدوير النور . وان الأمر ليشبه كما لو أننا نريد تشييد منزل رائع ؛ يجب علينا أولاً أن نرسي قواعد متينة . عندما يكون الأساس متيناً ، يمكننا عندئذٍ مواصلة العمل ووضع أساس الجدران عميقاً وصلباً ، ثم يصار بعدئذٍ الى رفع الأعمدة وإقامة الجدران . اما اذا لم نضع الأساس بهذه الطريقة فكيف نستطيع أن ننجز تشييد المنزل ؟ ان منهج تهذيب الحياة لهو بالضبط مثل هذا . يمكن مقارنة دوران النور بأساس المبنى . عندما يكون الأساس راسخاً ، سرعان ما يُشاد عليه . حماية المتوسط الأصفر ، ان هذا هو عمل البنّاء . ولذلك يوضح المعلم بصفة خاصة المنهج الذي نستطيع به أن نباشر تهذيب الحياة ، ويأمر الناس النظر بكلتا العينين الى أرنبة الأنف ، وخفض الأجفان ، والنظر الى الداخل ، والجلوس في سكون والجسم معتدل ، وتثبيت القلب على المركز في وسط الأحوال .

ان ابقاء الأفكار على المسافة بين العينين هو ما يسمح للنور بأن يشع . بناء على ذلك ، تتبلور الروح وتدخل الى المركز في وسط الأحوال . المركز الذي في وسط الأحوال هو ميدان الأكسير الأسفل ، مكان الطاقة (الضفيرة الشمسية) .

ولقد أشار المعلم الى هذا من طرف خفي عندما قال انه في بداية الرياضة يجب على المرء أن يجلس في حجرة هادئة ، وأن يكون جسمه كخشبة يابسة وقلبه كرماد بارد . وعليه أن يخفض جفنيه ، ثم ينظر الى الداخل ، ويطهر قلبه ، ويغسل أفكاره ، ويوقف مسرّاته ، ويحفظ الحبّة . اجلس كل يوم للتأمل وساقاك متصالبتان . وليتوقفْ النور في عينيك ، ولتجمد حاسة السمع ، ولتنقصْ حاسة الذوق ؛ أي يجب أن يستند اللسان الى سقف الفم ، وليكن التنفس بواسطة الأنف إيقاعياً ، والأفكار ثابتة على الباب المظلم .

وفي بادىء الأمر ، اذا لم نستطع أن نجعل التنفس ايقاعياً فهناك خوف من صعوبة في التنفس ، بسبب التوقف . وعندما يغمض المرء عينيه ، عليه عندئذٍ أن يتخذ مقياساً نقطة على جسر الأنف تقع على مسافة أقل من انش تحت نقطة تقاطع خط النظر ، حيث يوجد نتوء صغير على الأنف . ثم يأخذ في جمع أفكاره ، الأذنان تجعلان التنفس ايقاعياً ، الجسد والقلب في راحة وانسجام . يجب أن يشع نور العينين هادئاً ، ويجب الا يتطرّق نعاس او غفلة مدة طويلة . العينان لا تنظران الى الأمام ، بل تخفضان جفنيهما وتنيران ما بالداخل . تشعان على هذا المكان . والفم لا يتكلم ولا يضحك . وعلى المرء أن يُطْبق شفتيه ويتنفس الى الداخل . والتنفس يكون في هذا المكان . الأنف لا يشم رائحة .



الرسم رقم (٢) ويمثل المرحلة الثانية من التأمل : أصل الكائن الجديد في مكان الطاقة

والشمّ يكون في هذا المكان . الأذن لا تسمع شيئاً من الخارج . والسمع يكون في هذا المكان . القلب كله يراقب ما بالداخل . ومراقبته تكون في هذه المكان . الأفكار لا تشرد الى الخارج ؛ الأفكار الصحيحة لها ديمومتها في ذاتها . اذا دامت الأفكار دامت الحبّة . واذا دامت الحبّة دامت الطاقة ؛ واذا دامت الطاقة دامت الروح . الروح هي الفكرة ، والفكرة هي القلب ، والقلب هو النار ، والنار هي الأكسير . وعندما ينظر المرء الى ما بالداخل بهذه الطريقة ، لن تنفذ عجائب انفتاح ابواب السماء وانغلاقها . لكن الأسرار العميقة لا يمكن أن تحدث بدون إيقاعية التنفس .

إذا بدأ التلميذ ولم يستطع أن يستحوذ على أفكاره في المكان الذي يقع بين العينين ، اذا فتح عينيه ولم تمكنه طاقة القلب من رؤية فراغ الطاقة ، فقد يكون السبب هو ارتفاع التنفس وسرعته زيادة عما ينبغي ، مما ينشأ عنه شرور أخرى ؛ لأن القلب والجسد ظلاّ منشغلين في محاولة إحكام السدّ على تفجر الطاقة والنفس السريع .

اما اذا ظلت الأفكار عالقة عند العينين فقط ، ولم تتجمّع الروح في الضفيرة الشمسية (المركز الذي في وسط الأحوال) ، يكون الأمر كما لو أن امرءاً قد صعد الى القاعة ولمّا يدخل الحجرة الجوانية عندئذٍ لا تتقد نار الروح ، وتظل الطاقة باردة ، ولا تسفر الثمرة الحقيقية عن نفسها .

لذلك يتخوف المعلم أن يعمد الناس ، في مجاهداتهم ، الى تثبيت أفكارهم فقط على المكان الذي على الأنف ، ولا يفكرون في تثبيت أفكارهم على مكان الطاقة ؛ وهذا ما يفسر لنا لماذا استعمل تشبيه المعمار والشاقول . انما يستخدم المعمار الشاقول لكي يرى إن كان الحائط عمودياً أو مائلاً ، ولهذا يتخذ الخيط دليلاً . وبعد أن يعيّن الاتجاه ، يصير بوسعه أن يبدأ العمل . لكنه عندئذٍ يعمل على الحائط لا على الشاقول . هذا واضح . من هذا نرى أن تثبيت الأفكار بين العينين لا يعني الا ما يعنيه الشاقول للمعمار . المعلم ما يفتأ يشير الى هذا لأنه يخشى الا نفهم مقصوده . لكنه يخشى ، حتى ولو فهم التلاميذ طريقة العمل ، أن ينقطعوا عن العمل ، ولذلك يقول مراراً : لا يكون النور أصيلاً الا بعد مائة يوم من العمل الدؤوب ، عندئذٍ فقط يستطيع أحدنا ان يبدأ العمل بنار الروح ، واذا مضينا في ذلك على نحو متجمع ، ينمو في النور بعد مائة يوم نمواً عفوياً نقطة من النور المبدع الأصيل (يانغ) . يجب على التلاميذ أن يفحصوا هذا بقلوب مخلصة .

* * *

٤ . دوران النور وإيقاعية التنفس

قال المعلم لو ـ تسو ، يجب أن يُنفَّذ القرار بقلب متجمّع ، وبدون سعي الى الفوز ؛ فالفوز يأتي من تلقاء ذاته بعد ذلك . في الفترة الأولى من الانطلاق . تصادفنا آفتان بصفة رئيسية هما الكسل والغفلة . وهاتان الآفتان يمكن تصحيحهما . يجب ألا ينخرط القلب في التنفس زيادة عما ينبغي . إنما يأتي التنفس من القلب . وما يخرج من القلب هو النفس . وما ان يهتاج القلب ، حتى تنمو طاقة النَّفَس . وما طاقة النَّفس إلا فَعاليّة محوَّلة عن القلب . عندما تُمعن أفكارنا في السرعة تتحول ، من غير أن ندري ، الى تخيّلات طليقة Fantasies تكون مصحوبة بالشهيق دائماً ، لأن الشهيق والزفير مرتبط بعضه ببعض ارتباط الصوت والصدى . اننا ، يومياً ، نأخذ عدداً لا يحصى من الانفاس ، وبذلك يكون لنا عدد يساويها من التخيلات الطليقة . بذلك يتلاشى الجلاء عن الروح ، مثلما ييْبسُ الحطب ويموت الرماد .

هكذا ، إذن ، هل يجب ألاّ يكون في ذهن الانسان تخيلات ؟ الإنسان لا يمكنه أن يكون بلا تخيلات . هل يجب على الإنسان الا يتنفس ؟ لا يستطيع الانسان أن يستغني عن التنفس . خير طريقة أن نصنع للداء الدواء . بما أن القلب والنفس يعتمد كل منهما على الآخر ، يجب أن يتحد دَوَران النور مع إيقاع التنفس . لذلك كان نور الأذن ضرورة قصوى . وكما يوجد نور للعين كذلك يوجد نور للأذن . نور العين هو النور المتكون من الشمس والقمر في الخارج . ونور الأذن هو الحبّة المتكونة من الشمس والقمر في الداخل ، وبذا تكون الحبّة هي النور في شكل متجمّد . كلاهما له نفس الأصل ولا يختلفان الا بالاسم . ولذلك كان الفهم (الأذن) والوضوح (العين) هما نفس النور الفاعل .

عندما يجلس المرء خافضاً جفنيه ، يتوسّل الى تثبيت الشاقول بالعينين ثم يقوم بتحويل النور الى الأسفل . فإذا لم يوفق في تحويل النور الى الأسفل ، عمد الى توجيه

القلب نحو الإنصات الى التنفس . يجب الا يكون في مقدوره ان يسمع طلوع النَفَس ودخولَه بأذنه . فما يسمعه هو ما لا نغمة له . وحالما يصير للنفس نغمة ، يخشن نَفسه ويَسْطح (= يصير سطحياً) ، ولا يشيع في الخلاء . عندئذٍ عليه أن يجعل القلب خفيفاً وضئيلاً . فكلما زادت خفّته ، زادت ضآلته ؛ وكلما زادت ضآلته ، زاد سكونه . وما هو إلاّ أن يسكن ويتوقف . عندئذٍ يتبدى النفس الصحيح ، وتُقْبل هيئة القلب الى الوعي . فإذا كان القلب خفيفاً ، كان النفس كذلك خفيفاً ، كان النفس كذلك خفيفاً ، لأن حركة القلب تؤثر في طاقة التنفس . وإذا كان النفس خفيفاً ، كان القلب كذلك خفيفاً ، لأن كل حركة من طاقة التنفس تؤثر في القلب . ولكي نستطيع أن نثبت القلب ، علينا أن نباشر العناية بطاقة التنفس . لا يمكن أن يحدث تأثير في القلب مباشرةً . لذلك كان استعمال طاقة التنفس بمثابة المقبض ، وهذا ما يُسمّى بالمحافظة على طاقة التنفس المتجمعة .

أيها الأولاد ، ألا تعرفون طبيعة الحركة ؟ يمكن ان تحدث الحركة بوسائل خارجية . انها ليست غير اسم آخر للسيطرة . نستطيع أن نحرك القلب بمجرد الركض . لكن ، ألا يجب علينا أن نكون قادرين على إراحته بالسكينة المجتمعة ؟ الأولياء العظام الذين عرفوا كيف يؤثر القلب وطاقة النَفَس كلّ منهما في الآخر ابتكروا طريقة سهلة لمساعدة الأجيال القادمة .

جاء في كتاب الأكسير[1] : «الدجاجة تحضن البيض لأن قلبها ينصت دائماً» . هذه وصفة سحرية هامة . انما تستطيع الدجاجة ان تحضن البيض بواسطة طاقة الحرارة . لكن طاقة الحرارة لا تسخّن غير القشرة ؛ فهي لا تنفذ الى الداخل . ولذلك تعمد الدجاجة الى توجيه الحرارة الى الداخل بواسطة قلبها . انها تفعل ذلك

---

(١) ـ كتابٌ سرّي لطوائف حبة الحياة الذهبية . (التقليد الأسطوري لهذا الكتاب ، تان شو ، يرجع الى زمن قديم جداً .) انظر ريتشارد ويلهلم :

Das Bucher Sitte, Jena 1930, P. 302.

قانون الطاوية الحالي لم يعد له كتاب بهذا العنوان (هـ . و .) .

بسمعها . بهذه الطريقة تجمّع قلبها كله . عندما ينفذ القلب ، تنفذ الطاقة ، ويتلقّى الفرخ طاقة الحرارة ويبدأ الحياة . ولذلك تظل الدجاجة دائماً ، حتى عندما تترك بيضها أحياناً . في وضع الإنصات بأذن حانية . وبذلك لا ينقطع تجمّع الروح . وبما أن تجمّع الروح لا ينقطع ، ولا تنقطع كذلك طاقة الحرارة ، لا ليلاً ولا نهاراً ، تستيقظ الروح على الحياة . وإنما تستيقظ الروح بموت القلب . وعندما يستطيع المرء أن يدع قلبه ليموت ، تستيقظ الروح على الحياة . أن يُقتل القلب ليس معناه أن يترك لّيَيبس ويذوي ، بل معناه انه أصبح غير منقسم واجتمع في واحد .

يقول البوذا : «عندما تثبت قلبك على نقطة واحدة ، لا شيء يستحيل عليك» . ما أيسر أن يُفلت القلب منك ، ولذلك كان من الضروري أن تجمعه بواسطة طاقة النَّفس ؛ وما أيسر أن تخشن طاقة النَفَس ، ولذلك اقتضى تلطيفُها بواسطة القلب . عندما يتم ذلك ، هل يمكنه الاّ يثبّت ؟

يجب أن نكافح آفتي الكسل والغفلة بالعمل الهادىء الذي نقوم به يومياً بدون انقطاع ؛ وعندئذٍ يكون الفوز أمراً محققاً . اذا لم نجلس في وضعية التأمل ، فغالباً ما نقع في الغفلة من غير أن ندري . ان نصبح واعين للغفلة هو الآلية التي نتخلص بها من الغفلة . بين أن نكون واعين للكسل وألا نكون مسافة ألف ميل . الكسل الذي لا نشعر به هو الكسل الحقيقي ، بينما الكسل الذي نشعر به ليس بالكسل التام ، لأن شيئاً من الوضوح لم يزل فيه موجوداً . أما الغفلة فمتأتّية من شرود الذهن ، والكسل من عدم صفاء الذهن . والغفلة أيْسر على التصحيح من الكسْل ، فهي أشبه بحال المريض : اذا احسسنا بوجع ، استعنّا عليه بالدواء . لكن الكسل أشبه بمرض خفيّ لا تظهر أعراضه . الغفلة يمكن أن نقاومها ، والالتباس يمكن تصحيحه ، لكن الكسل والنعاس ثقيلان ومظلمان . الغفلة والالتباس لهما مكان على الأقل ، لكن مع الكسل والنعاس تنشط الأنيمة وحدها . في الغفلة يكون الأنيم لا يزال حاضراً ، أما في الكسل فالظلمة الحالكة هي التي تسود . اذا نعس المرء في أثناء التأمل ، فنعاسه متأتٍ عن كسله . وليس كالتنفس ما يكفل له التغلب على كسله . مع أن التنفس

الذي يتم شهيقاً وزفيراً من خلال الأنف ليس بالتنفس الحقيقي ، في شهيقه وزفيره ، انما يحدث بمناسبته .

لذلك يتوجب على المرء ، وهو في جلسته ، أن يسكنّ قلبه ويجمّع طاقته . كيف نسكنّ القلب ؟ بالتنفس . ما على القلب الا ان يعي الشهيق والزفير في تنفّسه ؛ يجب ألا يسمعه بأذنيه . فإذا لم يسمعه ، يكون التنفس خفيفاً ؛ وإذا خفّ صَفَا ، اما إذا سمعه ، فطاقة التنفس عندئذٍ خشنة ، واذا خَشُنتْ اضطربتْ ، واذا اضطربت تفاقم الكسل وثقلُ النعاس ، ورحنا نلتمس النوم . ان هذا بَيِّنٌ بذاته .

يجب أن نعرف كيف نسخر القلب بالطريقة الصحيحة ونحن في أثناء التنفس . انه تسخير بلا تسخير . ما على المرء الا ان يدع النور يقع لطيفاً على السمع . هذه الجملة تحتوي على معنى خفيّ . ما معنى أن ندع النور يقع ؟ انه الاشعاع العفوي لنور العينين . فالعين تنظر الى الداخل فقط لا الى الخارج . ان تحس سطوع النار بدون النظر الى الخارج معناه انك تنظر الى الداخل ؛ ان هذا لا علاقة له بالنظر الفعلي الى الداخل . ماذا يعني الإنصات ؟ إنه الإنصات العفوي للنور الذي في الأذن . فالأذن تسمع ما بالداخل فقط ولا تسمع الى ما في الخارج . ان تحسّ سطوع النور بدون الاستماع الى ما في الخارج هو أن تسمع داخلياً ؛ ان هذا لا علاقة له ألبته بالسماع الفعلي لما هو في الداخل . في هذا النوع من السمع ، لا يسمع المرء شيئاً إلا ان ليس ثمة صوت . وفي هذا النوع من الرؤية لا يرى المرء شيئاً الا أنْ ليس ثمة شكل أو صورة . فاذا لم تنظر العين الى الخارج ولم تسمع الأذن من الخارج ، انكفأتا على نفسيهما ومالتا الى الغوص في الداخل . فقط عندما ينظر المرء ويسمع داخلياً لا تتجه الحاسة الى الخارج ولا تغوص في الداخل . بهذه الطريقة نتخلص من الكسل والنعاس . ذلك هو اتحاد الحبّة والنور في الشمس والقمر .

واذا نعس المرء ، نتيجة للكسل ، كان عليه أن يستوي واقفاً على قدميه ويتمشّى ، حتى اذا انجلى ذهنه عاد وجلس . وإذا كان لديه وقت في الصباح ، أمكنه الجلوس في أثناء احتراق عود البخور ، ان هذا خير ما يفعله . وعند العصر ، تتدخل الشؤون البشرية ، ولذلك ما أسهل أن يقع المرء فريسة الكسل . غير أنه ليس

من الضروري أن يكون لديه بخور . كل ما عليه هو أن يطرح جانباً جميع المشكلات ويجلس في سكون تام مدة من الزمن . ثم في مجرى الزمن ينال الفوز بدون أن يصبح كسلان أو يستسلم للنوم .

الفكرة الرئيسية في هذا الجزء ان أهم شيء لتحقيق دَوران النور هو التنفس الإيقاعي . كلما قطع العمل خطوة الى الأمام ، اشتد التعليم عمقاً . في أثناء دوران النور ، يجب على التلميذ أن ينسّق بين القلب والتنفس لكي يجتنب الملل الناجم عن الكسل والغفلة ، يتخوف المعلم أن تنطلق التخيلات السائبة المختلطة عندما يجلس المبتدؤون ويخفضون أجفانهم ؛ لأنه بسبب هذه التخيلات يبدأ القلب ينبض حتى ليغدو من الصعب اقتيادُهُ . ولذلك يعلم رياضة عدّ الأنفاس وتثبيت أفكار القلب لئلا تهدر طاقة الروح في الخارج .

بما أن النَفَس يأتي من القلب ، يأتي التنفس المضطرب (غير الإيقاعي) من اضطراب القلب . لذلك كان على المرء أن يتنفس ، شهيقاً وزفيراً ، في لطف لا تسمعه الأذن . وما على القلب الا ان يعدّ الانفاس في هدوء . عندما ينسى القلب عدد الأنفاس ، فهذا علامة على أن القلب قد شرد الى الخارج . لذلك كان على المرء أن يجعل القلب في حال ثابتة . فاذا لم تسمع الأذن بانتباه ، او لم تنظر العينان الى جسر الأنف ، يحدث غالباً أن يشرد القلب الى الخارج ، أو يستسلم للنوم . إن هذا علامة على أن الحالة تحولت الى الالتباس والنعاس ، وعندئذٍ يجب أن تعود حبّة الروح الى النظام ثانية . عند خفض الأجفان وأخذ الاتجاه من الأنف ، اذا لم يغلق الفم ، ولم تنضم الأسنان بعضها الى بعض بإحكام يسهل على القلب أن يسارع الى الخارج . لذلك كان على المرء أن يبادر الى اغلاق فمه وضم أسنانه بعضها الى بعض . ان الحواس الخمس تنظم نفسها على حسب القلب ، وعندئذٍ يكون على الروح أن تلجأ الى طاقة التنفس حتى يتآلف القلب والنَفَس جميعاً . من هنا تنشأ الحاجة في معظم العمل اليومي الى بضعة أرباع الساعة لكي يتعاون القلب والنَفَس ويتآلف من تلقاء نفسيهما . وعندئذٍ لا حاجة الى عدّ الأنفاس لأن النَفَس أصبح ايقاعياً من تلقاء ذاته . وعندما يصبح النفس ايقاعياً يتبدّد الكسل والنعاس تلقائياً .

٥ . الاغلاط التي تقع في أثناء دوران النور

يقول المعلم لو ـ تسو ، يتجمع العمل وينضج تدريجياً . لكن قبل أن تبلغ الى حالة تجلس فيها كشجرة ذاوية قبالة صخرة ، لا يزال ثمة امكانيات كثيرة للوقوع في الخطأ احب أن توليها انتباهاً خاصاً . هذه الأحوال لا نتعرف عليها الا اذا اختبرناها بصفة شخصية . ولسوف ابينها لك هنا . تختلف مدرستي عن مدرسة اليوغا البوذية (تشان ـ تسونغ)[1] من حيث ان لها علامات تثبيت لكل خطوة نخطوها على الطريق . أولاً اود أن أتكلم عن الأغلاط ثم عن علامات التثبيت .

عندما يبدأ المرء تنفيذ قرار اتخذه ، عليه أن يحرص ان يجري كل شيء على نحو مريح وعفوي . يجب ألا نطلب من القلب الشيء الكثير . بل علينا أن نحرص على أن يعمل القلب والطاقة متعاونين بصورة تلقائية . وعندئذٍ فقط نصل الى حالة السكينة . وفي أثناء هذه السكينة يجب أن نفسح المجال أمام الأحوال الصحيحة والمكان الصحيح . يجب الا نجلس [لكي نتأمل] وسط توافه الأمور . بمعنى آخر ، يجب أن يتخلص الذهن من الهموم غير المجدية . جميع المشكلات يجب أن نطرحها جانباً ، يجب علينا أن نتخلى ونستقل . كذلك يجب الا تتجمع الأفكار حتى على الإجراء الصحيح . وينشأ هذا الخطر حين نكلف أنفسنا عناء هو فوق ما تحتمله . ولا أعني بذلك اننا يجب ألا نكلف أنفسنا العناء ، وإنما أن نلتزم الطريق الصحيح الذي يقع في منتصف المسافات بين «ان نكون» و«ألا نكون» . فإذا استطعنا بلوغ حالة انتفاء القصد من خلال القصد ، نكون عندئذٍ قد أمسكنا بالشيء . وفي هذه الحالة ، نستطيع أن ندع أنفسنا تذهب في طريق مستقل منفصلين وبلا اختلاط .

---

(١) ـ في اليابانية ، زن Zen .

زيادة على ذلك ، يجب الا نقع فريسة في مصْيدة العالم . وما مصْيدة العالم الا حيث ترتع الأنواع الخمسة من الشياطين . هذه الحالة ، مثلاً ، هي عندما يكون لدينا ، بعد التثبيت ، أكثر الأفكار عن الحطب اليابس والرماد الميت ، وأقل الأفكار عن النبع الرائق على الأرض العظيمة . بذلك يغرق المرء في عالم الظلمة ، حيث تبرد الطاقة ويخشن التنفس ، ويتوافد كثير من صور الرطوبة والعفن . فإذا مكثنا ثمة طويلاً ، دخلنا في عالم النبات والحجارة .

كذلك يجب الا يضلّ الإنسان بفعل عشرة آلاف الإغراءات . ويحدث هذا حين تظهر فجأة جميع أنواع العقد واحدة بعد أخرى ، بعد أن تكون بدأت حالة السكينة . يريد أن يتخلص منها فلا يستطيع ؛ يجري وراءها وهو يحسب انها تجلب الراحة اليه . وهذا معناه ان المولى أصبح خادماً . واذا امرؤ مكث طويلاً في هذه المرحلة ، دخل في عالم الشهوات الخداعة .

في أحسن الأحوال ، يجد الانسان نفسه في السماء ، وفي اسوئها بين أرواح الثعالب[1] . صحيح أن روح الثعلب هذه قد يكون في وسعها أن تحوم فوق الجبال الشاهقة ، وأن تستمتع بالريح والقمر والزهر والثمر ، وتنال مسرتها من أشجار المرجان والعشب المرصع بالجواهر . لكنها بعد أن تكون قد تمتعت بكل هذا مدة ثلاثمائة سنة او خمسمائة ، أو على الأكثر مدة ألفين من السنين ، تنتهي مكافأتها ثم تعود لكي تولد من جديد في هذا العالم المضطرب . كل هذه الطرق غير صحيحة ، وعندما يتعلم الإنسان الطرق غير الصحيحة ، يصير بوسعه عندئذٍ أن يسأل عن علامات التثبيت .

---

(١) ـ بحسب الفولكلور الصيني ، تستطيع الثعالب هي أيضاً الافادة من اكسير الحياة ، وبذلك تتوصل الى القدرة على تحويل نفسها الى كائنات بشرية . يقابلها في الميثولوجيا الغربية شياطين الطبيعة .

端拱冥心圖



الرسم رقم (٣) ويمثل المرحلة الثالثة من التأمل : انفصال جسد الروح لكي يستقل بوجوده .

الغاية من هذا الفصل[1] أن يسترعي الانتباه الى الطرق الخاطئة في أثناء التأمل حتى يدخل المرء مكان الطاقة بدلاً من ان يدخل الى كهف التخيلات الطليقة Fantasies . هذا الأخير هو عالم الشياطين . هذه ،مثلاً ، هي حال من يجلس للتأمل ويرى شعلاً من الضياء أو الواناً ساطعة تظهر ، أو هي حال من يرى «البوذي ـ ساتوا» او الآلهة يقتربون منه ، أو اشباحاً أخرى مماثلة . أو هي حال من لم يوفق الى توحيد الطاقة والتنفس ؛ وفي هذه الحال لا يصعد ماء الكليتين الى الأعلى بل ينحدر الى الاسفل ، بحيث تصبح الطاقة الأولية باردة والتنفس خشناً ، وتكون الطاقات النورية اللطيفة أقل مما ينبغي على الأرض العظيمة ، وعندئذٍ ينزل الإنسان الى عالم التخيلات الفارغ . او هي حال من قد جلس وقتاً طويلاً ، وتصاعدت الأفكار الى رأسه في جموع حاشدة ؛ يحاول أن يوقفها فلا يستطيع ، فيخضع الى قيادتها ويستشعر الراحة . اذا حدث هذا ، فعليه الا يمضي في التأمل بحال من الأحوال ، بل عليا ان ينهض واقفاً على قدميه ثم يتمشى قليلاً حتى يعود القلب والطاقة الى الوحدة ، وعندئذٍ فقط يستأنف التأمل . في التأمل ، يجب على الإنسان ان يمتلك نوعاً من الحدس الشعوري الذي يتيح له شعوراً باتحاد الطاقة والتنفس في نطاق الإكسير ؛ يجب عليه أن يشعر بأن انطلاقاً دافئاً هو من طبيعة النور الحقيقي قد بدأ بصورة غامضة . عندئذٍ يكون قد وجد المكان الصحيح . وعندما يجد الإنسان هذا المكان الصحيح ، ينجو من خطر الدخول في عالم الشهوات الوهمية أو الشياطين المظلمة .

٦ . خبرة التثبيت في أثناء دوران النور

يقول المعلم لو ـ تسو ، ثمة أنواع كثيرة من خبرة التثبيت . يجب ألّا يقتصر المرء على المطالب الصغيرة ، بل يجب عليه أن يرتفع الى مستوى التفكير بأن جميع المخلوقات يجب تخليصها . يجب الا يكون تافهاً او غير مسؤول امام نفسه ؛ يجب عليه أن يسعى لكي تتوافق أفعاله مع أقواله . وإذا ظلّت الروح ، وهي في الهدأة ، تستشعر الجذل العظيم لا ينقطع كما لو أنها خَدِرة او خارجة حديثاً من الاستحمام ،

---

(١) ـ يُظهر هذا الفصل بجلاء تأثيراً بوذياً . الإغراء المذكور هنا يتألف من اضطرار الإنسان ، مدفوعاً بهذه التخيلات الطليقة ، الى اعتبارها حقيقية ، والى الخضوع لها . (قارن هذا بالمشهد الذي يقوم فيه مفيستوفل بالقاء النوم على «فاوست» بواسطة شيطانية) .

كان ذلك علامة على أن مبدأ النور قد أضحى سارياً في جميع أنحاء الجسد ، عندئذٍ تبدأ الزهـرة الذهبية بإعطاء البرعم . ثم عندما تسكن جميع المنافذ ، ويقف القمر الفضي في كبد السماء ، وشعـر المرء بأن هذه الأرض العظيمة قد أصبحت عالم النور والسطوع ، فإن ذلك علامة على تفتح الزهـرة الذهبية .

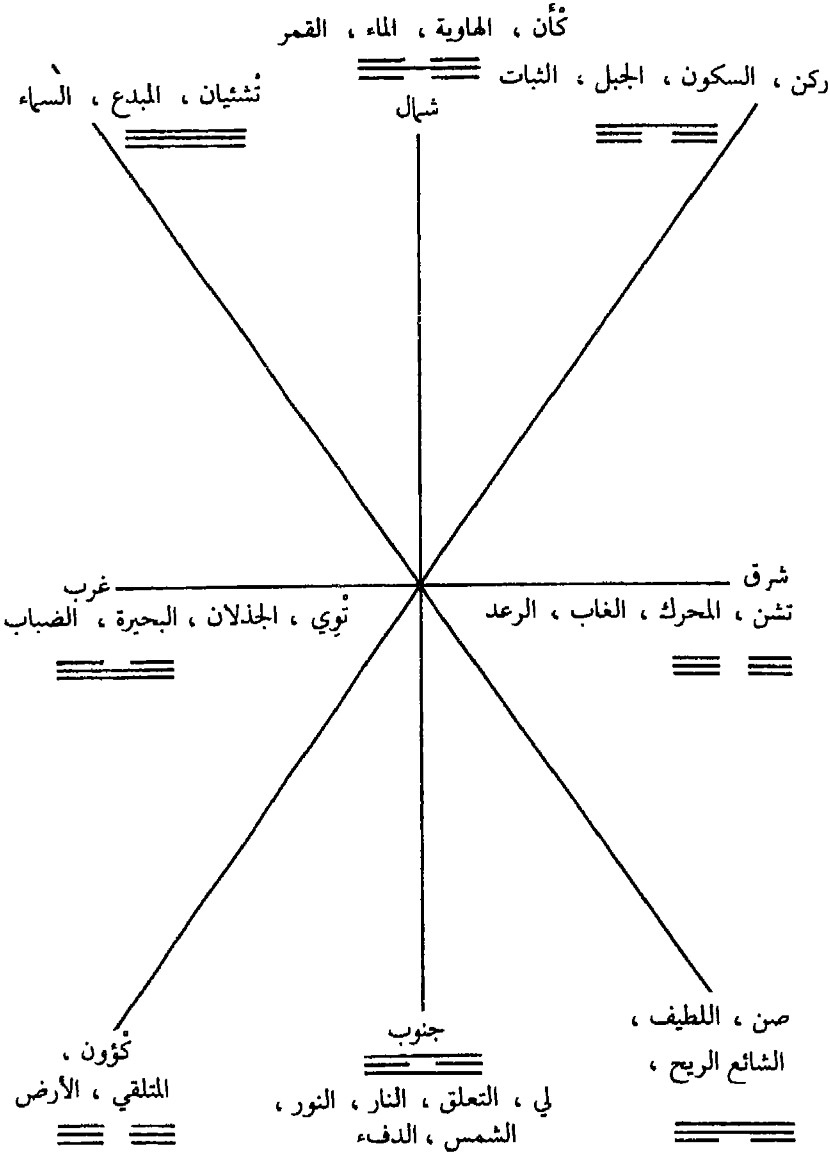
واذا استشعـر الجسد كله القوة والثبات حتى بات لا يخشى عاصفة ولا صقيعاً ، فلا شيء يحجب عنه حبّة الروح عندما يصادف الأشياء التي يستاء منها الناس الآخرون . عندئذٍ يملأ البيت الذهبُ الأصفر ، وتكون درجات السلم من اليشب الأبيض والأشياء العفنة والمنتنة التي يتفق لها أن تلامس نَفَساً واحداً من الطاقة الحقيقية تعود الى الحياة ثانية في التوّ واللحظة . وعندئذٍ يصير الدم الأحمر لبناً ، والجسد اللحمي السريع العطب ذهباً حرّاً وألماساً . كان هذا علامة على تبلور الزهـرة الذهبية .

جاء في كتاب التفكر المثمر (ينغ ـ كْوان ـ تشنغ) : «تغوص الشمس في الماء العظيم وتطلع صور الأشجار السحرية صفوفاً» . ان غروب الشمس معناه ان في العماء (في عالم ما قبل الظاهرات ، فيما قبل العالم المدْرَك) يوضع الأساس : أي الحالة غير المستقطبة [اللانهائية] . اعلى الخير كالماء صافٍ لا عكر فيه . هو حاكم القطبية الكبير ، الإله الذي يظهر في مثلث الصدمة «تشن»(١) . ويرمز له أيضاً بالغابة حيث تظهر صورة الأشجار المصفوفة .

ان صفوف الأشجار السبعة انما تعني النور في منافذ الجسد السبعة (او منافذ القلب) . والشمال الغربي هو جهة المبدع . فإذا أوغل في البعد في أحد الأمكنة ، فثمة الهاوية . فالشمس التي تغوص في الماء العظيم هي رمز للمبدع والهاوية . والهاوية هي جهة منتصف الليل (الفأر ، تسو ، الشمال) . في الانقلاب الشتوي ،

---

(١) ـ قارن بـ «الآي تشنغ» ، بحث المثلثات . ان «تشن» هو المثلث الدال على الرعد والنبع والشرق والغابة . اما المبدع والسماء ففي الشمال الغربي من هذا الترتيب . والهاوية في الشمال . (انظر الرسم التوضيحي في ملحق هذه الصفحة) .



رسم توضيحي ملحق بهامش الصفحة

يكون الرعد (تشن) خبيئاً في مركز الأرض ومحجوباً تماماً. ولايعود قطب النور الى الظهور ثانية على الأرض الا عندما نصل الى مثلث «تشن» . تلك هي الصورة التي تمثلها صفوف الأشجار . والباقي يمكن استنتاجه تبعاً لذلك .

ويعني الجزء الثاني بناء الأساس على هذا . العالم الكبير كالجليد ، عالم مجوهرات كامدة . وبريق النور يتجمد تدريجياً . ومن هنا ترتفع مصطبة عظيمة ويظهر عليها «البوذا» بمرور الوقت . عندما يظهر الكائن الذهبي ، من تراه يكون غير «البوذا» ؟ ذلك أن «البوذا» هو الإنسان الذهبي المقدس ، إنسان الاستنارة العظمى . وهذه خبرة تثبيت عظيمة .

يبقى الآن ثلاثة أنواع من خبرة التثبيت يمكن أن ندرسها . أولها أن تكون الآلهة في الوادي ، بعد أن يدخل المرء في حالة التأمل . نسمع أناساً يتكلمون كما لو أنهم على بعد عدة مئات الخطوات منا ، وكلام كل واحد منهم واضح تماماً . لكن الأصوات جميعها كرجع الصدى في واد . يستطيع المرء أن يسمعهم دائماً ، لكنه لا يسمع نفسه ابداً . أن هذا يُسمّى حضور الآلهة في الوادي .

أحياناً قد يختبر الإنسان هذه الخبرة : ما إن يسكن ، ويبدأ نور العينين بالتوقد ، حتى يسطع كل شيء أمامه كما لو كان المرء في سحابة . وتدعى هذه الخبرة «في الحجرة الخاوية ينبثق النور» . كذلك في الداخل والخارج ، كل شيء نور . وهذه علامة ملائمة جداً .

أو عندما يجلس المرء في التأمل ، يشع جسده اللحمي ويغدو كالحرير أو اليشب . ويبدو من الصعب عليه أن يظل جالساً ، عندئذٍ يشعر المرء كما لو أنه يُختطف الى الأعلى . وتسمى هذه الخبرة «الروح تعود وتلمس السماء» . وبمرور الوقت ، يستطيع المرء ان يختبر هذه الخبرة على نحو يطفو فيه الى الأعلى حقاً .

وبعد ، فإن من الممكن اختبار جميع هذه الأنواع الثلاثة من الخبرة . لكن ليس كل شيء نستطيع ان نعبر عنه . أشياء مختلفة تظهر لكل شخص على حسب استعداده . واذا اختبر انسان هذه الأشياء ، كان ذلك علامة على حسن استعداده .

بهذه الأشياء يكون الأمر مثل شرب الماء . اذ نستطيع أن نقول لأنفسنا ان كان الماء دافئاً او بارداً . بنفس الطريقة يجب على الإنسان أن يقتنع بهذه الخبرات ، وعندئذٍ فقط تكون حقيقية .

٧ . الطريقة الحية في دوران النور

يقول المعلم لو- تسو ، اذا حقق الإنسان نجاحاً تدريجياً في إحداث دوران النور ، يجب عليه ألا ينقطع عن أداء مشاغله العادية . فقد قال القدماء ، كنا اذا أتتْنا المشاغل تقّبلناها ، وتفهمناها من أساسها . وإذا قمنا بتصريف هذه المشاغل بما يناسبها من الفكر الصحيح ، لم يتوزّع النور في الأشياء الخارجية ، بل يدور وفقاً لقانونه الخاص . حتى دورة النور التي كانت حتى حينئذٍ خفيّة إنما تبدأ بهذه الطريقة ، إذن ، ما أحرى ان تكون الحالة أفضل بكثير مع دورة النور الصحيحة التي كانت قد تجلّت واضحةً من قبل .

المرء في حياته العادية ، عندما يملك القدرة دائماً على الرد على الأشياء بالردود المنعكسة فقط ، من دون أن يشوبها فكر من عنده أو من عند غيره ، فتلك هي دورة النور الناشئة عن الأحوال . ان هذا لهو السرّ الأول .

ولو يستطيع المرء في الصباح الباكر أن يتخلص من جميع المشكلات وأن ينصرف الى التأمل بضع ساعات ، ثم ان يتجه بنفسه نحو جميع الفعاليات ويظل مع ذلك خارج الأشياء بحيث تأتي ردوده على الأشياء انعكاسية وموضوعية صرفة ، ثم اذا استمر على هذه الحال بدون انقطاع ، فما هو الا شهران أو ثلاثة حتى ينزل إليه جميع الكُمّل من السماء ويوافقونه على هذا المسلك .

يتناول هذا الجزء ميادين البركة التي ندخلها عندما نمضي في عملنا قُدُماً . والقصد منه هو تعليم التلاميذ كيف يجب عليهم ان يؤدوا عملهم يوماً فيوماً بطريقة أدق لعلهم يأملون بالوصول الى اكسير الحياة في وقت قريب . كيف اتفق للمعلم أن يتكلم عند هذه النقطة عن وجوب الا يتخلّ

الإنسان عن طريقته المعتادة في الحياة ؟ قد يُستنتج من هذا ان المعلم يريد أن يمنع التلاميذ من بلوغ اكسير الحياة في وقت قريب . لكن من يعرفْ يُجبْ على ذلك بـ «لا» إطلاقاً ! . انما يخشى المعلم الا يحقق التلميذ (الكرما) الخاصة به ، ولذلك نجده يتكلم بهذه الطريقة . اما اذا افضى به عمله الى ولوج ميادين البركة ، فيصبح قلبه مثل صفحة الماء . اذا جاءته الأشياء عكسها ، واذا ذهبت عنه عادت الروح والطاقة فاتحدتا ثانية فلا تسمحان لنفسيهما بأن تتخطفهما الأشياء الخارجية . ان هذا ما يرمي اليه المعلم عندما يحض التلميذ على التخلي عن جميع المشكلات التي تجعله يفكر في الناس وفي نفسه . وعندما ينجح التلميذ في جمع أفكاره الصحيحة على مكان الطاقة بصورة دائمة ، ليس عليه أن يباشر دوران النور بنفسه ، بل ان النور عندئذٍ يدور من تلقاء نفسه . وعندما يدور النور ، يصنع الإكسير بطريقة عفوية ، ولا يعود القيام بالمهام الدنيوية يشكل عقبة . ويختلف الأمر في بداية التأمل ، عندما تكون الروح والطاقة حينئذ متفرقتين ومختلطتين . فإذا لم نستطع أن نبعد عنا الشؤون الدنيوية ، ووجدنا مكاناً هادئاً نستطيع فيه أن نتجمع على أنفسنا بكل ما لدينا من قدرة ، بحيث نتجنب جميع المزعجات الآتية من المشكلات العادية ، فقد نكون مجتهدين في الصباح ، لكن لا بد لنا أن نكون كسالى في المساء . كم يقتضي الإنسان من الوقت حتى يصل الى الأسرار الحقيقية بهذه الطريقة ؟ ولذلك يقال ، عندما يبدأ المرء بالانكباب على العمل ، عليه أن يطرح جانباً شؤونه المنزلية . فإذا لم يستطع ذلك ، فليقم أحدهم بالاهتمام بها حتى يتفرغ للانتباه التام . لكن بعد أن نكون قطعنا شوطاً بعيداً في العمل ونكون قد اختبرنا فيه التثبيتات الخفية ، لا يهم بعد ذلك ان نتولى تنظيم شؤوننا العادية في نفس الوقت حتى يتسنى لنا تحقيق «الكرما» الخاصة بكل منا .

ان هذا معناه الطريقة الحية في دوران النور ، وقديماً قال «الإنسان الحق» ، انسان نور القطب الأرجواني (تسو ـ يانغ تشن ـ جن)[1] ، قال : «اذا استطاع المرء أن يؤدي عمله وهو مندمج بالعالم واستطاع مع ذلك أن يظل منسجماً مع النور ، عندئذٍ تكون الدائرة دائرة ، ويكون لذوي الزوايا زوايا ، يعيش بين الناس «خفياً ولكنه مرئي ، مختلفاً ولكنه مثلهم ، ولا يستطيع احد أن يحدُّه ؛ وعندئذٍ لا يستطيع أحد أن يلحظ أفعالنا الخفية . ان الطريقة الحية في دوران النور لها هذا المعنى بالذات : أن تعيش مندمجاً بالعالم وفي انسجام مع النور .

---

(١) ـ ثمة عدد من شيوخ الطاوية يحملون هذا الاسم . ولعل المشار اليه هنا هو تشانغ بو ـ توان ، الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي .

٨ . تعويذة سحرية من أجل السفر الطويل

يقول المعلم لو- تسو ، ترك لنا يو تشنغ تعويذة سحرية من أجل السفر الطويل :

أربع كلمات تجمّع الروح في مكان الطاقة .
في الشهر السادس يُرى فجأة ثلج أبيض يطير
في الساعة السادسة يُرسل قرصُ الشمس اشعة تُعمي العين
وعلى الماء تهبّ ريح اللطيف .

واحد ، وهو يجوب السماء ، يأكل طاقة روح المتلقي . وأعمق سر السر :
البلاد التي ليست في مكان ، ذلك هو الوطن الحقيقي . .

هذه الأبيات حافلة بالأسرار . وفحواها : أهم شيء في الطريق هو «الفعل بالامتناع عن الفعل» . فالامتناع عن الفعل يحول بين الإنسان وأن يقع في أغلال الشكل والصورة (في عالم المادة) . والفعل بالامتناع عن الفعل يحول بينه وبين أن ينغمس في الفراغ المخدِّر واللاشيئية الميتة . وتتوقف النتيجة كلّيةً على «الواحد» المركزي . وتصدر النتيجة عن العينين . وهما مثل قطب «المركبة الضخمة» الذي يدور عنه الخلق كله ؛ وهما تديران قطبي النور والظلام . يتوقف الإكسير من البداية الى النهاية على شيء واحد : المعدن في وسط الماء ؛ أي الرصاص في اقليم الماء . حتى الآن تكلمنا عن دوران النور ، مشيرين الى صدوره الأوّلي الذي يعمل من الخارج على ما بالداخل . ان هذا يساعدنا في اكتساب «السيّد» . فهو للتلاميذ الذين لم يزالوا في مراحل البداية . يلجون المعبرين السفليين لكي يرتقوا الى المعبر بعد أن تنجلي سلسلة الحوادث ، وتُعرف طبيعة الصدور ، لا تعود السماء تحتفظ بالطريق ، بل تكشف السماء عن الحقيقة النهائية . أيها التلاميذ ، احفظوا السرّ وضاعفوا جهودكم !



الرسم رقم (٤) ويمثل المرحلة الرابعة من التأمل : المركز في وسط الأحوال

ان دوران النور هو الاصطلاح الشامل . كلما قطعنا شوطاً الى الأمام ، تفتّحت الزهـرة الذهبية وَرَبتْ . لكنّ هناك ضرْباً من الدوران لا يزال ابعثْ على الدهشة . حتى الآن كان عملنا من الخارج على ما بالداخل ؛ اما الآن فنقيم في الوسط ونتحكم بما هو خارجي . حتى الآن كنا في خدمة السيد ؛ اما الان فنقوم بتوزيع أوامر السيد . لقد انقلبت العلاقة كلها الآن . فإذا أردنا أن نتوغّل في الأقاليم الأخفى ، بواسطة هذا المنهج ، يجب علينا أولاً أن نحرص على التحكم بالجسد والقلب معاً تحكماً تاماً ، حتى نتحرر تماماً ونستشعر السلام ، ونتخلص من جميع المشكلات فلا تزعجنا أدنى إثارة ، ونكون مع القلب السماوي الذي هو في نقطة المركز تماماً . ثم علينا أن نغض من أبصارنا خاشعين كما لو كنا نتسلم مرسوماً مقدساً يدعو الى تقلّد وزارة . من تُراه يجرؤ على العصيان ؟ ثم ننير بيت الهاوية بكلتا العينين (الماء ، كْان) . حيثما ذهبت الزهـرة الذهبية ، هبّ نور القطبية الحقيقي لملاقاتها . التعلق (السطوع ، لي Li) ساطع من الخارج ، مظلم من الداخل؛ ان هذا هو جسد المبدع ويدخل [الخط] المظلم الواحد ويصير سيداً . النتيجة هي أن القلب (الوعي) ينمو معتمداً على الأشياء ، ويوجَّه الى الخارج ، ويُقذف به الى الساقية . لكن ، عندما يُشع النور الدوّار على ما بالداخل ، لا ينمو معتمداً على الأشياء ، بل تُثبت طاقة المظلم ، وتشع الزهـرة الذهبية متجمعةً . ان هذا هو نور القطبية المتجمع . الأشياء المتقاربة يجذب بعضها بعضاً . وبذلك يضغط خط النور المستقطب ، وهو خط الهاوية ، باتجاه الأعلى . انه ليس النور الذي في الهاوية وحسب ، وانما هو النور المبدع يلاقي نوراً مبدعاً . وما إن يتلاقى هذان الجوهران حتى يتحدا اتحاداً لا انفصام له ، وعندئذٍ تنشأ حياة لا تنقطع ؛ تأتي وتذهب ، وتعلو وتهبط من تلقاء نفسها ، في بيت الطاقة الأولية . فيطلع المرء على الألق وعلى اللانهاية . ويشعر الجسد كله انه خفيف ويريد أن يطير . هذه هي الحال التي يقال عنها : السحب تملأ الجبال الألف ، ثم ما يلبث ان يروح ويغدو جيئة وذهاباً في منتهى اليسـر ، يعلو ويهبط دون ان يدركه أحد . ثم يتوقف نَبْضُهُ ونَفَسُهُ . ان هذه هي لحظة الاتحاد المبدع ، أو الحال التي يقال عنها : القمر يجمع المياه ذات الآلاف العشرة . وفي وسط هذه الظلمة يبدأ

القلب السماوي بالحركة فجأة . ان هذه هي عودة النور الواحد ، الوقت الذي يأتي فيه الوليد الى الحياة

غير أن تفاصيل هذا يجب أن نشرحها بعناية . عندما ينظر شخص الى شيء ، ويستمع الى شيء آخر ، تتحرك العينان والأذنان وتتبعان المنظور والمسموع حتى يغيبا . كل هذه الحركات تابعة ، واذا تبعها الحاكم السماوي في مهامها ، فمعنى هذا انها تعيش مع الشياطين .

اما اذا عاش المرء ، في أثناء كل حركة وكل سكنة ، مع الناس لا مع الشياطين ، فيكون الحاكم السماوي عندئذٍ هو الإنسان الحقيقي . وإذا تحرك وتحركنا معه ، تصبح هذه الحركة جذر السماء . وإذا سكن وسكنّا معه أيضاً ، كانت هذه السكنة كهف القمر . وإذا ما انفك يناوب بين الحركة والسكنة ، فلا تتردد في المضيّ معه في الحركة والسكون . وإذا علا وهبط مع الشهيق والزفير ، فاعْلُ واهبطْ معه . ان هذا ما يُسمى بالسَّيْر جيئة وذهاباً بين جذر السماء وكهف القمر .

اذا ظل القلب السماوي محتفظاً بهدوئه ، كانت الحركة في غير وقتها الصحيح عيباً في النعومة . واذا تحرك القلب السماوي ، كانت الحركة التي تعقب ذلك لكي تتطابق معه عيباً في الصلابة . حالما يتحرك القلب السماوي ؛ ما على المرء الا أن يصعد الى الأعلى بكل قلبه الى بيت المبدع . بذلك يرى القمة نورُ الروح ؛ ان هذا هو القائد . هذه الحركة تتفق مع الوقت . القلب السماوي يعلو الى قمة المبدع ، حيث ينتشر في حريّة تامة . ثم يحتاج فجأة الى أعمق الصمت ، وعلى المرء عندئذٍ أن يقوده بسرعة وبكل قلبه الى القلعة الصفراء ؛ وبذلك يرى المسكن المتوسط الأصغر حيث تقطن الروح .

وعندما تأتيه الرغبة في الصمت ، لا تنهض ولا فكرة . ومن ينظرْ الى الداخل يَنْسَ فجأة انه ينظر . وفي هذا الوقت ، يجب أن يُترك الجسد والقلب طليقين تماماً . لقد تلاشت جميع المشكلات ولم تخلف وراءها أثراً . وعندئذٍ لا أعود أعرف أين موقع بيت روحي ولا موقع بوتقتي . واذا أراد امرؤ أن يتيقن من جسده ، لا يستطيع أن

يدركه . ان هذه هي حال تغلغل السماء في الأرض ، الوقت الذي تعود فيه جميع العجائب الى جذورها . يحدث هذا عندما تدخل الروح المتجمعّة الى مكان الطاقة .

«الواحد» هو دوران النور ، وعندما نبدأ ، يكون النور حتى عندئذٍ متفرقاً فنريد أن نجمعه ؛ الحواس الست لا تكون فاعلة . ان هذه هي تربية أصلنا الخاص بنا وتغذيته ، تعبئة الزيت عندما نذهب لاستلام الحياة . فإذا قطعنا مسافة كافية لأن نجمع النور ، شعرنا بالنور والحرية ولم نحتج الى أن نكلّف أنفسنا أدنى عناء . ان هذه هي تهدئة الروح في مكان الاسلاف ، وامتلاك السماء السابقة .

اذا أوْغل المرء في السفر بعيداً حتى يتلاشى كل ظلّ ويتبدد كل صدى ، وحتى يسكن المرء ويثبت كلّيةً ، فإن هذا هو ملاذه في كهف الطاقة ، حيث يعود كل ما هو عجائبي الى جذوره . المرء لا يغير مكانه ، بل يقسم المكان نفسه . ان هذا مكان غير جَسَديّ عندمايكون ألف مكان وعشرة آلاف مكان مكاناً واحداً . والمرء لا يغير الزمان ، بل يقسم الزمان نفسه . ان هذا زمان لا يُقاس عندما تكون جميع الدهور كلحظة واحدة .

ما دام القلب لم يصل الى السكينة المطلقة ، لا يستطيع ان يتحرك من نفسه . ان احدنا يحرك الحركة وينسى الحركة ؛ ان هذه ليست حركة بذاتها . لذلك يقال : اذا تحرك المرء ، بتحريض من الأشياء الخارجية ، فحركته هي غريزة الوجود . وإذا تحرك ، بدون تحريض من الأشياء الخارجية ، فحركته حركة السماء . ومن يكن محله ضد السماء يسقطْ ويخضع لسيطرة الغرائز . الغرائز مؤسسة على وجود الأشياء الخارجية ، انما الأفكار هي التي تذهب الى ما وراء موقع الإنسان . اما الحركة فتؤدي الى الحركة . وعندما لا تنهض ولا فكرة ، تأتي الفكرة الصحيحة . تلك هي الفكرة الحقة . اذا سكنت الأشياء وثبت الإنسان تماماً ، وتحرك فجأة عِتْق السماء ، أفليست هذه حركة بلا هدف ؟ للفعل بالامتناع عن الفعل هذا المعنى تماماً .

أما الأبيات التي أوردناها في البداية ، فالبيتان الأوّلان يشيران كليّةً الى فعالية الزهرة الذهبية. والبيتان التاليان معنيّان بالتغلغل المتبادل بين الشمس والقمر .

والشهـر السادس هو التعلّق (النار ، لي) Li . والثلج الأبيض المتطاير هو الظلمة القطبية الحقيقية الموجودة في قلب نار المثلث ، التي تهم بأن تتحول الى المتلقي . والساعة الثالثة هي الهاوية (الماء ، كْأن) ، وقرص الشمس هو الخط القطبي الواحد في مثلث الماء ، الذي يهم بأن ينقلب الى المبدع . ان هذا ينطوي على الطريقة التي يتم فيها تلبيس الهاوية بالمثلث ، وعلى الطريقة التي يتم فيها قَلْب المثلث الى التعلق (النار ، لي) Li .

والبيتان التاليان لهما علاقة بفعالية قطب «المركبة الضخمة» ارتفاع قطبية العتق وانخفاضها . الماء هو مثلث الهاوية ؛ والعين هي ريح اللطيف (صن) . نور العينين يضيء بيت الهاوية ، ويضبط فيه حبة النور العظيم . في السماء.، هذا معناه بيت المبدع (تشيان) . والتجوال في السماء ، واحد يأكل طاقة روح المتلقّي ، هذا يبين كيف تتغلغل الروح في الطاقة ، وكيف تتغلغل السماء في الأرض ؛ يحدث هذا لكي تتغذى النار .

أما البيتان الأخيران فيشيران الى أعمق الأسرار ، التي لا يمكننا الاستغناء عنها من البداية الى النهاية . هذا هو غسل القلب وتصفية الأفكار ؛ هذا هو الاستحمام . العلم المقدس يعتبر مكان الوقوف بداية ، والتوقف عند الخير الأعلى نهاية . بدايته تتعدّى القطبية ثم يعود فارغاً فيما وراء القطبية .

تكلم البوذا عن الزائل الذي يخلق الوعي بما هو الحقيقة الأساسية في الدين . كل عملنا الذي يقوم على إتمام الحياة والطبيعة البشرية في طاويتنا انما يكمن في تعبير «إحداث الفراغ» ، الديانات الثلاث كلها تؤمن بقضية واحدة هي إيجاد الإكسيـر الروحي لكي نعبر من الموت الى الحياة . مم يتألف هذا الإكسيـر الروحي . ان معناه دائماً وأبداً البقاء في انتفاء القصد . أعمق أسرار الاستحمام الذي نجده في تعليمنا هو قصْر العمل على تفريغ القلب . فيه تُسوى المسألة . ان ما بيّنتُهُ هنا في كلمة هو ثمرة جهد عشر سنوات .

وإذا لم يتضح لك بعد الى أي مدى يمكن هذه الأجزاء الثلاثة جميعاً أن تمثل في جزء واحد ، فسأعمد الى توضيح ذلك من خلال التفكر الثلاثي البوذي المؤلف من الفراغ والوهم المركز .

يأتي الفراغ في المرتبة الأولى من هذا التفكر الثلاثي ، وذلك عندما ننظر الى جميع الأشياء على أنها فارغة . ثم يلي الفراغ الوهمُ . رغم معرفتنا بفراغ الأشياء ، لكننا لا نحطمها ، بل نهتم بشؤوننا في وسط الفراغ . ورغم اننا لا نحطمها ، لكننا لا نعيرها انتباهنا ؛ ان هذا هو التفكر في المركز . وعندما نتفكر في الفارغ ، نعلم أيضاً اننا لا نستطيع تحطيم عشرة آلاف الأشياء ، ونظل مع ذلك غير ملاحظين لها . بهذه الطريقة تتلاقى مراتب التفكر الثلاث . لكن ، لا ننْس ان العزيمة هي في تأمل الفارغ . ولذلك عندما نتفكر في الفراغ يكون الفراغ فارغاً حقاً ، لكن الوهم فارغ والمركز فارغ أيضاً . نحتاج الى قوة عظيمة لكي نتفكر في الوهم ؛ وعندما نتفكر في الوهم يكون الوهم وهماً حقاً ، لكن الفراغ وهم والمركز وهم أيضاً . وحين نكون في المركز ونخلق صور الفراغ لا نسميها فارغة بل مركزية . كذلك عندما نتفكر في الوهم لا نسميه وهماً ، بل مركزياً . أما فيما يتعلق بالمركز فلا حاجة بنا الى مزيد قول .

يرد في مطلع هذا الجزء تعويذة يو ـ تشنغ السحرية المتعلقة بالسفر الطويل ، التي تبين أن العجيبة الخفية التي تحدث في الطريق هي نشوء شيء من لاشيء . وبما أن الروح والطاقة تتحدان في شكل متبلور ، تظهر مع الزمن نقطة نار حقيقية وسط فراغ اللاشيء . وفي غضون ذلك ، كلما سكنت الروح امتدت النار اتقاداً . ويقارن اتّقاد النار بحرارة الشمس في الشهر السادس . وبما أن النار المتّقدة تجعل ماء الهاوية يتبخر ، وبما ان البخار يسخن حتى يصل الى درجة الغليان ، يتصاعد البخار كالثلج المتطاير . والمراد بهذا اننا نستطيع أن نرى الثلج يتطاير في الشهر السادس . لكن بما أن الماء يتبخر بالنار ، عندئذٍ تستيقظ الطاقة الحقيقية . ومع ذلك عندما يستريح الظلام ، يبدأ النور بالحركة ؛ فيكون مثل حال منتصف الليل . لذلك يطلق الشيوخ على هذا الوقت اسم وقت منتصف الليل الحي . في هذا الوقت ، نعمد الى الطاقة لكي نجعلها تدفق الى الخلف وتعلو ، ثم تدفق الى الأسفل وتهبط كما تغزل الشمس أشعتها نحو العلاء . ولذلك قيل : «في الساعة الثالثة يرسل قرص الشمس أشعة تعمي العين» وطريقة الدوران تستخدم النفس لكي يهب على نار مداخل الحياة ؛

بذلك نعيد الطاقة الحقيقية الى مكانها الصحيح . ولذلك قيل أن «الريح تهب على الماء» . من أصل الطاقة الوحيدة وهي طاقة السماء السابقة ، ينشأ الشهيق والزفير في السماء اللاحقة وطاقتها الملتهبة .

الطريق يمضي من المؤخرة الى الأعلى بواسطة انكفاء الدفق الى الخلف وصولاً الى قمة المبدع ، ومن قمة المبدع الى بيت المبدع ، ثم يغور من خلال الطابقين بواسطة الدفق المباشر الى الأسفل حيث الضفيرة الشمسية ، ويدفئها . ولذلك قيل : وهو يجوب السماء يأكل طاقة روح المتلقي . وحين تنكفىء الطاقة الحقيقية الى المكان الخلاء ، تغتني وتربو ، وتدخل المسرة والبهجة على القلب والجسد . فإذا لم نستطع الوصول الى هذه الغاية بتدوير عجلة التعليم ، فكيف نستطيع القيام بهذا السفر الطويل بوسيلة أخرى ؟ ما يؤدي اليه الطريق هو هذا : تشع الروح المتبلورة الى الخلف نحو نار الروح ، وبواسطة الهادىء الأعظم ، تستعر النار في وسط الماء الواقع في منتصف الكهف الخلاء . ولذلك قيل : وأعمق سرّ السرّ : البلاد التي ليست في مكان ، ذلك هو الوطن الحقيقي .

هو ذا التلميذ قد أوغل في عمله في الأقاليم الخفيّة ، لكنه ربما لا يُنتج إكسير الحياة إن لم يعرف طريقة الذوبان . لذلك كشف المعلم النقاب عن السرّ الذي ما برح القدّيسون يحرصون على كتمانه أشدّ الحرص . عندما يُثبت التلميذ الروح المتجمعة داخل كهف الطاقة ، وفي نفس الوقت يترك الأمر للهدأة العظمى ، ينشأ في حَلَك الظلام شيء ما من اللاشيئية ، أي ، تظهر الزهرة الذهبية ، زهرة «العظيم» . وعندئذٍ يتمايز النور الواعي من نور الطبيعة البشرية (هْسِنْغ) . ولذلك قيل : «الحركة الناجمة عن تحريض الأشياء الخارجية تؤدي الى ذهابها رأساً الى الخارج والى خلق إنسان . ذلك هو النور الواعي . وبعد أن تتجمع الطاقة الحقيقية تماماً ، على التلميذ ألا يتركها تتدفق الى الخارج ، بل الخلف ؛ ان هذا هو نور الحياة . يجب أن نطبق طريقة «تدوير الناعورة» . فإذا أدرْناها وأدرْناها ، عادت الطاقة الحقيقية الى الجذور ، نقطة فنقطة . وعندئذٍ تقف الناعورة ، وينظف الجسد ، وتتجدد الطاقة . ان دورة واحدة من الناعورة تعنى دورة سماوية واحدة ، وهو ما دعاه المعلم «تشيئو» بالدورة السماوية الصغيرة . لكن ، اذا لم ينتظر حتى تتجمع الطاقة تماماً . رقت الطاقة وضعفت ، ولم يتكوّن الإكسير . كذلك حين نُهملها ولا نعملها ، تغدو بالغة القدم والصلابة ، فلا يُنتج عندئذٍ إكسير الحياة . أما حين لا تكون بالغة القدم ولا بالغة الرّقة ، فيكون الوقت مناسباً لاستعمالها بصورة هادفة . ان هذا ما قصد إليه البوذا عندما قال : الظاهرة تصبّ في الفراغ . وهذا هو التسامي بالحبّة الى الطاقة . اما اذا لم يفهم التلميذ هذا المبدأ ، وترك الطاقة تجري رأساً الى الخارج ، فعندئذٍ تتحول الطاقة الى حبّة . ان هذا هو المقصود عندما يقال : «الفراغ يجري في النهاية في الظاهرات» . لكن كل رجل يتحد بامرأة جسداً يشعر أولاً بلذة ثم يشعر بعدها بمرارة ؛ عندما تجري الحبّة الى الخارج ، يتعب الجسد وتضوى الروح . ويختلف الأمر اختلافاً كبيراً عندما تتحد

الطاقة والروح . ان هذا يجلب النقاء أولاً ثم الجذة ؛ عندما تتحول الحبّة يصبح الجسد صحيحاً وطليقاً . ثمة اعتقاد خاطىء بأن المعلم القديم «بأنغ» قد عاش ثمانمائة عام لأنه استفاد من الجواري في تغذية حياته . والصحيح انه استخدم طريقة تسامي الروح والطاقة . في القسم الأعظم من إكسير الحياة انما استخدم الرموز ، وكثيراً ما تشبّه نار التعلق (لي Li) بالعروس ، وماء الهاوية بالصبي . ومن هنا نشأ الفهم الخاطىء عن المعلم «بأنغ» بأنه استعاد حيويته بواسطة النساء . هذه أخطاء وجدت لها طريقاً في أجيال لاحقة .

لكن المتقدمين لا يستطيعون استخدام وسائل قلب الهاوية والتعلق الا حين يخلصون النية في العمل ، وإلا لم يتح مزيج صاف . الغاية الحقيقية تابعة للأرض ؛ لون الأرض أصفر ، لذلك يُرمز اليها في الكتب التي تبحث في إكسير الحياة بالجرثومة الصفراء . عندما تتحد الهاوية والتعلق ، تطلع الزهرة الذهبية ؛ اللون الذهبي أبيض ، ولذلك يستعمل الثلج الأبيض له رمزاً . لكن الدنيويين الذين لا يفهمون الكلمات السرّية في «كتاب إكسير الحياة» يخطئون فهم «الأصفر» و«الأبيض» عندما يتخذون منها وسيلة لصنع الذهب من الحجارة . أليس هذا حُمقاً ؟

يقول أحد الشيوخ القدامى : «قديماً ، عرفت كل مدرسة هذه الجوهرة الا الحمقى فلم يعرفوها كلها» . اذا فكرنا في هذا القول رأينا أن القدماء وصلوا الى الحياة المديدة حقاً ، مستعينين بطاقة الحبّة الماثلة في أجسامهم ، وأنهم ما أطالوا أعمارهم بتناول هذا النوع أو ذاك من الإكسير . لكن الدنيويين اهملوا الجذور وتعلقوا بذرى الشجر . يقول «كتاب إكسير الحياة» أيضاً : عندما يستخدم الرجل الصحيح (الساحر الأبيض) أدوات غير صحيحة ، تعمل الأدوات غير الصحيحة بطريقة صحيحة ، ومعنى هذا تحويل الحبّة الى طاقة . لكن اذا استخدم الرجل الصحيح (الساحر الأبيض) أدوات غير صحيحة ، تعمل الأدوات غير الصحيحة بطريقة صحيحة ، ومعنى هذا تحويل الحبّة الى طاقة . لكن اذا استخدم الرجل غير الصحيح أدوات صحيحة ، تعمل الأدوات الصحيحة بطريقة غير صحيحة ، ويعنون بهذا جماع الرجل والمرأة الذي ينبع منه الأبناء والبنات . والأحمق من يضيع أثمن جوهرة في جسده في شهوة جامحة ، ولا يعرف كيف يحافظ على طاقة الحبّة ، حتى اذا نفدت هَلَك جَسَدُهُ . ليس عند الحكماء والقديسين من طريقة لتهذيب حيواتهم غير تحطيم شهواتهم والمحافظة على الحبّة . عندما تتحول الحبّة المتجسمة الى طاقة ، ويتوفر من الطاقة ما يكفي ، يُصنع الجسد القويّ الخلّاق . والفرق الذي يُظهره الناس العاديون يتوقف على طريقة استخدامهم للدفق باتجاه الأسفل أو الدفق باتجاه الخلف .

يتوجه كل مني هذا الجزء الى توضيح طريقة تعبئة الزيت للتلميذ عندما يواجه الحياة . العينان هنا هما الشيء الرئيسي . فهما مقبض نجم القطب . فكما أن السماء تدور حول نجم القطب بما هو

نقطة المركز ، هكذا يجب أن تكون البنية الصحيحة السيد بين الناس . لذلك يتوقف إتمام إكسير الحياة على صحة الغاية وانسجامها . ثم ، اذا قيل بأن الأساس يمكن إرساؤه في مائة يوم ، يجب علينا أن نأخذ بالحسبان قبل كل شيء درجة الكدّ في العمل ودرجة القوة في البنية الفيزيائية . ومن يتحمُس للعمل ، ويكنْ قوي البنية ، يوفق قبل غيره الى تدوير الناعورة في مؤخرة النهر . ومن يخلق الانسجام بين الطاقة والأفكار ، يكن بوسعه صنع إكسير الحياة في مائة يوم . وإذا تم صنع إكسير الحياة ، صفت الطاقة والروح ، وفرغ القلب ، وانجلت الطبيعة البشرية ، وتحول نور الوعي الى نور للطبيعة البشرية . وإذا أقمنا على التشبث بنور الطبيعة البشرية ، فإن التفاعل بين التعلق (النار ، لي نا) وبَين الهاوية يجري بصورة تلقائية . وما ان يندمج التعلق والهاوية حتى تولد الثمرة المقدسة . انما تنضج الثمرة المقدسة بفعل الدورة السماوية العظيمة . وكل شرح يتوقف عندما نصل الى الكيفية التي تحصل بها الدورة السماوية .

ان هذا الكتاب مَعْنيّ بوسائل تهذيب الحياة ، ويبيّن لنا كيف نبدأ النظر الى جسر الأنف ؛ هنا تظهر طريقة قلب الأشياء أو عكسها . أما طرائق التثبيت والإخلاء ففي كتاب آخر هو «هسو مِنغ فانغ»[1] ـ (طرائق إطالة الحياة) .

---

(١) ـ الأسم الأخر لهذا الكتاب هو (هْوِي مِنْغ تِشنغ) (هـ . و) .

مجمل المفاهيم الصينية التي تقوم عليها فكرة الزهـرة الذهبية او جسد الـروح الخالد(٢)

ينشأ عن الطاو ، الواحد العظيم غير المنقسم ، مبدأان متضادّان ، هما الظلام والنور ، أو «ين» و«يانغ» . هذان المبدأان ، ابتداءً ، هما قوتان من قوى الطبيعة ولا علاقة لهما بالإنسان . ثم ينشأ عنهما الاستقطاب الجنسي وسواه . من الظلام (ين) ينشأ المبدأ المؤنث المتلقي (كُوُن) ، ومن النور ينشأ المبدأ المذكر المبدع (تْشئيان) . ومن الظلام (ين) الحياة (مِنغ) ، ومن النور (يانغ) تأتي الطبيعة البشرية (هْسِنْغ) .

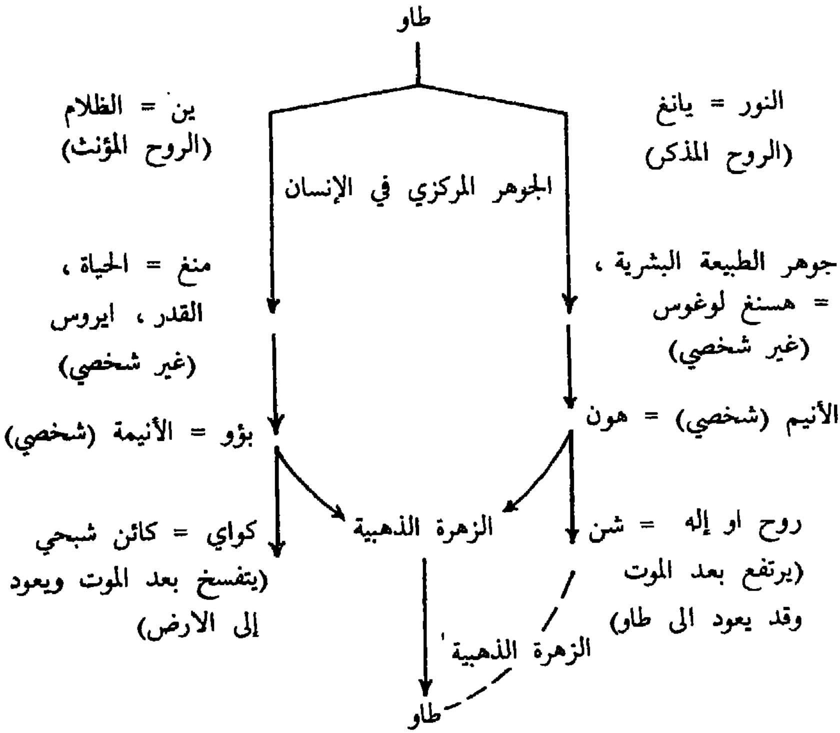
كل إنسان ينطوي على جوهر فْرد مـركزي ، ينقسم في لحظة الحمل الى حياة (مِنْغ) وطبيعة بشرية (هْسِنْغ) . والاثنان مبدأان يتخطيان الفرد ، ولذلك يمكن أن نقرنهما بـ «إيروس» (الحب او العشق) و«لوغوس» (الكلمة أو العقل) .

في وجود الإنسان الجسماني الشخصي يمثّل المبدأين قطبان آخران هما روح بوْو (الأنيمة) وروح هُوْن (الأنيم) . هذان القطبان يصطرعان طيلة حياة الإنسان ، ويجهد كل منهما للسيطرة على الآخر . وعند الموت ينفصلان ويذهب كل منهما في طريق مغاير . تغرص الأنيمة (بْوْو) في الأرض حيث تصير كائناً شبحياً (كْواي) ،

(٢) ـ هذا المجمل والرسم البياني الذي يليه أعدّهما المترجم للطبعة الانكليزية (ك . ف . ب) .

ويرتفع الأنيم الى السماء حيث يصير إلهاً أو روحاً (شن) . ويمكن شن أن يعود الى «الطاو» في وقت مناسب .

اذا جرت طاقة الحياة الى الأسفل ، اي دَفَقت الى العالم الخارجي بلا عائق يعوقها ، انتصرت الأنيمة على الأنيم فلا يتهيأ لجسد الروح نموّ ولا للزهـرة الذهبية تفتّح ، حتى اذا جاء الموت ضاعت الأنيّة (ego) وتلاشت . اما اذا جرت طاقة الحياة الى الخلف ، أي اننا احتفظنا بها ، وجعلناها ترتفع ، بَدَلَ أن تتبدد ، كان الأنيم هو المنتصر ، وبقيت الأنيّة بعد الموت . وعندئذٍ يصبح الأنيم روحاً أو إلهاً (شن) . ومن يلتزم طريق الحفاظ على طاقة الحياة طوال حياته فقد يبلغ مرحلة الزهـرة الذهبية ، التي تحرر الأنيّة من صراع الأضداد ، التي تعود لتصبح جزءاً من «الطاو» الواحد العظيم غير المنقسم . .



هْوِي مِنْغ تِشنغ

كتاب
الوعي والحياة

١ . انقطاع الدفق الى الخارج

ان كنت تريد أن تكمل جَسَد الالماس بلا دفق الى الخارج ،
عليك بتسخين جذور الوعي والحياة بإتقان..
أوقد المصباح في البلاد المباركة القريبة أبداً منك ،
ولتسكَنْ نفسك الحقيقية دائماً ، خبيئةً هناك .

في النص الصيني نجد رسماً يكشف عن جسم الإنسان . في منتصف الجزء الأسفل من الجسم حجيرة صغيرة فيها ينفصل طريق الحياة عن طريق الوعي . وبين الطريقين قناة تؤدي الى العالم الخارجي ، ومن خلال هذه القناة تجري السوائل الحيوية الى الخارج[١] .

الطبيعة البشرية والحياة (هْسِنغ ـ مِنْغ) أخفى أسرار «الطاو» . ما من وسيلة لتهذيب الطبيعة البشرية والحياة خير من ردّهما جميعاً الى الوحدة . لقد بيّن القديسون القدامى والحكماء العظام ما عندهم من أفكار تتعلق بتوحيد الطبيعة البشرية والحياة بواسطة الصور الآتية من العالم الخارجي ، لكنهم كانوا يكرهون أن يفصحوا عنها صراحةً بدون استخدام الرمز . ولذلك ضاع من على وجه الأرض ذلك السرّ الذي

---

(١) ـ هذه الملاحظة التوضيحية والملاحظات التالية ساهم بها ريتشارد ويلهلم (ك . ف . ب) .

يكشف عن الوسيلة التي نستطيع بها أن نهذب الطبيعة البشرية والحياة كلتيهما في وقت واحد . ان الذي أبيّنه بواسطة سلسلة الصور ليس بَوْحاً عابثاً بالأسرار . بل على العكس ، إنما ضَمَّمْت الملاحظات الموجودة في (لانغ - ين - تشنغ) ، المتعلقة بالدفق الى الخارج ، الى الأفكار السرية التي نجدها في (هوا - ين - تشنغ) ، ثم أضفت اليها بعض الإشارات العابرة التي نجدها في الكتب الأخرى ، حتى تجمعت كلها في صورة واحدة - كل ذلك لكي نعرف ان الوعي والحياة ما هما بالأمرين الغريبين عن الحويصلة الأصلية . وإنما رسمت هذه الصورة لكي يعرف الصحب الذين يتبعون الأعمال الإلهية المتعلقة بالتهذيب الثنائي أن الحبّة الحقيقية انما تنضج بهذه الطريقة ، وأن انقطاع الدفق الى الخارج انما يحدث بهذه الطريقة ، وأن الـ «شالي»[1] Sheli انما تُسْتقطر بهذه الطريقة ، وأن الطاو العظيم انما يكتمل بهذه الطريقة .

لكن الحويصلة الأصلية ما هي غير كُهَيف غير مرْئي ، لا هيئة له ولا صورة . عندما يتحرك نفس الحياة ، تظهر حبّة الحويصلة الى حيّز الوجود ؛ وعندما يتوقف النفس تعود لكي تختفي . فالحويصلة هي المكان الذي يضم الحقيقة والمذبح الذي يخلق عليه الوعي والحياة . وهي تُدعى قلعة التنين في قاع البحر ، والإقليم المتاخم لجبال الثلج ، والممر الأوّلي ، ومملكة الفرح الأعظم ، والبلاد التي لا حدود لها . جميع هذه الأسماء المختلفة تعني شيئاً واحداً هو الحويصلة الأصلية . وإذا لم يعرف الإنسان الفاني هذه الحويصلة الأصلية ، فلن يستطيع أن يوحد الوعي والحياة ولو في ألف ولادة او في عشرة آلاف دهر .

هذه النقطة الجرثومية شيء عظيم . قبل أن يُخلق جَسَدُنا هذا من أبوينا ، وقت الحمل ، تُخلق هذه الحبّة أولاً وتسكن فيها الطبيعة البشرية والحياة . تندمج الاثنتان بعضهما ببعض وتشكّلان كينونة واحدة وتمتزجان امتزاجاً يتعذر معه الفصل بينهما

---

(١) - ساريرا ، الثابت ، أي الجسد الخالد .

كالشرر في أتون التقطير، وتكونان جُملةً من الانسجام البذْئي والقانون الإلهي . ولذلك يقال : «في حالة ما قبل الظهور يوجد نَفَس لا ينقطع ، كذلك يقال : قبل أن يلد الأبوان ولدهما ، يكون نَفَس الحياة تامّاً والجنين مكتملاً . ولكن عندما يتحرك الجنين ، وتنشق عنه الحويصلة ، يصبح الأمر أشبه ما يكون بإنسان أضاع موطىء قدمه على جبل عال : بصيحة واحدة يهوي انحداراً على الأرض . منذئذٍ تنفصل الطبيعة البشرية والحياة بعضهما عن بعض . ومنذئذٍ لا يكون بمقدور الطبيعة البشرية أن ترى الحياة ، ولا الحياة الطبيعية البشرية . وهنا يأخذ القدر مجراه : يتحول الشباب الى نضج ، والنضج الى شيخوخة ، والشيخوخة الى عجز .

لذلك أفشى الجولاي[1] ، في رحمته الواسعة ، سر الخلق والتذويب . وعلّمنا كيف نعود فندخل ثانية في الرحم ، وأن نخلق الطبيعة البشرية وحياة الأنيّة (ego) خلقاً جديداً . وبيّن لنا كيف يدخل الروح والنفْس (النَفَس الحيوي) الى الحويصلة الأصلية ، وكيف يجب أن يندمجا في وحدة تكتمل بها الثمرة الحقيقية ، تماماً مثل دخول مَني[2] الأب والأم ونفسهما في هذه الحويصلة ويكوّنان كائناً واحداً حتى يكتمل الجنين .

المبدأ واحد في الحالين .

في قلب الحويصلة الأصلية نجد نار الملك ، وعلى بابها نار الوزير ، وفي الجسد كله نار الرعية . عندما تعبر نار الملك عن نفسها ، تتلقاها نار الوزير . وعندما تتحرك نار الوزير ، تتبعها نار الرعية . وهذه النيران الثلاث عندما تعبر عن نفسها ينشأ إنسان . لكن عندما تنكص هذه النيران الى الخلف ينشأ الطاو .

---

(١) ـ البوذا تاثاكاتا .
(٢) ـ تشنغ ، المني ، هو العنصر المذكر ، تْشي ، النفْس ، طاقة النَفَس ، هو العنصر المؤنث المتلقي .

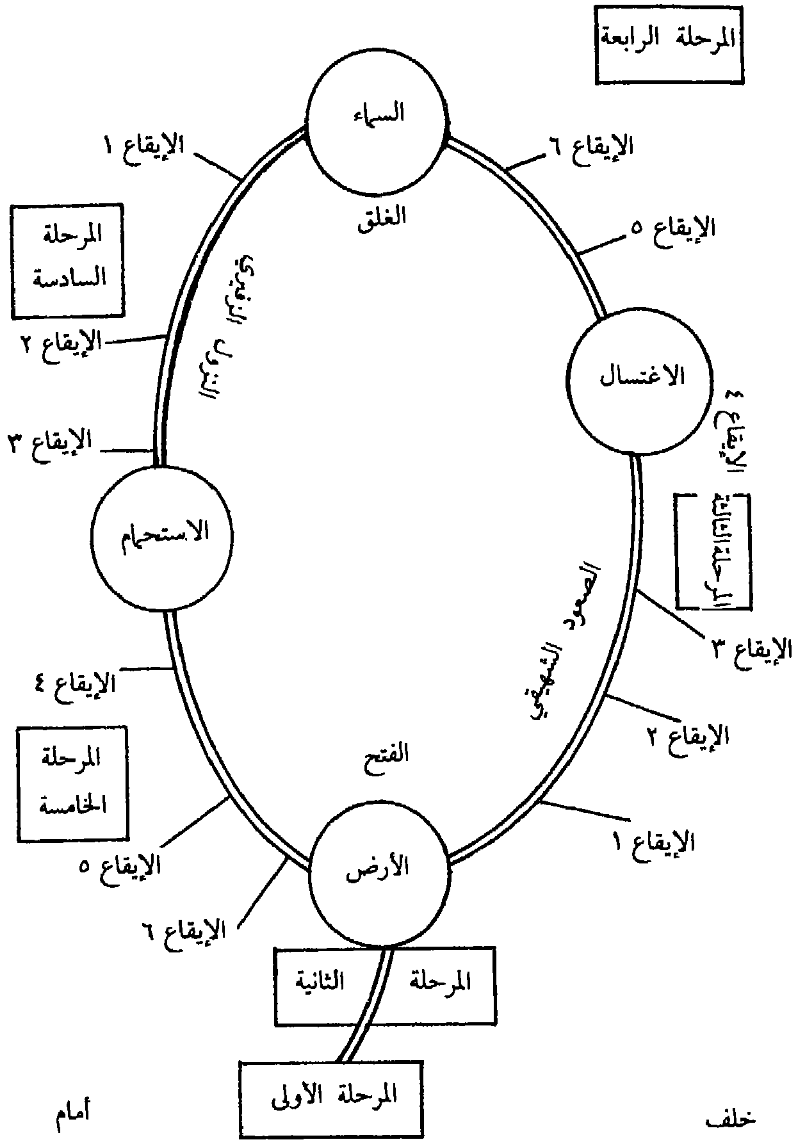
ان هذا هو السبب الذي جعل جميع الحكماء يبدؤون عملهم بالحويصلة الأصلية التي ينقطع فيها الدفق الى الخارج . فاذا لم ترسخ قدمنا في هذا الطريق ، وباشرنا أشياء أخرى ، فلا جدوى . ولذلك لا تستطيع جميع المدارس والفِرق التي تجهل ان مكان المبدأ السائد في الوعي والحياة هو هذه الحويصلة ، ثم تسعى تبعاً لذلك للبحث عنه في العالم الخارجي ، لا تستطيع أن تحقق شيئاً بالرغم من كل الجهود التي تبذلها للعثور عليه في الخارج .

٢ . مراحل الدوران الست طبقاً للناموس

لو نميّز بداية درْب البوذا ،
لوجدنا مدينة الغرب المباركة .
بعد الدوران طبقاً للناموس ،
ثمة التفات الى الأعلى نحو السماء عندما نأخذ النَفَس الى الداخل .
عندما يطلع النفس الى الخارج تتجه الطاقة الى الأرض .
حقبة زمن واحد مكوّن من ست مراحل .
في مرحلتين نصل الى «موني» (سكياموني) ،
الطاو العظيم ينبثق من المركز .
لا تبحث عن الحبّة البذئية في الخارج .

أعجب آثار الطاو هو الدوران طبقاً للناموس . وما يجعل الحركة لا تتوقف هو الدرب . وخير ما ينظم الحركة هو الإيقاعات (كواي) . وخير ما يعيّن عدد التمارين هو أسلوب المراحل (هو hou) .

ان هذا البيان يحتوي على الناموس كله ، اذ تدخل فيه الملامح الحقيقية للبوذا الآتي من الغرب . والأسرار الداخلة فيه تبين لنا كيف نتحكم بسياق الزفير



المرحلة الرابعة
السماء
الإيقاع ١
الإيقاع ٦
الغلق
الإيقاع ٥
المرحلة السادسة
النزول الزفيري
الإيقاع ٢
الاغتسال
الإيقاع ٤
الإيقاع ٣
المرحلة الثالثة
الاستحمام
الصعود الشهيقي
الإيقاع ٣
الإيقاع ٤
الإيقاع ٢
الفتح
المرحلة الخامسة
الإيقاع ١
الأرض
الإيقاع ٥
الإيقاع ٦
المرحلة الثانية
المرحلة الأولى
أمام
خلف

والشهيق ، وكيف يعبر عن نفسه التناوب بين النقصان والزيادة في الغلق والفتح ، وكيف نحتاج الى الأفكار الصحيحة لكيلا نحيد عن الطريق ، وكيف يتيح لنا رسمٌ ثابتٌ لحدود الأقاليم أن نبدأ وأن نتوقف في الوقت الصحيح .

اني أضحي بنفسي في سبيل الإنسان ، لأني عرضت هذه الصورة التي تكشف عن الحبّة السماوية ، بغية ان يستطيع كل إنسان من العامة وكل إنسان في العالم أن يصل اليها ويصل بها الى التمام . ان من تُعوزه الفضيلة الحقة قد يجد شيئاً فيها ، لكن السماء لن تمنحه الطاو . لماذا ، لا ؟ لأن الفضيلة هي من الطاو ما هو أحد جناحي طائر من الآخر . ولذلك نحن بحاجة الى الولاء والاحترام ، والإنسانية والعدل ، والتمسك الشديد بالوصايا الخمس[1] ، عندئذٍ فقط نأمل بالوصول الى شيء .

لكن جميع اللطائف والأسرار المقدمة في هذا الكتاب ، كتاب الوعي والحياة ، يجب ان نفكر فيها ونزنها جيداً ، حتى نستطيع الوصول الى كل شيء في حقيقته .

ان المراد من الرسم المتقدم هو إظهار جريان ينابيع الطاقة في أثناء حركة التنفس . فالشهيق يصحبه ضمورُ البطن ، والزفير بروزُها : لكن النقطة الأساسية في هذه التمارين هي أن نوفر حركة الدفق الرجعي على النحو التالي : عندما نستنشق نفتح مدخل الطاقة الأسفل ، ونتيح للطاقة ان ترتفع الى الأعلى على امتداد مؤخرة خط الطاقة (في النخاع الشوكي) . ويتوافق هذا الدفق الى الأعلى مع المراحل الزمنية المشار اليها في الرسم . وفي الزفير يغلق المدخل الأعلى ويُتاح لينبوع الطاقة ان يدفق الى الأسفل على امتداد خط المقدمة ، كذلك وفقاً لترتيب المراحل الزمنية المشار اليها : زد على ذلك اننا يجب أن نلاحظ ان محطتي الاغتسال والاستحمام لا تقعان تماماً في وسط الخطوط ، بل يقع «الاغتسال» الى الأعلى قليلاً و«الاستحمام» الى أسفل من الوسط قليلاً ، كما يبين الرسم .

---

(١) ـ الوصايا الخمس في البوذية هي : لا تقتل ، لا تسرق ؛ لا تزْن ؛ لا تكذب ، لا تشرب ولا تأكل اللحم .

٣ . طريقان للطاقة أحدهما للفعل والثاني للسيطرة

هناك حيث يظهر طريق الشهيق والزفير في المجاز البْدئي .
لا تنْس الطريق الأبيض فيها دون الدوران طبقاً للناموس !
دعْ دائماً كهف الحياة الأبدية يتغذى في النار !
وي ! اختبر المكان الخالد حيث الدرّة المتلألئة !

في النص رسم آخر هنا شبيه جداً بالرسم الأول . وهو أيضاً يبين طريقين للطاقة : اولهما أمامي ويؤدي الى الأسفل ، ويسمى طريق الفعل (جن Jen) والثاني خلفي ويؤدي الى الأعلى ، وهو طريق السيطرة (تو tu) .

الرسم هو في الواقع نفس الرسم الذي تقدمه . والغرض من رسمي له ثانية ان يعرف من يسعى الى بلوغ «الطاو» ان في جَسَد نفسه دوراناً طبقاً للناموس . ولقد اعددْت هذا الرسم بغية تنوير الصحب الساعين الى بلوغ الهدف . وعندما يتصل الطريقان (طريقا الفعل والسيطرة) برابطة لا تنفصم ، ينضم جميع طرق الطاقة بعضها الى بعض . ينام الغزال وأنفه على ذيله لكي يسدّ طريق طاقة السيطرة . والكركي والسلحفاة يسدّان الطريق امام طاقة الفعل . ومن هنا تعيش هذه الحيوانات الثلاثة ما لا يقل عن ألف سنة . كم يستطيع الإنسان أن يعيش أكثر ! الإنسان الذي يسعى الى بلوغ «الطاو» ويحرك الدورة طبقاً للناموس ، بغية ان يدع واعية وحياته تدور لا حاجة به الى الخوف من الاّ تطول حياته ، والاّ يكمل طريقه .

٤ . جنين الطاو

طبقاً للناموس ، لكن بدون إرهاق ، على المرء أن يسعى
جاداً لملء نفسه بالنور
أن ينسى الظاهر ، وينفذ الى الباطن ويعين القوة

الروحية الحقيقية !
عشرة أشهر يظل الجنين تحت النار .
بعد عام تصبح المغتسلات والمستحمّات دافئة .

الرسم المبين هنا يتفق مع الرسم المشار اليه برقم (٢) (١)

نجد هذا الرسم في الطبعة الأصلية من (لانغ - ين - تشنغ) . لكن جهلة الرهبان الذين لم يدركوا المعنى الخفيّ ، ولم يعرفوا شيئاً عن جنين الطاو ، اخطؤوا اذ تركوا هذا الرسم في الخارج . لم أعرف الا من الشروحات التي كتبها الشيوخ ان «الجولاي» (تاتاكاتا) كان يعرف العمل الحقيقي على جنين الطاو . هذا الجنين ليس شيئاً جسديّا منظوراً يمكن أن تكمله أشياء أخرى ، بل هو ، في الحقيقة ، طاقة النَفَس الروحية الموجودة في الأنيّة (ego) . يجب أولاً أن تشيع الروح في طاقة النَفَس (النفْس) ، ثم تقوم طاقة النَفَس بتغليف الروح . وعندما تتحد طاقة النَفَس مع الروح اتحاداً وثيقاً ، وتهدأ الأفكار وتسكن ، إن هذا يوصف بالجنين ، يجب أن تتجمع طاقة النَفَس ، وعندئذٍ فقط تصبح الروح فاعلة . لذلك يقال في (لانغ - ين - تشنغ) ؛ «ابذل عناية الأم في الاستيقاظ والاجابة» . الطاقتان تغذّي احداهما الأخرى وتشدّ أزرها . ولذلك يقال : «ويحدث نموّ يوميّ» ، عندما تشتد الطاقة تماماً ، ويستدير الجنين ويكتمل ، يخرج من سَمْتَ الرأس . ان هذا يسمى : المظهر المكتمل الذي ينبثق جنيناً ويلد نفسه ابناً للبوذا .

٥ . مولد الثمرة

خارج الجَسَد جَسَدٌ يسمى صورة البوذا

(١) ـ هذه الملاحظة التوضيحية والأربع المماثلة لها فيما يلي هي مما أعده هلموت ويلهلم (ك . ف . ب) .

الفكرة اني هي فكرة قوية ، غياب الأفكار ، هي بوذي
زهرة اللوتس ذات الألف تُوَيج تنفتح ، تتحول من خلال طاقة النَفَس
بسبب تَمّع الروح ، مائة ضعف من الروح يُشع ضياءً

الصورة التي تتعلق بهذا الموضوع هي المشار اليها برقم (٣)

في (لانغ - ين - تشو)[١] ، يقال : «في ذلك الوقت جعل ملك العالم مائة ضعف من النور الثمين يشع من جدائل شعره . في وسط النور أشعت زهرة اللوتس ذات الألف تويج . «في قلب الزهرة جلس من تحول الى جولاي . ومن سمْت رأسه انبثقت أشعة من نور ثمين أبيض ، كانت مرْئية في كل مكان . نظر الجمهور الى النور المنبثق فأعلن الجولاي : «المانترا السحري الإلهي هو مظهر روح النور ، ولذلك كان اسمه ابن بوذ» .

اذا لم نتلق التعليم عن الواعية والحياة ، واكتفينا بترداد صيغ التأمل ببلادة حس ، لا يمكن أن يطلع من جسدنا الجولاي ، الذي يجلس في زهرة اللوتس ويشع نوراً ويظهر في جسدنا الروحي . يقول كثيرون أن تعليم روح النور أمر ضئيل الأهمية . لكن ، أيكرن ضئيل الأهمية ما يتلقاه الإنسان من ملك العالم ؟ بهذا اكون قد فضحت أعمق أسرار (لانغ - ين) لكي أعلّم التلاميذ . ان من يتلقى التعليم بهذه الطريقة يرتفع رأساً الى السر المظلم ولا يعود ينغمس في رغام الحياة اليومية .

٦ . بخصوص الاحتفاظ بالجَسَد المتحول

كل فكرة منفصلة تتخلّق وتصبح مَرْئية لوناً وشكلاً
القوة الروحية الكليا تكشف عن آثارها وتتحول الى فراغ

---

(١) - سورام غاما مانترا (هـ . و) .

عندما نخرج من الكينونة وندخل في العدم نتمم الطاو العجائبي
جميع الأشكال المنفصلة تبدو كالأجساد ، متحدة بمصدر حقيقي

الصورة التي تتعلق بهذا الموضوع هي المشار اليها برقم (٤)

٧ . الوجه الدائر الى الحائط

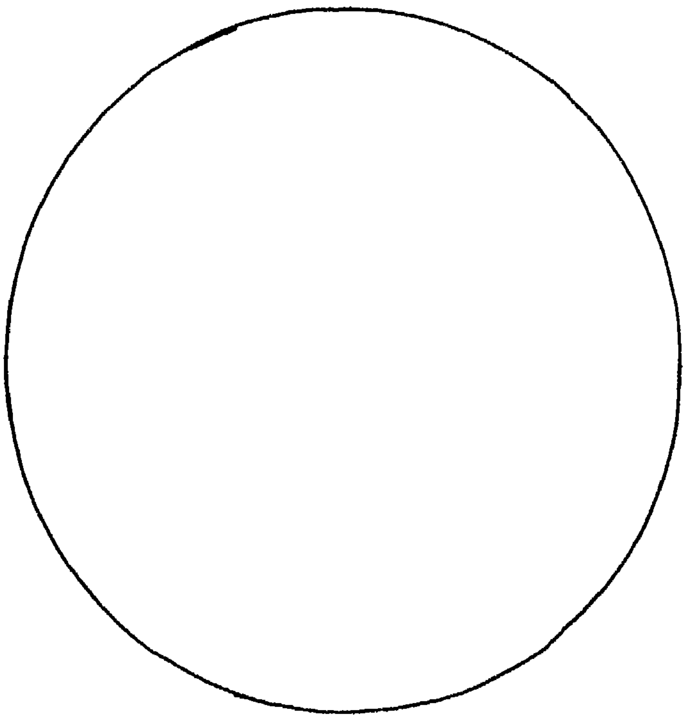
الأشكال التي شكّلتها نار الروح ما هي الا ألوان وأشكال فارغة .
نور الطبيعة البشرية [هْسِنغ] ينعكس على النور البدئي ، الحقيقي .
مُرْتسم القلب يطفو في الفراغ ؛ صافياً يشع ضوء القمر .
قارب الحياة يصل الى الشاطىء ؛ ساطعاً يشع نور الشمس .

الصورة التي تتعلق بهذا الموضوع هي المشار اليها برقم (١)

٨ . اللانهاية الفارغة

بلا بداية ، ولا نهاية ،
بلا ماض ، ولا مستقبل .
هالة من نور تحيط بعالم الناموس .
ينسى أحدنا الآخر ، ساكناً وصافياً ، كلنا شديد القوى ، وكلنا فارغ
الفراغ يُضيئُه نور القلب والسماء
ماء البحر أملس ومرايا القمر على سطحه .
السحب تتلاشى في الفضاء الأزرق ؛ الجبال تشع وُضّاءة .
الواعية تعود الى التفكر ؛ قرص الشمس يستريح وحيداً .

الصورة التي تتعلق بهذا الموضوع هي هذه الدائرة :



شرح ك . غ . يونغ

على
كتاب «سـر الزهـرة الذهبية»

المدخل

١ . صعوبات تواجه الأوروبي عندما يحاول أن يفهم الشرق

لا بد لي الا أن أتأثر تأثراً عميقاً ، وأنا الغربي المشاعر من كل وجه ، بما انطوى عليه هذا النص الصيني من غرابة . صحيح ان شيئاً من المعرفة بالأديان والفلسفات الشرقية يساعدني فكراً وحَدْساً على فهم الأفكار التي اشتمل عليها الى حد معين ، مثلما يساعدني علم الإنتولوجيا وتاريخ مقارنة الأديان على فهم تناقضات المعتقدات البدائية . والحق ان هذه هي طريقتنا ، نحن الغربيين ، عندما يعمد أحدنا الى إخفاء قلبه تحت قفطان ما ندعوه بالفهم العلمي . وإننا لنفعل ذلك لسبب يرجع بعضه الى «غرور العلماء البائس» ، الذي يخاف من كل علامة على مشاركة وجدانية وينبذها مذعوراً ، ويرجع بعضه الى أن الفهم الوجداني قد يجعل من اتصالنا بروح غريبة خبرة خطرة . ان ما ندعوه بالموضوعية العلمية خليق بأن يحفظ هذا النص للعالمين بالصينيّات وتدقيقهم الفيلولوجي ، وأن يصونه غيرةً عليه من كل تفسير آخر . لكن ريتشارد ويلهلم ، وهو الذي توغّل فيما اشتملت عليه حكمة الصين من

أسرار وحيوية غامضة ، كان أعمق من أن يسمح لهذه الدرّة الثمينة من النفاذ الحدسي ان تُغَيب في وكنات أرباب الاختصاص . ولقد شرّفني أن يقع اختياره عليّ لكي أتولى شرحه سيكولوجياً .

غير أن هذا يفضي بنا الى خطر ابتلاع اختصاص علمي آخر (وهو علم النفس) لهذا الكنز الفريد . ومع ذلك فإن كل من ينتقص من مزايا العلم والبحث الغربيين فإنما يقوض الدعامة الأساسية التي ينهض عليها العقل الأوروبي . صحيح ان العلم ليس بالأداة الكاملة ، لكنه أداة فائقة ولا غنى عنها ، ولا ضرر منه الا عندما نعتبره غاية في ذاته . المنهج العلمي يجب أن يخدمنا ؛ لكنه يضلّ عندما يغتصب العرش . ويجب أن يكون مستعداً لأن يخدم جميع فروع العلم ، لأن كل فرع من هذه الفروع بسبب ما فيه من نقص يحتاج الى دعم من الفروع الأخرى . العلم أداة العقل الغربي ، بها يستطيع أن يفتح أبواباً أكثر مما يستطيع أن يفتحه باليد المجردة . انه جزء لا يتجزأ من معرفتنا ، وهو لا يُعمي بصيرتنا الا عندما نعتقد أن الفهم الذي أمدّنا به هو الفهم الوحيد الموجود . أما الشرق فقد علّمنا فهماً آخر ، فهماً أوسع وأعمق وأعلى مرتبة ، أعني به ، الفهم من خلال الحياة . اننا نعرف هذه الطريقة ، لكن بصورة غامضة ، بما هي مجرد مشاعر ظليلة تخيّرناها من المصطلح الديني ؛ ولذلك نتخلص مسرورين من الحكمة الشرقية بعلامات الاقتباس ، وننفيها الى بلاد الإيمان والخرافة الغامضة. لكننا بذلك نُسيء كلّياً فهم «واقعية» الشرق. فهذا النص، مثلاً، لا يتألف من مشاعر مبالغ فيها ، أو من حدْس صوفي فائق الصنع ، متاخم للمرض النفسي ، أو صادر عن هَوَس الزهّاد والنسّاك . بل يقوم على البصيرة العملية التي بلغتها العقول الصينية في مرقاة تطورها ، وليس لنا أدنى مبرر للانتقاص منها .

ربما بدا هذا التوكيد جريئاً ، وهو خليق بأن يُقابل بالنكران ؛ لكنه لا يبعث على العجب عندما ننظر الى قلة معلوماتنا عن الموضوع . زد على ذلك ان غرابة الموضوع لتستوقفنا حتى لتغدو حيرتنا من البحث ، كيفيّة وجهة ، عن إمكان انضمام عالم الفكر الصيني الى عالمنا امراً مفهوماً . عندما يواجه الغربي بمشكلة فهم أفكار

الشرق ، يكون خطؤه المعتاد كخطأ التلميذ في «فاوسْت» . أضلّه الشيطان ، فأدار ظهره الى العلم احتقاراً ، وأذهلتْه عن نفسه عوالم الخفاء الشرقية ، واتخذ رياضة اليوغا بصورة حرفية ، حتى أضحى مقلداً يستثير الشفقة . (الثيوسوفية خير مثال على هذا الخطأ). ولذلك يهجر الأساس الامين الذي قام عليه العقل الغربي ، ويضيع في ضباب الكلمات والأفكار التي ما كانت لتجد لها في العقل الأوروبي أصلاً ، ولا يمكنها أبداً ان تُطعم به .

قال أحد قدماء الشيوخ : اذا استخدم الرجل غير الصحيح أدوات صحيحة ، تعمل الأدوات الصحيحة بطريقة غير صحيحة . هذه الحكمة الصينية ، الصحيحة تماماً لسوء الحظ ، تقف على الطرف النقيض من إيماننا بالمنهج الصحيح ، بصرف النظر عن الإنسان الذي يطبقه ، والحق انه في هذه المسائل يتوقف كل شيء على الإنسان ، ولا يتوقف شيء ، أو لا يتوقف الا قليلاً ،على المنهج . ذلك لأن المنهج ما هو غير الطريقة ، او الوجهة التي يتخذها الإنسان . فالطريقة التي يعمل بها هي التعبير الحقيقي عن طبيعته . فإذا لم تعد كذلك ، لم يكن المنهج أكثر من تكلف ، أو شيء أضيف اليه بصورة صُنعية ، لا جذور له ولا نَسْغ ، ولا يفيد الا باعتباره هدفاً غير مشروع لخداع النفس . وعندئذٍ يصبح وسيلة لكي يخادع الإنسان نفسه ، وللتهرب مما قد يكون قانون وجوده الصارم . ان هذا ينقلنا بعيداً عن النوعية والإخلاص الذي يتميز به الفكر الصيني المولود من الأرض ، على العكس ، انه نكران وجود الإنسان لنفسه ، وخيانة للنفس لمصلحة آلهة غريبة وغير نظيفة ، وخدعة جبانة بغرض انتزاع التفوق النفسي ؛ والحق ان كل شيء يتناقض تناقضاً عميقاً مع معنى «المنهج» الصيني . لأن هذه الرؤى نتجت عن طريقة في الحياة كاملة وأصيلة وحقيقية بالمعنى الأتمّ ؛ رؤى آتية من حياة الصين الثقافية القديمة ، وهي حياة نشأت ونمت ثابتةً ومتماسكة عن أعمق الغرائز ، وهي بعيدة عنا ومتعذرة على المحاكاة .

التقليد الغربي للشرق مأساويّ ضِعْفين من حيث إنه مُتَأتٍّ من سوء فهم غير سيكولوجي ، وعقيم عقم الأعمال الطائشة الحديثة التي نقوم بها في «الطاو» ،

والجـزر السعيدة في بحـر الجنوب ، وافريقيا الوسطى ، حيث تُمثِّل البدائية بتلهف في لحظة يتهرب فيها الإنسان الغربي من واجباته التي تتهدده . المسألة ليست مسألة أن نقلّد ، او ما هو أسوأ من التقليد ، أن نصبح مبشرين بما هو غريب عنا عضوياً ، بل مسألة أن نشيّد ثقافتنا الغربية التي تعاني من ألف مـرض . هذه الثقافة يجب أن نشيدها ميدانياً . ويجب أن يقوم بها الاوروبي الحقيقي كما هو في شؤونه العادية ، ومشكلاته الزوجية ، وأمراضه العصابية ، وأوهامه الاجتماعية والسياسية ، وفي توجهاته الفلسفية الخاطئة بكاملها .

ولعلنا نُحسن صنعاً لو نعترف على الفور بأننا لا نفهم هذا الانقطاع التام عن العالم الذي يدعو إليه هذا النص ، لا بل لو نعترف بأننا لا نـريد أن نفهمه . هل لدينا ، ربما ، ادنى فكرة عن أن موقفاً عقلياً يوجه النظـر الى العالم الداخلي الى هذا الحد يستطيع أن يحقق مثل هذا الانقطاع لمجرد أن هؤلاء الناس قد لبّوا مطالبهم الغريزية التي تطالبهم بها طبائعهم تلبية كاملة ، بحيث لا يمنعهم الا القليل ، أو لا يمنعهم شيء أبداً ، عن رؤية جوهر العالم غيـر المـرئي ؟ هل يمكن ، ربما ، أن يكون تحررهم من المطامح والأهواء التي تقيدنا الى العالم المـرئي مقدمة لهذه الرؤية ، وألا يكون هذا التحـرر ناتجاً عن تلبية حسية لهذه المطالب الغـريزية بأكثر مما يكون ناتجاً عن كبت قسري لها أو خوف فطري منها ؟ هل صحيح أن عيوننا لا تنفتح على الـروح الا عندما نطيع نواميس الأرض ؟ كل من يعـرف تاريخ الثقافة الصينية ، ويدرس بعناية كتاب الـ «آي ـ تشنغ» ، وهو الكتاب الذي ظل الفكـر الصيني مشبعاً به على مدى آلاف السنين ، لا يمر بهذه الأفكار مرّ الكرام ، بل سوف يعرف زيادة على ذلك ان هذه الآراء المبينة في النص الذي بين ايدينا ليست آراء خارقة للعادة من وجهة النظـر الصينية ، بل هي فعلاً نتائج سيكولوجية لا مفـر منها .

في ثقافتنا المسيحية ، ظلت الـروح والعاطفة الـروحية ردحاً طويلاً من الزمن وهي تمثل لنـا أعظم القيم وأجدر الأشياء بالسعي وراءها . وما هو الا ان انهارت العصور الوسطى ، أي في مجـرى القرن التاسع عشر ، عندما بدأت الـروح تنحطّ

الى العقل ، حتى حدث الرجْع (= رد الفعل) على الطغيان الذي لا يطاق المتمثل بالمذهب العقلي . صحيح ان هذه الحركة ارتكبت في بادىء الأمر خطأ مغفوراً حين خلطت بين العقل والروح ، وراحت تنحي باللائمة على هذه الأخيرة ناسبة اليها ذنوب العقل . والحق أن العقل قد أضرّ بالروح عندما تجرأ وانتزع لنفسه ميراث الروح . فهو غير مؤهل لأن يفعل هذا بأي طريقة من الطرق ، ذلك بأن الروح شيء أعلى من العقل ، لا من حيث اشتمالها على العقل وحسب ، وإنما على المشاعر أيضاً . انها اتجاه الحياة او مبدؤها الذي يسعى الى بلوغ الأعالي المضيئة التي تتجاوز الحد البشري . وفي مقابلها، يقف المبدأ المؤنث (ين) ، المظلم ، المقيد الى الأرض ، بما فيه من انفعالية وغريزية ترجعان الى أعماق الزمان ، والى جذور الاستمرارية الفيزيولوجية . لا شك أن هذه المفاهيم ناشئة عن نفاذ حدْسي من البصيرة ، ولا نستطيع الاستغناء عنها اذا أردنا أن نفهم الطبيعة البشرية . الصين لم تستطع الاستغناء عنها لأنها ، كما يبين لنا ذلك تاريخ الفلسفة الصينية ، لم تذهب قط بعيداً عن الحقائق النفسية المركزية بحيث تضيع في فرْط نموّ أُحاديّ أو فرْط تقويم لوظيفة نفسية واحدة . ولذلك ما أخفق الصيني قط في التعرف على المتناقضات والقطبية الكامنة في كل ما هو حيّ . الأضداد يوازن بعضها بعضاً دائماً ـ انها علامة على ثقافة عالية . أما الأحادية ، وإن كانت تَهَبُ عزماً ، فعلامة على بربرية . والرجع الذي بدأ الآن في الغرب بالرد على العقل لصالح الشعور ، أو لصالح الحدْس ، يبدو لي علامة على تقدم ثقافي ، وعلى اتساع للواعية الى ما وراء حدود العقل الذي أفرط في استبداديته .

لا أريد أن أقلّل من شأن تمايز العقل الغربي ، الذي لو قيس بالعقل الشرقي لبدا هذا الأخير طفلاً (واضح أن هذا لا علاقة له بالذكاء) . لو نوفّق في رفع وظيفة نفسية أخرى ، او حتى ثالثة ، الى المنزلة التي نوليها للعقل ، اذن لتوقعنا من الغرب أن يتخطى الشرق بهامش كبير . ولذلك يحزننا أن يتخلّ الأوروبي عن طبيعته ويعمد الى تقليد الشرق او «يتكلفه» بكل وسيلة . ولعل الإمكانيات المفتوحة أمامه

كانت أعظم بكثير لو أنه ظل صادقاً مع نفسه وطوّر في طبيعته الخاصة كل ما جاء به الشرقي نابعاً من كينونته الداخلية على مرّ القرون .

عموماً ، لو نظرنا الى الأشياء التي يمنحها الشـرق قيمة عالية من وجهة نظر العقل الخارجية التي لا شفاء لنا منها ، لبدت لنا أموراً لا نرغب فيها . العقل وحده لا يستطيع ابتداءً أن يقدر الأهمية العملية التي قد تتمتع بها الأفكار الشرقية بالنسبة لنا ، وهذا ما يجعلنا نصنفها تحت باب الغرائب الفلسفية والاتنولوجية ولا شيء أكثر من ذلك . ان افتقارنا للإحاطة والفهم يذهب بنا بعيداً الى حد أن العلماء المختصين بالثقافة الصينية لم يفهموا التطبيق العملي لكتاب (آي تشنغ) ، فاعتبروه مجموعة من التعويذات السحرية المبهمة .

٢ . علم النفس الحديث يتيح إمكانية الفهم

ان ما دوّنته من ملاحظات في أثناء ممارستي المهنية فتح لي آفاقاً جديدة لفهم الحكمة الشرقية لم تكن متوقعة من قبل . لكن يجب أن يكون مفهوماً جيداً انني لم أكن أعرف ، ولو معرفة ضئيلة ، شيئاً عن الفلسفة الصينية كنقطة ابتداء . على العكس ، عندما بدأت حياتي العملية في ممارسة الطب والعلاج النفسيين ، كنت اجهل جهلاً تاماً كل شيء عن الفلسفة الصينية . ولم تُظهر لي خبرتي المهنية الا في وقت لاحق انني كنت في تقانيّتي مقوداً من حيث لا أدري للسيـر على الطريق السـرّي الذي ظل الشغل الشاغل لخيرة العقول في الشـرق على مـرّ القرون . ولعل هذا كان يعتبر من قبيل الولوع بالذات ، وقد كان هذا في جملة أسباب عزوفي عن نشـر شيء عن الموضوع ، الى ان جاء يوم التقيت فيه ريتشارد ويلهلم ، ذلك المفسر العظيم للنفس الصينية ، فأكد لي التوازي تأكيداً تاماً . وبذلك منحني الشجاعة على الكتابة عن النص الصيني الذي يرجع كلّيةً الى الظلال الخفية من العقل الشـرقي وفـي نفس الوقت ، وهذا هو الشيء الخارق للعادة ، كان في محتواه موازياً حياً لما يحدث في النمو النفسي لدى مرضاي ، الذين لم يكن ولا واحد منهم صينياً .

ولكي أجعل هذه الحقيقة الغـريبة مفهومة للقارىء ، يجب علي أن أشيـر الى انه كما ان الجسم البشـري يُبدي عن صفات تشريحية مشتـركة تتجاوز الفـروق العـرقية ، كذلك تمتلك النفس طبقة سفلية تتعدى جميع الفروق في الثقافة والوعي . ولقد دعوت هذه الطبقة السفلية الخافية الجامعة Collective Unconseious . هذه النفس الخافية ، المشتـركة بين النوع البشـري ، لا تتكون من مجـرد محتويات قابلة للصيـرورة في الواعية ، بل من استعدادات كامنة للقيام بـرجوعات (= ردود أفعال) معنية متماثلة . وبذلك تكون حقيقة الخافية الجامعة مجرد تعبير عن وحدة البنية العقلية بصـرف النظـر عن جميع الفروق العـرقية . وهذا يفسـر الشبه ، وأحياناً الوحدة ، بين مختلف الموضوعات الـرئيسية التي انطوت عليها الأساطير والـرموز وإمكانية الكائنات البشـرية للتفاهم فيما بينهم . ان مختلف خطوط التطور النفسي تبدأ من أرومة مشتـركة ترجع جذورها الى جميع طبقات الماضي . ان هذا يفسـر أيضاً المتوازيات السيكولوجية مع الحيوانات .

معنى ذلك ، من الناحية السيكولوجية البحتة ، ان البشـرية كلها تشتـرك في غريزتي التخيل والفعل . فكل تخيل وفعل شعوري انما يتطور على أساس من الصور البدئية غير الشعورية ، ويظل مـرتبطاً بها دائماً . وتكون هذه هي الحال خصوصاً عندما تبلغ الواعية درجة عالية من الوضوح ، أي عندما تعتمد في جميع وظائفها على الغـرائز أكثـر من اعتمادها على الإرادة الواعية ، وعندما تحكمها العاطفة أكثـر مما يحكمها الاستنتاج العقلي . هذه الحال تضمن للنفس صحة بدائية ما تلبث أن تصبح نقصاً في التكيف ما إن تنشأ ظـروف تتطلب جهداً معنوياً أكبـر . الغـرائز لا تكفي غير الإنسان الذي يفتـرش الطبيعة التي تبقى دائماً هي هي في مجملها . ولذلك يميل الإنسان الذي تقوده الخافية (= اللاشعور) أكثـر مما يقوده الخيار الواعي ، يميل الى محافظة نفسية محددة . وهذا هو السبب الذي يجعل البدائيين لا يتغيـرون على مدى آلاف السنين ، وهو أيضاً السبب الذي يجعلهم يخافون كل شيء غـريب وخارج عن المألوف . فقد يؤدي بهم الى سوء تكيّف ، وبالتالي الى أشد المخاطـر النفسية ، الى نوع من العصاب في الحقيقة . أما الواعية الأعلى والأوسع ، التي لا تأتي الا نتيجة

لتمثل غير المألوف ، فتميل الى الاستقلال ، والثورة على الآلهة القديمة التي ما هي الا الصور البدْئية القوية العاملة في الخافية التي ما برحت تستبعد الواعية .

كلما قويت الواعية واستقلت ، وأصبحت معها الإرادة الواعية كذلك ، اضطرت الخافية الى الانكفاء الى الخلف . عندما يحدث هذا ، يسهل على البنى الواعية أن تنفصل عن النماذج البدْئية الخافية . بهذه الحرية المكتسبة ، تحطم الواعية قيود مجرد الغريزية وتصل في النهاية الى حالة حرمان من الغريزة أو مضادة لها، فتنفصل عن جذورها ولا نعود قادرة على الاستجابة لسلطان الصور البدْئية . صحيح أنها تنال حرية بروميثيوس ، لكنها تكتسب غروراً شيطانياً . والحق انها تحلّق فوق الأرض ، بل حتى فوق البشرية ، لكن خطر الانقلاب الى الطرف المضاد ماثل ثمة ، لا بالنسبة للأفراد بل بالنسبة لجميع الأعضاء الضعفاء في مثل هذا المجتمع ، ما يلبثون أن يعودوا ثانية الى وضعية بروميثيوس ، مصفدين بالاغلال الى جبال القوقاز من قبل الخافية . لمثل هذه الحالة تقول الحكمة الصينية في كلمات الـ (آي تشنغ) : «عندما يبلغ يانغ (النور) أقصى قوة له ، تولد في أعماقه قوة ين المظلمة ، ذلك بأن الليل يبدأ في الظهيرة ، عندما يتشقق يانغ (النور) ويبدأ بالتحول الى ين (الظلام)» .

ان الطبيب في وضع يسمح له أن يرى هذه التقلبات تحدث حرفياً في الحياة ، فهو يرى ، مثلاً ، رجل أعمال ناجحاً يحقق جميع طموحاته غير عابىء بالأخطار ، ثم ما يلبث بعد أن يتوقف عن النشاط وهو في ذروة نجاحه حتى يقع فريسة للعصاب الذي يحيله الى امرأة عجوز دائمة الشكوى والتذمر، ويقيده الى فراشة ، ويحطمه نهائياً . ان الصورة لهي من التمام بحيث يتحول فيها موقف مذكر من الحياة الى موقف شبه نسْوي . ان الموازي التام لهذه الحالة اسطورة نبوخذ نصر في سفر دانيال ، والجنون القيصري عموماً . ان احوالاً مماثلة للمغالاة الأحادية في المنطلق الواعي، وما يناسبه من رجع «ين» يأتي من قبل الخافية ، لا تشكل جزءاً صغيراً من ممارسة أطباء النفس في زماننا هذا الذي أفرط في تقدير قيمة الإرادة الواعية الى حد الإيمان بأنه «حيثما وجدت إرادة» فثمة طريق ، لا أريد بذلك الانتقاص مما

للإرادة الواعية من قيمة معنوية على الإطلاق ، فقد تظل الواعية في نظـرنا اعلى الإنجازات الثقافية التي حققتها البشـرية . لكن ، ما فائدة قوة معنوية تحطم الكائن البشـري ؟ يبدو لي أن تشييد علاقة منسجمة بين الإرادة والقدرة خير لنا من السعي وراء قوة معنوية بأي ثمن الذي ما هو الا علامة على بربرية ، وخير من ذلك كله الحكمة في أغلب الأحيان . لكنني ربما انظر الى هذا الأمر من خلال عدسة الطبيب الذي عليه أن يبرىء من العلل التي تحدث على اثـر إنجاز ثقافي مبالغ فيه .

مهما يكن من أمـر ، وفي كل الأحوال ، تظل الحقيقة الثابتة هي اننا عندما نبالغ في الإعلاء من شأن الواعية نتيجة لأحادية ضـرورية ، تبتعد الواعية عن النماذج البدْئية archetypes بعداً شديداً تفقد معه كل اتصال بها حتى ليعقب ذلك انهيار لا مفر منه . لكن ، قبل مدة طويلة من وقوع الكارثة ، تعلن علامات الخطأ عن نفسها متمثلة في غياب الفطرٓ ، وفي العصبية (النرفزة) ، وسوء التوجه ، والتورط في أوضاع ومشكلات مستحيلة . وعندما يبدأ الطبيب بالبحث ، يجد خافية تتمرد تماماً على قيم الواعية ، ربما لا تستطيع الواعية أن تتمثلها تبعاً لذلك ؛ بينها العكس خارجاً كلياً عن الموضوع ، بطبيعة الحال . عندئذٍ نكون أمام نزاع لا يمكن تسويته ظاهرياً ، ولا يستطيع العقل البشري أن يعالجه الا بحلول زائفة أو تسويات مشكوك فيها . واذا لم تثمـر هذه الوسائل ، تواجهنا مسألة وحدة الشخصية التي نحن بأمسّ الحاجة اليها ، وضرورة البحث عنها . هنا نأتي الى الطريق الذي سلكه الشـرق منذ أقدم الأزمنة . من الواضح تماماً أن الصيني مدين بعثوره على هذا الطـريق الى انه لم يستطع قط أن يفسـر الأضداد في الطبيعة البشـرية على ان ينفصل بعضها عن بعض بحيث تفقد كل صلة شعورية فيما بينها . وإنما توفر للصيني مثل هذه الواعية الشمولية ، لأن الأضداد ظلت عند تجاورها الأصلي ، كما هو الحال في العقلية البدائية . ومع ذلك لم يستطع تجنّب الشعور بتصادم الأضداد ، مما حداه الى ايجاد هذه الطـريقة من الحياة التي يستطيع بها أن يتحرر من الأضداد ، وهو ما يسميه الهندوس «نِرْدْبَنْدْبا» .

ان النص الذي بين أيدينا معنيّ بهذه الطريقة ، وهذه المشكلة نفسها هي ما يواجه مرْضاي أيضاً . ولعل من أفدح الخطأ ان يعمد غربي الى ممارسة اليوغا الصينية رأساً ، لأنها تصبح عندئذٍ مسألة وعي وإرادة ، فلا يكون من شأنها غير تقوية واعية على حساب الخافية (= اللاشعور) ، مما ينجم عنه نفس الأثر الذي كان عليه أن يتجنبه . ويكون من شأن ذلك أيضاً أن يتفاقم معه العصاب . لا يكفي أن نؤكد بقوة اننا لسنا شرقيين ، وان لنا - بالتالي - نقطة انطلاق تختلف كلياً فيما يتعلق بهذه الأشياء . كذلك لعل من فادح الخطأ ان تذهب الى أن هذا الطريق هو ما يجب على كل معصوب أن يسلكه ، او أن هذا الحل هو ما يجب أن ننشده في كل مرحلة من مراحل المشكلة العصابية . ان هذا الطريق لا يناسب غير المرضى الذين بلغ منهم نموّ الوعي مبلغ الإفراط ، فابتعدوا عن الخافية الى أكثر مما يجب ان هذه الدرجة العالية من الوعي هي الشرط اللازم الذي لا بدّ منه . لا شيء أفدح خطأ من أن نفتح هذا الطريق للمعصوبين الذين اعتلوا بسبب رجحان في الخافية عندهم في غير محله . لنفس السبب ، هذا الطريق من النمو لا معنى له قبل منتصف العمر (بين سن الثلاثين والأربعين) ، ولو وَلَجْناهُ قبل الأوان ، لأورثنا الأذى لا محالة .

مثلما بينت من قبل ، كان دافعُ البحث عن طريق جديد ما بدا ان المشكلة الأساسية التي تواجه المريض غير قابلة للحل الا بإيذاء جانب آخر من طبيعته ، لقد عملت دائماً بقناعة مزاجية انه ما من مشكلة لا حل لها في الأساس ، وقد سوّغت لي الخبرة هذا الاعتقاد بمقدار ماشاهدت أشخاصاً «نَمَوْا عن» مشكلة كانت سبباً في دمار آخرين ، فلم تدمّرهم . هذا «النموّ عن» ، كما دعوته سابقاً وأثبتت لي الخبرة ، كان قوامه مستوى جديداً من الوعي ، اهتماماً من نوع ما أعلى أو أوسع يطلع في أفق الإنسان ، ومن خلال هذا الاتساع في نظرته تفقد المشكلة العويصة صفة الإلحاح . لم تُحلَّ منطقيا بشروطها هي ، بل خبا أوارها عندما واجهها المريض بميل جديد للحياة أشدّ وأقوى . لم يكبتها المريض ولم تتسرب الى خافيته ، بل كل ما هنالك انها بَدَتْ في ضوء مختلف ، فأصبحت شيئاً مختلفاً فعلاً . على مستوى أدنى . ان ما أدى الى المنازعات البالغة الهمجية والانفجارات العاطفية المذعورة ، منظوراً إليه من

المستوى الأعلى من الشخصية ، بدا الآن كعاصفة في الوادي تُشاهد من أعلى ذروة الجبل . ان هذا لا يعني أن العاصفة الرعدية سُلبت حقيقتها ، لكن بدلاً من أن نكون في قلبها ، نصبح الآن فوقها . لكن بما اننا نحن الوادي والجبل كلاهما من ناحية النفس ، قد يكون من عبث الوهم أن نشعر اننا فوق ما هو بشري . يقيناً اننا نشعر بالادعاء وهو يزلزلنا ويعذِّبنا ، ومع ذلك وفي نفس الوقت نكون على علم بواعية أعلى تمنعنا من التواجد بالادعاء ، فنتعامل معه موضوعياً ، بحيث نستطيع ان نقول : «اعلم اني اعاني» ما يقوله النص الصيني عن الكسل (بين الكسل الذي نشعر به والكسل الذي لا نشعر به مسافة ألف ميل) يصدق أيضاً على أعلى درجات الادّعاء .

في أثناء ممارستي كان يحدث هنا وهناك ان ينمو مريض عن نفسه بسبب امكانات غير معروفة ، ويصبح هذا النمو بالنسبة لي خبرة ذات أهمية من الدرجة الأولى . وكنت تعلمت في غضون ذلك ان اعظم مشاكل الحياة وأهمها هي كلها بمعنى ما غير قابلة للحل . يجب ان تكون هكذا لأنها تعبر عن الاستقطاب الضروري الكامن في كل نظام تعديل ذاتي . لا يمكنها ان تُحلَّ أبداً ، بل يمكن النموّ عنها فقط . لذلك سألت نفسي ان كانت هذه الإمكانية من النموّ ، أي المزيد من النمو النفسي ، ليست هي الشيء الطبيعي ، وأن الشيء المَرَضي هو ـ بالتالي ـ ما ظل عالقاً في نزاع . كل واحد منا يجب أن يمتلك هذا المستوى الأعلى من النمو ، على الأقل في حالة جَنينيّة ، ويجب أن يكون قادراً في ظروف ملائمة على تنمية هذه الإمكانية . ولما فحصت طريقة النمو عند هؤلاء الأشخاص الذين نموا عن انفسهم بصورة هادئة ، كما لو كانت غير شعورية ، رأيت ان اقدارهم كان فيها شيء مشترك . . الشيء الجديد طلع اليهم من الإمكانيات الخفية ، اما من خارج نفوسهم أو من داخلها ؛ قبلوا به وزادوا به نموّاً . ولقد بدا لي شيئاً نموذجياً أن يتناول بعضهم الشيء الجديد من خارج نفسه ، وأن يتناوله بعضهم الآخر من داخلها . لكن الشيء الجديد لم يأتِ قط إما من الداخل أو من الخارج حصراً . فإذا طلع من الخارج ، أصبح خبرة ذاتية بعمق ؛ وإذا طلع من الداخل ، أصبح حادثاً خارجياً . ولم يحدث أبداً لدى مريض أن جيء

بالشيء الجديد بالقصد والإرادة الواعية ، بل كان أكثر ما يبدو أنه يولد في مجرى الزمن .

كثيراً ما نقع تحت اغراء تحويل كل شيء الى قصد ومنهج حتى لقد اعبر عن نفسي عامداً باصطلاحات مجردة جداً لعلّي أتجنب دفع سابق حكم في اتجاه أو آخر . الشيء الجديد يجب ألا نصنفه تحت أي باب ، لأنه عندئذٍ يصبح وصفة تطبق آلياً فتعود القضية قضية «الأداة الصحيحة» بيد الإنسان غير الصحيح . وكنت أعجب أشد العجب من أن الشيء الجديد الذي يقدمه القدر قلما يتفق مع التوقع الواعي ، او انه لا يتفق معه على الإطلاق . وما هو أعجب من ذلك ان الشيء الجديد ، وإن كان يتناقض مع الغرائز العميقة الجذور تناقضاً شديداً ، الا انه كان تعبيراً مناسباً بصورة فذة عن مجمل الشخصية ، تعبيراً لا نستطيع أن نتصور خيراً منه .

ماذا فعل هؤلاء حتى بلغوا النموّ الذي حرّرهم ؟ الى حدّ ما استطعت رؤيته انهم لم يفعلوا شيئاً (Wu Wei) [1] ، بل تركوا الأشياء تحدث ، كما يعلمنا المعلم لو ـ تسو في هذا النص ، النور يدور وفقاً لقانونه الخاص اذا لم يتخلّ المرء عن شغله العادي . ان فن ترك الأشياء تحدث ، الفعل بالامتناع عن الفعل ، أن يترك المرء نفسه على سجيتها ، كما علّم ذلك المعلم اكهارت ، قد أصبح عندي مفتاح الباب الذي يؤدي الى الطريق . يجب أن نكون قادرين على ترك الأشياء تحدث في النفس . الواعية أبداً تتدخل وتساعد وتصحح وتنفي ولا تترك أبداً لسياقات النفس ان يجري نموّها البسيط في سلام . وقد يكون الأمر من البساطة بمكان لو لم تكن البساطة أصعب الأشياء جميعاً . اذن ، فلنبدأ ، تتكون المهمة حصراً من مراقبة موضوعية لفلذة من خيال طليق Fantasy في نموها . لا شيء أسهل من ذلك ، ومع ذلك فإن الصعوبة تبدأ ههنا تماماً . لا فلذة من خيال طليق يبدو انها تظهر ـ او بلى ، تظهر واحدة ـ لكنها مفرطة في الغباء ـ مئات الأسباب القوية تمنعها . لا نستطيع أن نجمع

---

(١) ـ الفعل بالامتناع عن الفعل (ك . ف . ب) .

ذهننا عليها ـ مزطة في الإملال ـ الى ماذا تريد أن تصل ـ انها «لا شيء إلا» ، الخ . العقل الواعي يرفع اعتراضات كثيرة ، لا بل هو غالباً ما يميل الى طمْس نشاط التخيل الطليق العفوي بالرغم من التبصر الحقيقي ، حتى ولو عن عزيمة صادقة من جانب الشخص على السماح للسياقات النفسية ان تمضي قُدُماً بدون تدخل . غالباً ما يوجد عائق حقيقي من الواعية .

اذا نجحنا في التغلب على الصعوبات الأولية ، يظل النقد خليقاً بأن يبدأ بعد ذلك وأن يحاول تفسير التخيل الطليق أو تصنيفه او إجماله او التقليل من شأنه . ويكاد الإغراء بأن نفعل ذلك لا يقاوم . بعد المراقبة التامة والمخلصة ، يمكننا أن نطلق العنان لنفاذ صبر العقل الواعي ؛ والحق اننا يجب أن نطلق له العنان ، وإلا نمت المقاومات العائقة . لكن ، كلما نتج خيال طليق ، كان علينا أن نطرح نشاط الواعية جانباً .

في أكثر الحالات لا تكون نتائج هذه الجهود مشجعة جداً في بادىء الأمر . فهي تتكون في العادة من نسيج من الخيالات الطليقة لا تمدنا بمعرفة عن أصلها وعن غايتها . كذلك تختلف طريقة الوصول الى هذه الخيالات بين فرد وآخر . فقد يكون أسهل على كثير من الناس كتابتها ، بينما تتراءى لآخرين فيرونها . ويرسمها آخرون عن رؤية لها او عن غير رؤية . وفي حالات يكون فيها الوعي مقيداً الى درجة عالية ، غالباً ما تكون الخيالات الطليقة من فعل اليدين ، تصممان او ترسمان أشكالاً غالباً ما تكون غريبة على العقل الواعي .

يجب المضي في هذه التمارين حتى تتراخى قبضة العقل الواعي ، أو بعبارة أخرى ، حتى نستطيع أن ندع الأشياء تحدث من تلقاء نفسها ، وهي الأشياء التي كانت الهدف المباشر من هذه التمارين . بهذه الطريقة يخلق موقف جديد ، وهو موقف نتقبل فيه ما هو غير عقلي وما هو غير مفهوم ، لا لشيء الا لأنه ما يحدث . وقد يكون هذا الموقف سماً زعافاً بالنسبة لشخص قد سيطرت عليه أشياء تحدث لتوّها ، ويكون له أعلى قيمة بالنسبة لشخص آخر لا يتخيّر ، في نقد واع حصراً ،

الا الأشياء التي تتقبلها واعيته من بين الأشياء التي تحدث ، فينسحب تدريجياً من مجرى الحياة نحو الماء الخلفي الراكد .

عند هذه النقطة ، ينفصل الطريق الذي سافر عليه كل من النموذجين المذكورين . كلاهما تعلّم أن يقبل ما يحدث له . (كما يعلّم المعلم لو ـ تسو : «عندما تأتي الينا المشاغل يجب أن نتقبلها ؛ عندما تأتي الينا الأشياء يجب أن نفهمها من الأساس») . أحدهما يأخذ ما يأتي اليه من الخارج ، والآخر ما يأتي اليه من الداخل . وطبقاً لقانون الحياة ، الأول عليه أن يأخذ من الخارج شيئاً ما كان بمقدوره من قبل أن يقبله من الخارج ، والآخر يقبل أشياء من الداخل كان دائماً يستبعدها من قبل .

هذا الانقلاب في كيان الشخص يعني توسيعاً للشخصية وإعلاء لها وإغناءً ، اذا احتفظت بالقيم السابقة الى جانب التغيير الحاصل ، شريطة ألا تكون هذه القيم مجرد أوهام ، طبعاً . اما اذا لم يحتفظ الإنسان بالقيم ، فإنما ينتقل الى الطرف الآخر ، من الملاءمة الى عدم الملاءمة ، من التكيف الى عدمه ، من المعنى الى اللغو ، بل حتى من العقلانية الى الاضطراب العقلي . الطريق ليس بدون أخطار . كل شيء حسن فباهظ الكلفة ، ونموّ الشخصية من أبهظ الأشياء كلفةً . انه مسألة ان يقول «نعم» لنفسه ، أن يأخذ نفسه على أنها أخطر المهام ، أن يكون شاعراً بكل شيء يفعله ، وأن يضعه دائماً نصب عينيه في جميع جوانبه الباعثة على الشك ـ حقاً انها لمهمة تبهظ كاهلنا الى أقصى حد .

الصيني يستطيع أن ينكفىء الى الخلف معتمداً على مرجعية ثقافته برمتها . فإذا شرع في السير على الطريق الطويل فهو يفعل ما يعترف بأنه خير الأشياء التي يستطيع أن يفعلها . لكن الغربي الذي يرغب في السير على هذا الطريق ، إن كان جاداً حقاً ، فكل مرجعية يريد الاعتماد عليها ، فانما تقف ضده . ثقافياً وأخلاقياً ودينياً . وهذا ما يفسر لنا لماذا كان أمراً في غاية اليسر عليه أن يقلد الطريقة الصينية ، ويهجر الطريق الأوروبي المحفوف بأسباب القلق والاضطراب ، أو ينشد

العودة الى الكنيسة المسيحية في القـرون الوسطى ، ويشيد مـرة أخرى السور الاوروبي الذي يفصل به المسيحيين الحقيقيين عن الكفار المساكين والغـرائب الانتوغـرافية التي تقيم في الخارج . مغازلات جمالية أو فكـرية مع الحياة والقدر تأتي الى نهاية مفاجئة هنا . الخطوة الى واعية أعلى تفضي الى الخارج . وبعيداً عن حماية جميع حَرَس المؤخرة ، وعن جميع تدابيـر السلامة . يجب على الإنسان أن يُسْلم نفسه للطريق الجديد كليةً ، لأنه لا يمكنه المضي في الطريق الا بسلامته . بسلامته فقط يستطيع أن يضمن ألّا ينقلب هذا الطريق الى مغامـرة عابثة .

سواء اكان نـدر الإنسان آتيا من الخارج أم من الداخل ، تظل اختبارات الطريق والحوادث فيه هي هي . لذلك لا حاجة بي الى قول شيء عن الحوادث الخارجية والداخلية الكثيرة ، ولا عن التنوعات التي لا نهاية لها ولم أستطع أبداً ان آتي عليها جميعاً ، في كل حال . زد على ذلك انني لو فعلت لما كان لذلك صلة بالنص موضوع هذه الدراسة . لكن ثمة الكثيـر مما يقال عن الأحوال النفسية التي تصاحب المزيد من النمو . هذه الأحوال النفسية يعبـر عنها النص رمزاً ، ويستخدم نفس الـرموز التي ألفْتها في أثناء ممارستي المهنية طوال العديد من السنين .

المفاهيم الأساسية

١ . الطاو

ترجع الصعوبة الكبيرة التي يلاقيها العقل الأوروبي في تفسير هذا النص وأمثاله الى أن المؤلف الصيني يبدأ دائماً من النقطة المركزية ، من النقطة التي نسميها الغرض أو الغاية ؛ بكلمة واحدة ؛ بالنفاذ الى النهاية التي يسعى للوصول اليها . وبذلك يبدأ المؤلف الصيني عمله بأفكار تتطلب من الفهم الشمولي ما يجعل شخصاً ذا عقل مميز يشعر بالذنب بدعوى سخيفة او حتى بالنطق بلغو فارغ ، لو أنه اعتمد المنطق العقلي في درس الاختبارات النفسية اللطيفة التي اختبرتها أعظم العقول في الشرق . فمثلاً يبدأ النص بـ «ما هو موجود بنفسه يسمى الطريق (الطاو)» ، وكتاب (هُوِي مِنغ تشنغ) يبدأ بهذه الكلمات : «الطبيعة البشرية والحياة هما أخفى أسرار الطاو» .

ان العقل الغربي يفتقر الى مفهوم للطاو . والحرف الصيني الذي يدل على الطاو هو الحرف الذي يدل على «الرأس» ، وعلى «الذهاب» . ان ويلهلم يترجم

الطاو الى «سِن Sinn اي «المعنى[1]» ، ويترجمه آخرون الى «الطريق» ، أو «العناية» ، او حتى «الله» ، كما يفعل اليسوعيون . ان في هذا ما يكشف عن الصعوبة . «الرأس» يمكن أن نفهمه الواعية[2] و«الذهاب» سفراً على الطريق ، وبذلك تكون الفكرة : ان تذهب واعياً أو الطريق الواعية . ان هذا يتفق مع «نور السماء» الذي «يسكن بين العينين» بما هو «قلب السماء» الذي يستعمل مرادفاً للطاو . الطبيعة البشرية والحياة متضمنتان في «نور السماء» ، وعلى حد تعبير ليو هوا ـ يانغ ، هما أهم أسرار الطاو . أما «النور» فهو المعادل الرمزي للوعي ، وطبيعة الوعي يعبر عنها بتشبيهات النور . كتاب (هُوي مِنغ تِشنغ) يمهد له بهذا الشعر :

ان كنت تريد أن تكمل جسد الألماس بلا دفق الى الخارج ،
فعليك بتسخين جذور الوعي[1] والحياة بإتقان .
أوقد المصباح في البلاد المباركة القريبة أبداً منك ،
ولتسكنْ نفسك الحقيقية دائماً ، خبيئة هناك

تحتوي هذه الأبيات على نوع من التعليمات السيمياوية أيضاً، اي على أسلوب أو طريقة لخلق «جسد الألماس» المراد خلقه أيضاً في هذا النص . و«التسخين» ضروري ؛ أي يجب أن يكون ثمة تكثيف للوعي لكي يتاح لمسكن الروح ان «يغمره النور» . لكن ليس الوعي وحده هو ما ينبغي تكثيفه ، بل يجب تكثيف الحياة نفسها أيضاً . فإذا اتحد الوعي والحياة نتج عن اتحادهما «الحياة الواعية» . بحسب كتاب (هُوي منغ تشنغ)، عرف الحكماء القدامى كيف يقيمون جسراً بين الواعية والحياة لأنهم هذّبوهما معاً . بهذه «يستقطر» الجسد الخالد (الشالي) ، وبها أيضاً يتم الطاو العظيم .

---

(١) ـ وأيضا «الطريق» .

(٢) ـ الرأس هو أيضاً «مقام النور السماوي» .

(١) ـ في كتاب (هوي منغ تشنغ) ، «الطبيعة البشرية» [هْسِنغ] ، والواعية [هْوي] تستعملان بالتبادل . (كلتاهما مضادة للحياة [منغ] لكنهما لا تتحدان احداهما بالأخرى) .

اذا اعتبرنا الطاو المنهج أو الطريقة الواعية التي يتصل بواسطتها ما هو منفصل ، فلعلّنا ندنو قرباً من المضمون السيكولوجي للمفهوم . على كل حال ، ان انفصال الوعي عن الحياة لا يمكنه أن يعني غير ما تقدم وصفه بأنه ضلال الواعية او اقتلاع لها من جذورها . كذلك ان تحقيق الضد الخبيء في الخافية ، أي «الانقلاب» ، لا شك أن معناه عودة الاتحاد بقوانين الكائن غير الشعورية ، والغرض من هذا الاتحاد الثاني هو الوصول الى الحياة الواعية ، أو بحسب التعبير الصيني إتمام الطاو .

٢ . الحركة الدائرية والمركز

كما بيّنت سابقاً ، ان اتحاد الأضداد على صعيد أعلى من الوعي ليس شيئاً عقلياً ، ولا هو مسألة إرادة ، بل سياق نفسي للنمو يعبر عن نفسه بالرمز . تاريخياً ، كان هذا السياق يتمثل دائماً بالرموز ، واليوم ما زال نموّ شخصية الفرد يعبر عن نفسه في أشكال أو صور رمزية . وقد تكشفت لي هذه الحقيقة من الملاحظات التالية : نواتج التخيلات العفوية الطليقة Fantasies التي أشرنا إليها قبل قليل تتعمق وتتجمع تدريجياً حول «بنى مجردة تمثل» مبادىء ، أو ما يسميه الغنوصيون «أرْكاي» archai . عندما نعبر عن هذه التخيلات رئيسياً بواسطة الأفكار ، تكون النتائج صيغاً حدسية من مبادىء أو قوانين نشعر بها شعوراً غامضاً ، تميل في بادىء الأمر الى أن تأخذ شكل الدرامة او الى التشخص (سوف نعود الى هذه النقطة فيما بعد) . فإذا عبرنا عن هذه التخيلات بالرسوم ، ظهرت رموز من النوع الذي نسميه بنموذج المندلة . والمندلة هي الدائرة ، والدائرة السحرية تخصيصاً . وهذا الرمز لا يوجد في الشرق وحسب ، وإنما نجده بيننا أيضاً . وقد كانت المنادل تمثل على نطاق واسع في القرون الوسطى . وقد كانت أوائل العصور الوسطى غنية بالمنادل المسيحية على وجه الخصوص ، وكان معظمها يُظهر المسيح في المركز ، ومعه الإنجيليون الأربعة أو رموزهم في الجهات الأصلية الأربع . ولا بد أن يكون هذا المفهوم قديماً جداً ،

ذلك أن المصريين كانوا يمثلون حورص ومعه أبناؤه الأربعة بنفس الطـريقة (والمعروف أن لحورص وأبنائه الأربعة صلة وثيقة بالمسيح والإنجيليين الأربعة) . وقد وُجدت فيما بعد في كتاب ليعقوب بوهمه عن الروح مندلة لا يمكن أن نخطئها وباعثة على الاهتمام لما لها من صلة واضحة بنظام نفسي ـ كوني شديد التأثـر بالأفكار المسيحية ، يسميها بوهمه «العين الفلسفية» ، أو «مرآة الحكمة» التي تعني المعـرفة الخفية . وتَتخذ المندلة ، في الأعم لأغلب شكل الزهـرة أو الصليب أو الدولاب ، مع ميل واضح الى المندلة الرباعية . (وهذا يذكرنا بالرابوع ، العدد الأساسي في النظام الفيثاغوري) . واننا لنجد أيضاً منادل من هذا النوع في الـرسوم الـرملية التي يستعملها البوابلو وهنود «نافاهو» في احتفالاتهم . لكن أجمل المنادل على الإطلاق منادل الشرق ، ولا سيما منادل البوذية التيبتيّة . وقد تمثلت الـرموز التي اشتمل عليها النص الصيني (الذي بين أيدينا) بمنادل ثلاث . كذلك وجدت رسوماً للمندلة بين المـرضى عقلياً ، وبين أشخاص لم يكن لهم أدنى فكرة عن الصلات التي بحثناها .

وقد وجدت بين مـرضاي نِسوة لم يكنّ يرسمْنَ المندلة ، بل يُرقصْنها ويسمى هذا النموذج من المندلة في الهند بـ «مندلة نرثيا» ، أي مندلة الرقص ، وتعبر الـرقصة عن نفس المعنى الذي يعبـر عنه الـرسم . ولم يكن يستطيع مـرضاي أن يقولوا غير القليل عن معنى الـرموز التي كانوا يرسمونها ، لكنهم كانوا يُفتنون بها ويجدونها معبـرة عن حالتهم النفسية ومؤثرة ، فيها على نحو أو آخر .

يعدنا النص الصيني ان «يكشف عن سـرّ الزهـرة الذهبية للواحد العظيم» فالزهـرة الذهبيةُ هي النور ، ونور السماء هو «الطاو» . الزهـرة الذهبية رمـز للمندلة ، وهي رمِز كثيراً ما صادفته في المادة التي كان مرضاي يأتون بها اليّ . وهي إما أن تكون مَرْئية من أعلى كتزيين هندي نظامي ، أو كزهرة طالعة من نبات . والنبات غالباً ما يكون تركيباً من ألوان صارخة نارية تطلع من قاعدة من الظلمة وتنقل زهـرة النور الى القمة ، وهو رمز شبيه بشجرة عيد الميلاد . كذلك يعبـر رسم من هذا النوع عن أصل «الزهـرة الذهبية» . فبحسب كتاب (هْوي مِنْغ تشنغ) ليست «الحويصلة الأصلية أو الجرثومية» غيـر «القلعة الصفراء» ، أو «القلب السماوي» أو

«مصطبة الحياة» أو ، «الحقل ذي الإنش المربع في البيت ذي القدم المربعة» ، أو «القاعة الارجوانية في مدينة اليشب» ، أو «تنين القلعة في قاع البحر» . كذلك تسمى تخم اقليم جبال الثلج أو «الممر الأولي» او «مملكة الفرح الأكبر» ، أو البلاد التي لا حدود لها» ، أو المذبح الذي يخلق عليه الوعي والحياة . وقد جاء في كتاب (هوي مِنْغ تشنغ) : «اذا لم يعرف الإنسان الفاني هذه الحويصلة الأصلية ، فلن يستطيع ان يوحد الوعي والحياة ولو في ألف ولادة او في عشـرة آلاف دهر» .

انما تكمن البداية التي لا يزال فيها كل شيء شيئاً واحداً ، والتي تبدو الهدف الأعلى تبعاً لذلك ، تكمن في قاع بحر ظلام الخافية (= اللاشعور) . في الحويصلة الأصلية أو الجرثومية ، يكون الوعي والحياة (الطبيعة البشـرية والحياة ، هسنغ - منغ) ما يزالان في حالة وحدة ، وممتزجين امتزاجاً يتعـذر معه الفصل بينهما كالشـرر في أتون التقطير ، «في قلب الحويصلة الأصلية نجد نار الملك» ، «جميع الحكماء يبدؤون عملهم بالحويصلة الأصلية» . لاحظ تشبيهات النار . اعرف سلسلة من رسوم مندلة أوروبية فيها شيء مثل حبة من نبات يحيط بها غطاؤها وتبدو طافية على الماء ؛ ومن الأعماق ينميها تسرّب النار ويجعلها تشكل زهـرة ذهبية كبيـرة من قلب الحويصلة الجرثومية .

تشيـر هذه الـرمزية الى نوع من السياق السيمياوي به تتم عملية التنقية وتُضفى صفة النبالة ؛ الظلمة تلد النور ؛ من «رصاص اقليم الماء» يطلع الذهب الشـريف ؛ ما هو خافيّ (= غير شعوري) يصبح واعياً في شكل سياق الحياة والنموّ (اليوغا كُنداليني المندوكية تقدم شبهاً تاماً) . بهذه الطـريقة تتحد الواعية والحياة .

عندما كان مرْضاي ينتجون مثل هذه الصور المندلية ، لم يكونوا يفعلون ذلك تحت تأثير الإيحاء ؛ فقد كانت صور مماثلةٌ لها موجودة قبل زمن طويل من معرفتي لمعناها أو صلتها بالرياضيات الشرقية التي كانت يومئذٍ أمـراً غير مألوف لي على الإطلاق . فقد كانت هذه الصور تأتي عفوية ومن مصدرين . احدهما الخافية (= اللاشعور) التي كانت تطلق مثل هذه التخيلات بصورة تلقائية ، والثاني هي الحياة

التي لو عشناها بمحبة تامة لأمدتنا بحدس النفس self ، الكائن المفرد . ان معرفة النفس الفردية تعبر عن نفسها بالرسم ، بينما تفرض الخافية علينا حب الحياة . ذلك ان رمز المندلة ، وهذا يتفق تماماً مع المفهوم الشـرقي ، ليس وسيلة للتعبيـر وحسب ، وإنما لإحداث أثر أيضاً . انه يقوم بالرد على خالقه . ان آثاراً سحرية قديمة جداً تقبع خبيئة في هذا الرمز لأنه يستمد وجوده أصلاً من «الدائرة المحيطة» ، «الدائرة المسحورة» ، والسحـر الذي ما زال يحتفظ به عدد لا حصر له من العادات الشعبية . والغاية من الصورة هي رسْم خندق سحري حول المـركز ، أو «تيمونوس» (سياج مقدس) ، حول الشخصية الأعمق ، للحيلولة دون «الجريان الى الخارج» ، او لوقايتها برقى وتعاويذ من أن تندلق بفعل المؤثـرات الخارجية . الممارسات السحرية ليست غير إسقاطات للحوادث النفسية ، تُطبق هنا بالمقلوب على النفس ، كما لو أن الإنسـان يمارس تأثيراً سحرياً على نفسه . أي ان الانتباه او بالأحرى الاهتمام ، ينكفىء الى داخل الحرم المقدس ، الذي هو ينبوع الروح وهدفها ، الذي يحتوي على وحدة الحياة والوعي ، تلك الوحدة التي ما إن امتلكناها حتى أضعناها ، وبات لزاماً علينا ان نجدها ثانية .

ان وحدة الحياة والوعي هي الطاو ، الذي يرمز إليه بالنور الأبيض المـركزي . هنا النور يسكن في «الإنش المربع» ، أو فـي «الوجـه» ، أي بين العينين . انه صورة النقطة المبدعة ، نقطة لها كثافة بلا امتداد ، يُعتقد انها متصلة بفراغ «الإنش المربع» ، وهو رمز لما له امتداد . الاثنان ، مجتمعين ، يكونان الطاو . الطبيعة البشـرية (هْسنغ) والوعي (هْوي) يعبر عنهما بـرمزية النور ، وهما الكثافة بالتالي . بينما الحياة (منغ) تتفق مع الامتداد . الأولى لها صفة مبدأ النور (يانغ) ، والثانية لها صفة مبدأ الظلام (ين) . والمندلة المذكورة اعلاه ؛ التي تمثل الفتاة المسرنمة* ، ذات الخمسة عشر عاماً ، التي كنت وضعتها تحت المراقبة قبل ثلاثين عاماً ، يظهر في مـركزها

* السَّرْنمة (= السير في النوم) نحت وضعه صاحب «المورد» ترجمة لكلمة Somnabulism .

«ينبوع طاقة الحياة» بدون امتداد ، وتصطدم بما ينبعث منها مباشرة مع مبدأ الفراغ المضاد - هذه المندلة تشبه شبهاً تاماً الفكـرة الأساسية التي اشتمل عليها النص الصيني .

«السياج» ، يُعبر عنه في النص بفكرة «الدوران» . و«الدوران» ليس مجرد حركة في دائرة ، بل هو أداة لرسم السياج المقدس من ناحية ، وللتثبيت والتركيز من ناحية ثانية . دولاب الشمس يبدأ بالدوران ، أي أن الشمس قد دبت فيها الحياة ، (أو أصبحت كائناً حياً) animated ، وبدأت تأخذ مجراها . أو بكلمات أخرى ، الطاو بدأ يعمل ويستلم زمام القيادة . الفعل انقلب الى امتناع عن الفعل ، وخضع كل ما هو محيطي الى المركز . ولذلك يقال : «ليست الحركة الا اسماً آخر للسيادة (او التحكم أو السيطرة) . هذا الدوران هو طُواف الانسان في دائرة حول نفسه ، بواسطته تصبح جميع جوانب الشخصية منخرطة في العمل . تجعل قطبي النور والظلام يدوران ؛ أي ان النهار والليل يتعاقبان .

شعاع الفردوس

يتناوب مع الليل العميق المخيف . (فاوست)

بذلك يكون للحركة الدائرية معنى أخلاقي أيضاً ، من حيث انها تنشّط جميع قوى النور والظلام في الطبيعة البشرية ؛ ومعها أيضاً ، جميع الأضداد السيكولوجية كائناً ما كان نوعها . انها معرفة النفس بواسطة الحضانة الذاتية Self - incubation (في السنسكريتية) tapas . ويعتبـر انسان افلاطون ، المستدير من جميع الجوانب ، الذي اتحد فيه الجنسان المذكر والمؤنث ، المفهوم النموذجي المماثل للكائن الكامل .

من ألطف الموازيات لما قلناه هنا ما جاء في وصف ادوارد مايتلاند ، المساعد لأنّا كغنزفورد ، لخبرته المركزية . لقد اكتشف في أثناء تأمله في فكرة ما ان الأفكار المتصلة بها تصبح مَرْئيّة ، ان صح التعبير ، في سلسلة طويلة ترقي رجوعاً الى مصدرها الذي هو الروح الإلهي في نظره . لقد حاول بواسطة التـركيز على هذه السلسلة أن يتغلغل فيها حتى أصلها . يقول : «كنت بلا معرفة أو أمل على الاطلاق

عندما استسلمت لحافز القيام بالمحاولة ، كل ما فعلته انني اجريت اختباراً على قدرة من القدرات . . جالساً الى منصة الكتابة لبـرهة لكي أدون النتائج كما كانت تأتيني ، صممت على الاحتفاظ بواعيتي الظرفية والخارجية متجهة نحو واعيتي الداخلية والمركزية الى ابعد ما استطيع الذهاب اليه . ذلك انني لم أكن أعرف ما اذا كنت قادراً على استعادة واعيتي الأولى ان انا تخليت عنها ، أو على تذكر وقائع الخبرة . أخيراً ، حققت غـرضي ، وإن كان بمجهود كبير ، لأن التوتـر الذي رافق محاولة جعل الطرفين ماثلين في وقت واحد معاً كان عظيماً .

ما إن ابتدأت بحثي حتى وجدتُني اعبر سلسلة من الدوائـر أو الاحزمة . وكان الانطباع الناتج صعود سلّم كبيـر يمتد من المحيط الى مركز من نظام، كان في نفس الوقت نظامي أنا ، والنظام الشمسي ، والنظام الكوني ، اذ كانت الأنظمة الثلاثة مختلفة ومتماثلة في نفس الوقت . . ثم ، بأقصى المجهود ؛ وما شعـرت انه المجهود الأخير ، نجحت في تجميع جميع أشعة واعيتي في البؤرة المطلوبة . وفي نفس اللحظة ، كما لو أنه زُجّ بي في قلب هذا الاشتعال المفاجىء الذي صدر عن الأشعة المتحدة فيما بينها على هذا النحو ، وجدتني أمام مجد من البياض والسطوع لا يوصفان ، وضياء بلغ من شدته حداً كاد أن يلقيني الى الخلف . . لكن رغم انني كنت أشعـر ان علي ان اكتشف المزيد ، عزمت على مضاعفة الجهد لكي اخترق ، ان كان ذلك في وسعي ، الضياء الذي يُعشي العينين ، وأشاهد ما بداخله مما هو متضمَّن فيه . فنجحت بعد مجهود كبير ، وقد أثبتت لي الرؤية ما قد شعـرت انه يجب أن يكون . . لقد كان الصورة المزدوجة «للابن» . . غير المتجلي يصير متجلياً ، ما لا شكل له يصير ذا شكل ، وغير المتميز متميزاً ، وأن الله هو الرب ، مبـرهناً بازدواجيته على أن الله جوهـر مثلما هو قدرة ، وحب مثلما هو إرادة ، ومؤنث مثلما هو مذكـر ، وأم مثلما هو أب[1] . لقد اكتشف أن الله اثنان في واحد كالإنسان . فضلاً عن

(١) ـ ادوارد مايتلَنْد ، انّا كنغزفورد ، حياتها ورسائلها ومذكراتها وعملها ، لندن ، ١٨٩٦ . يرجع خصوصاً الى الصفحة ١٢٩ ومابعدها . انا مدين بهذا المرجع الى زميلتي المحترمة الدكتورة بياتـريس هنكل ، المقيمة في نيويورك .

هذا ، لقد لاحظ شيئاً يؤكد النص الصيني عليه أيضاً ، وأعني به «وقف التنفس» يقول أن التنفس العادي قد توقف وحل محله تنفس داخلي ، كما لو انه تنفس تتنفسه شخصية متميزة داخل جهاز فيزيائي آخر ، لقد حسب نفسه انه «الانسان الكامل» الذي قال به أرسطو ، و «المسيح الجّواني» الذي قال به القديس بولس ، و «الفردية الروحية والجوهرية التي تولد من داخل الشخصية الظاهراتية ، والتي تمثل ـ بالتالي ـ ولادة جديدة للإنسان على صعيد يتجاوز المادّي .

تشتمل هذه الخبرة الأصيلة [1] على جميع الرموز الأساسية التي نجدها في النص الصيني . والظاهرة نفسها ، وأعني بها رؤية النور ، هي خبرة مشتركة بين كثير من الصوفية ، وهي لا شك خبرة عظيمة الأهمية ، لأنها تبدو ، في جميع الأزمنة والأمكنة ، وكأنها الشيء غير المشروط الذي يجمع في نفسه الطاقة العظمى والمعنى الأعمق . وقد عبرت هلْدغارد البنغانية of Bingen ، وهي شخصية بارزة اضافة الى كونها صوفية ، عن رؤيتها المركزية بطريقة مماثلة ، تقول : «كنت منذ طفولتي أرى نوراً في نفسي ، لكن ليس بالعينين الخارجيتين ، ولا من خلال أفكار قلبي ؛ كذلك لم تشترك الحواس الخمس الخارجية في هذه الرؤية . . النور الذي أدركه ليس من نوع محلي ، لكنه نور أسطع كثيراً من السحاب الذي يحمل الشمس . لا أستطيع أن أميز فيه ارتفاعاً أو عرضاً أو طولاً . . ما أراه أو أتعلمه في هذه الرؤية يظل طويلاً في ذاكرتي . أرى وأسمع وأعرف في نفس اللحظة . . في هذا النور لا أستطيع أن أتعرف الى نوع من الشكل ، رغم اني كنت أحياناً أراه نوراً آخر أعرفه بأنه النور الحي . . واني لأتمتع برؤية هذا النور ، اذ يتلاشى من ذاكرتي جميع الحزن والأسى . .

---

(١) ـ ان مثل هذه الخبرات هي خبرات أصيلة ، لكن اصالتها لا تبرهن على أن جميع النتائج والمعتقدات التي تشكل سياقها هي نتائج ومعتقدات صحيحة بالضرورة . حتى في حالات الجنون قد يجد المرء خبراتٍ نفسية صحيحة تماماً .

(هذه الملاحظة اضافها يونغ على الترجمة الانكليزية الاولى ـ ك . ف . ب) .

أعـرف بضعة أشخاص ألفوا هذه الظاهـرة عن خبرة شخصية . والى حد ما أستطيع أن أفهم هذه الظاهرة ، يبدو ان لها علاقة بحالة حادة من الوعي ، مكثف بمقدار ما هو مجرد ، وعي «منفصل» (انظر ادناه) ، كما بينت ذلك هلدغارد بياناً ذا صلة وثيقة بموضوعنا ، يرفع الى الواعية أقاليم الحوادث النفسية التي يغلفها الظلام في العادة . ان تختفي الأحاسيس الجسدية العامة في أثناء هذه الخبرة لمما يُشعرنا بأن طاقتها النوعية قد انسحبت منها ، وأنها ذهبت باتجاه زيادة جلاء الوعي . في الأصل ، تكون الظاهرة عفوية ، تغدو وتروح بمبادرة منها ، ذات أثـر مدهش من حيث إنها تكاد توجد دائماً حلاًّ للتعقيدات النفسية ، فتحرر الشخصية الجوانية من الإشكالات العاطفية والعقلية ، فتخلق وحدة الكائن التي يشعر بها الناس بأنها «تحرير» .

الإرادة الواعية لا تستطيع الوصول الى هذه الوحدة الـرمزية لأنها تكون منحازة في هذه الحالة . ومن يخاصمها عندئذٍ هو الخافية الجامعة التي لا تفهم لغة الواعية . فكان من الضـروري اللجوء الى سحـر الـرمز الذي يحتوي على هذه المجازات البدائية التي تخاطب الخافية . لا يمكن الوصول الى الخافية أو التعبير عنها الا بالـرموز ، وهذا ما يفسـر لنا لماذا لا يستطيع سياق التحقق الفردي individuation process أبداً الاستغناء عن الـرمز . فالـرمز هو التعبيـر البدائي عن الخافية ، لكنه في نفس الوقت أيضاً فكرة تتطابق مع أعلى مستويات الحدس الذي تنتجه الواعية .

أقدم رسم للمندلة أعرفه هو «دولاب الشمس» الذي يـرجع الى العصر الحجري الأول ، وقد اكتشفت حديثاً في روديسيا . وهو أيضاً مؤسس على مبدأ «الأربعة» . ان الأشياء التي ترجع الى العصور السحيقة من التاريخ البشـري لتمسّ بطبيعة الحال أعمق طبقات الخافية وتؤثـر في هذه الأشياء لا يمكن أن تأتي نتيجة للتفكيـر ؛ بل تطلع ثانية من الأعماق المنسيّة ، إن كان لها أن تعبـر عن أعمق النظـرات النافذة التي تحصلها الواعية ، وعن أعلى حدس تحدسه الروح . انها وهي تأتي من هذه الأعمال تختلط فيها فرادة واعية اليوم الحاضـر مع ماضي الحياة الموغلة في القدم .

ظاهـرات الطـريق

١ . تفكك الواعية

كلما تلاقت الواعية الفردية ذات الحدود الضيقة ، لكن ذات الوضوح الشديد مع ذلك ، بالخافية الجامعة ذات المدى الأرحب ، كان ثمة خطر لما لهذه الأخيـرة من تأثيـر تخريبي ظاهـر على الواعية . والحق أن هذا التأثير ، بحسب ما يبين لنا كتاب (هُوي مِنْغ تشنغ) ، انما يرجع الى الظاهـرات الغـريبة التي تـرافق رياضة اليوغا . فقد جاء فيه : «كل فكـرة منفصلة تتخلق وتصبح مرْئية لوناً وشكلاً . القوة الـروحية الكلية تكشف عن آثارها . . » من الـرسوم التي اشتمل عليها الكتاب صورة تمثل حكيماً استغرقه التفكـر ، يحيط برأسه ألسنة من نار ، من كل لسان تطلع اشكال بشـرية ؛ هذه الخمسة تعود فتنقسم الى خمسة وعشـرين شكلاً آخر . ولو دامت هذه الحالة لشكلت سياقاً فصامياً (سكيزو فرانيا) ، لذلك تقول التعليمات ، كما يحذر من ذلك الشيخ : «الأشكال التي شكلتها نار الـروح ما هي الا ألوان وأشكال فارغة . نور الطبيعة البشـرية ينعكس على النور البدْئي ، الحقيقي» .

بهذا يصبح أمراً مفهوماً أن يعود النص الى الشكل الواقي من «الدائـرة المحيطة» ، بغية الحيلولة دون «الدفق الى الخارج» ، ووقاية وحدة الواعية من الانشطار الذي يتهددها من الخافية . زد على ذلك أن المفهوم الصيني يشيـر الى طـريق يؤدي الى التخفيف من الأثر التخريبي الذي تحدثه الخافية ، اذ يصف «أشكال الأفكار» ، أو «الأفكار المنفصلة» بالقول انها «اشكال وألوان فارغة» ، فيجردها من قواها الى أقصى المستطاع . هذه الفكرة نجدها شائعة في كل البنية البوذية (وخصوصاً في صيغتها المهايانية) ، وفي التعليمات الموجهة الى الموتى في كتاب التيبت حتى لقد ذهب هذا الاخيـر الى حد اعتبار الآلهة الملائمة وغير الملائمة اوهاما يجب التغلب عليها . يقيناً ، ليس من اختصاص عالم النفس أن يبرهن على ما في هذه الفكـرة من صواب أو خطأ ميتافيزيقي ، بل كل ما عليه ان يعين ما له من تأثيـر نفسي كلما أمكنه ذلك . انه ، بعمله هذا ، ليس بحاجة لأن يشغل نفسه ، بما ان كان الشكل موضوع البحث وهماً مفارقاً ام لا ، ما دام الإيمان لا العلم عليه أن يبت بهذه المسألة . نحن نعمل هنا في حقل كان بدا منذ زمن طويل انه خارج عن نطاق العلم ، ولذلك كان يعتبر وهماً برّمته . لكن ليس هناك مبرر علمي لهذا الافتراض ، ذلك ان حقيقة هذه الأشياء ليست مشكلة علمية ما دام موقعها في كل الأحوال فوق متناول الإدراك والحكم البشريين ، وبالتالي فوق إمكانية البرهان . ان عالم النفس ليس مَعْنياً بحقيقة هذه المركبات بل بالخبـرة النفسية ، لا شك انها محتويات نفسية يمكننا اختبارها ، وتتمتع باستقلالية لا يُنازع بشأنها . انها جُمل نفسيه منفصلة تظهر اما عفواً في أحوال الوجد ، وفي ظروف معينة تستخرج انطباعات وآثاراً شديدة القوة ، أو تصبح ثابتة كاضطـرابات عقلية على شكل أوهام وهلوسات ، فتحطم وحدة الشخصية .

ان طبيب النفس ميّال الى الاعتقاد بفاعلية العقاقير وما أشبه ، والى تفسير السكيزوفرانيا (مرض الفصام وهو انشطار عقلي في الجنون) بهذه الصيغ ، ومن هنا عدم التشديد على أهمية المحتويات النفسية . من ناحية ثانية ، في الاضطـرابات ذات المنشأ النفسي (هستيريا ، عُصاب قسْري ، الخ . .) لا بد من وجود عُقد انشطرت بصورة تلقائية ، كما هو الحال في حالات السَّرْنمة (= السير في النوم) . صحيح أن

فـرويد يحب أن ينسـر هذه الأمراض بارجاعها الى كبْتٍ أنسي انْسَرَبَ الى الخافية ، الا ان هذا التفسير لا ينطبق على جميع الحالات ، لأن المحتويات التي لا تستطيع الواعية أن تتمثلها يمكنها أن تتطور تطوراً عفوياً من الخافية ، وفي مثل هذه الحالات تكون فَرَضية الكبْت غير مكافئة . زد على ذلك أن الاستقلالية الأساسية التي تتمتع بها هذه العناصر يمكن أن نلاحظها في انفعالات حياتنا اليومية ، اذ تعترض بعناد أفعالنا الإرادية ، ثم تطغى على الأنيَّة وتخضعها لسيطـرتها ، بالـرغم من جهودنا الجادّة لكبْتها . لذلك لا عجب أن يرى البدائي في هذه الأحوال حالة مَن به مَسّ من الشيطان ، أو حالة من ضاعت روحه . حتى كلامنا الدارج يعكس نفس الشيء عندما نقول : «لا أدري ما الذي دخل فيه اليوم» ؛ «استولى عليه الشيطان» ، «خرج عن طوره» ؛ «يتصرف كالممسوس» . حتى التطبيق القانوني يقر بدرجة من المسؤولية المخففة في حالات الانفعال . وبهذا تكون المحتويات النفسية المستقلة اختبارات مشتركة فيما بيننا جميعاً . ولهذه المحتويات تأثير مخرّب على المزاج الواعي .

لكن الى جانب الانفعالات العادية المألوفة ثمة حالات انفعالية اخفى وأشد تعقيداً لا يمكن أن نصفها بالانفعالات البحتة ، بل جمل نفسية منفصلة ومعقدة . وكلما زادت تعقيداً ، كان لها صفة الأشخاص . وبما هي عوامل مكونة للشخصية النفسيّة ، كان لها صفة «أشخاص» بالضرورة . مثل هذه الجمل المنفصلة تظهر في الأمراض العقلية على وجه الخصوص ، كما في حالات انشطار الشخصية ذات المنشأ النفسي (شخصية مزدوجة) ، وفي الظاهـرات الوسيطية mediumistic phenomena ، بطبيعة الحال . كذلك نصادفها في الظاهـرات الدينية . كثير من الآلهة الأولى تطورت عن «أشخاص» الى أفكار مشخَّصة ، ثم الى افكار مجردة ، ذلك أن محتويات الخافية الناشطة تظهـر دائماً أول ما تظهر على هيئة إسقاطات على العالم الخارجي . وفي مجرى التطور العقلي ، تتمثلها الواعية تدريجاً بما هي اسقاطات في المكان وتصوغها من جديد أفكاراً واعية ثم تنتزع منها صفتها الشخصية المستقلة أصلاً . كما نعلم ، ان بعض الآلهة مجرد أوصاف ونعوت عن طريق علم التنجيم : حربيّ martial (نسبة الى المريخ إله الحرب) ، جذلان jovial (نسبة الى جوبيتر) ، كئيب Saturnine

(نسبة الى زحل) ، شهواني erotic (نسبة الى «ايروس» إله الحب والجنس) ، منطقي logieal (نسبة الى «لوغوس» الكلمة أو العقل) ، مجنون lunatic (نسبة الى «لونا» القمر) .

تتيح لنا التعليمات التي اشتمل عليها كتاب التيبت (كتاب الموتى) على وجه الخصوص أن نرى كم هو كبير مقدار تعرض الوعي الى خطر التفكك والانحلال من خلال هذه الأشكال . مرة بعد مرة ، يُعلّم الكتابُ الموتى الا يحسبوا هذه الأشكال من قبيل الحقائق وألا يخلطوا بين ظهورها القاتم وبين النور الأبيض الصافي الذي يصدر عن «ذَرْماكايا» (جسد الحقيقة الإلهي) . والمعنى هو الاّ يقوموا بإسقاط النور الوحيد الذي يصدر عن الواعية العليا في أشكال حسيّة بحيث تجعله ينحلّ الى عدد من الجمل المنفصلة المستقلة . فلو لم يكن ثمة خطـر من هذا ، ولو كانت هذه الجمل لا تمثل ميولاً مستقلة ومتلاقية فيما بينها بشكل خطر ، لما كانت هذه التعليمات الملحة بالأمـر الضروري . ولو درسنا موقف العقل الشـرقي البسيط ذي الاتجاه العددي (= تعدد الآلهة) ، لكادت أن تكون هذه التعليمات معادلة لتحذيرات المسيح بألا يدع نفسه تقع في عماية التوهم بإله شخصي ، ناهيك عن التثليث وما لا حصر له من الملائكة والقديسين .

لو لم تكن هذه الميول نحو التفكك والانفصال كامنة في النفس البشـرية ، لما انقسمت الأجزاء بعضها عن بعض ؛ بعبارة أخرى ، لما كانت الأرواح ولا الآلهة قد جاءت الى الوجود . وهذا هو السبب أيضاً في أن زماننا خال من الألوهة الى أبعد حد ، وأنه زمان دنيوي ، لأننا نفتقـر الى معـرفة النفس الخافية ، ونتبع ديانة الواعية دون سواها . ان ديانتنا الحقيقية هي ديانة توحيد الواعية ، أو توحيد ألوهة الواعية ، التي استحوذت علينا . وقد ضاعف ذلك إنكار متعصب لوجود أجزاء من النفس تتمتع بالاستقلالية ، لكننا نختلف عن تعليم اليوغا البوذية في اننا ننكر حتى امكانية اختبار هذه الأجزاء المستقلة . وهنا ينهض خطر عظيم ، لأن هذه الأجزاء تسلك عندئذٍ مسلك كل المحتويات المكبوتة الأخرى : لا بد لها الا ان تشجع على مواقف خاطئة ، ذلك ان المادة المكبوتة تعود الى الظهور في الواعية في شكل غيـر شـرعي .

هذه الحقيقة ، التي تلفت النظر جداً في كل حالة عصاب ، تصح أيضاً على الظاهرات النفسية الجماعية . من هذه الناحية ان زماننا واقع في قبضة خطأ قاتل . نعتقد ان بإمكاننا نقد الحقائق الدينية عقلياً . نعتقد ، مثلاً ، كما اعتقد لابلاس ، ان الله فرضية يمكن ان تخضع للعلاج العقلي ، نفياً أو إثباتاً . وننسى تماماً ان السبب الذي جعل البشرية تعتقد بـ «الشيطان» أمر لا علاقة له ألبتة بالعوامل الخارجية ، بل يرجع الى الإدراك البسيط للأثر الداخلي الشديد الذي تحدثه الجمل المتشظية المستقلة . هذا الأثر لا يبطله نقدُ اسْمِهِ نقداً عقلياً ، ولا ان نصفه بالخطأ . الأثر حاضر دائماً في الجماعة ؛ والجمل المستقلة فاعلة دائماً ، لأن البنية الأساسية للخافية لا تمسّها تقلبات الواعية العابرة .

لو أنكرنا وجود الجمل المستقلة ، وتصورنا اننا تخلصنا منها بنقد اسمها ، لم نستطع أن نفهم أثرها الذي يظل يفعل مع ذلك ، ولم يعد بإمكان الواعية أن تتمثلها ، ولأصبحت عامل اضطراب لا تفسير له ، ولرحنا في النهاية نفترض ألّا بد من وجوده في مكان أو آخر خارج أنفسنا . بهذه الطريقة ، ينتج اسقاط عن الجمل المنفصلة المستقلة ، ويخلق في نفس الوقت وضع خطر ، لأن آثار القلق باتت تُعزى الآن الى نيّة سيئة من خارج أنفسنا لا يمكن أن نجدها بالطبع الا لدى جيراننا ـ على الضفة الأخرى من النهر . وهذا يؤدي الى ضلال جمعي ، والى «حوادث» وحروب وثورات ـ بكلمة واحدة ، الى جنون جماعي مخرّب .

الجنون استحواذ من جانب محتوى غير شعوري لا تتمثله الواعية ، بما هو كذلك ؛ ولا يمكنها أن تتمثله ، ما دام العقل الواعي يفكر وجود مثل هذه المحتويات . وإذا عبرنا عن ذلك بالمصطلح الديني قلنا ان الموقف يعادل ما لو قلنا : «اننا لم نعد نخاف الله ونؤمن بأن كل شيء يجب أن تحكمه المعايير البشرية» . ان هذه الغطرسة ، اي هذا الضيق في الواعية ، هو دائماً أقصر طريق الى «المصحات العقلية» . وهنا أنصح بقراءة رواية هـ . ج . ويلز ، «والد كرستينا البرتا» ، ورواية شربر Denkwurdig Keiten eines Nerven .

خليق بالأوروبي المتنور أن يشعر بالارتياح عندما يقال في الـ (هْوي منغ تشنغ) ان «الأشكال التي تشكلها نار الروح ما هي الا ألوان وأشكال فارغة ، فهذا الكلام يقرع في سمعه رنّة كلام اوروبي تماماً ، ويبدو أنه يناسب عقلنا بامتياز . والحق اننا نظن أن بمقدورنا أن نتملق أنفسنا ببلوغنا هذه الأعالي من الوضوح لأننا نتصور اننا قد خلّفنا هذه الأشباح من الآلهة بعيداً وراء ظهورنا . لكن ما كبرنا عنه ليس الا أشباح الكلمة ، لا الحقائق النفسية التي كانت مسؤولة عن ولادة الآلهة . نحن ما زالت تستحوذ علينا محتوياتنا النفسية المستقلة كما لو كانت آلهة . بتنا اليوم نسمي أمراض الخوف (فوبيا) نوعاً من الإكراه ، أو أعراضاً عصابية . والآلهة اصبحت أمراضاً ، زيوس لم يعد ملكاً على الأولمب بل الضفيرة الشمسية ، وصار يخلق نماذج لغرفة استشارة الطبيب ، أو يوقع الاضطراب في عقول السياسيين والصحافيين ، الذين يطلقون العنان للأوبئة العقلية من غير دراية منهم .

لذلك خير للإنسان الغربي ألاّ يعرف في مبتدأ أمره الشيء الكثير عن سرّ الحكمة الصينية ، لأنها عندئذٍ ينطبق عليها حال «الأداة الصحيحة في يد الإنسان غير الصحيح» ، فبدلاً من أن يزيد قناعته بأن الشيطان ما هو الا وهم ، عليه ان يختبر ثانية حقيقة هذا الوهم . عليه أن يتعرف على هذه القوة النفسية من جديد ، وألاّ ينتظر حتى توضح له تقلباتُ مزاجه وأحواله العصبية وهلوساته بآلم طريقة ممكنة بأنه ليس هو السيد الوحيد في بيته . ان نواتج الميول الانقسامية هي شخصيات نفسية فعلية ذات حقيقة نسبية . تكون حقيقية عندما لا نعترف بأنها كذلك وحين نقوم بإسقاطها تبعاً لذلك ، وتكون حقيقية نسبياً عندما تتعلق بالوعي (بالتعبير الديني ، عندما يكون الدين موجوداً) ، لكنها تكون غير حقيقية الى الحد الذي تكون فيه الواعية قد بدأت تنفصل عن محتوياتها . غير أن هذه هي الحالة الوحيدة التي نكون فيها قد عشْنا حياتنا بصورة مُسْتَنْفَذَة ، وبنوع من الانكباب الى حد لم يعد يوجد معه التزامات نحو الحياة لم نقم بها ، والى حد لم يعد يوجد معه ـ بالتالي ـ شهوات لا يمكن التضحية بها بلا تردد ، مما قد يقف عائقاً دون طريق الانفصال الداخلي عن العالم . لا جدوى من الكذب على أنفسنا من هذه الناحية . فحيثما كنا متعلقين ، بقينا

مُسْتَرقّين . وعندما يُسْترقّ المرء ، كان معنى ذلك أن هناك شيئاً أقوى منه . (حقاً انك لن تطلع أبداً من ذلك المكان حتى تسدد الدافق الأخير) . ليست المسألة مسألة انتفاء الفرق بين أن نسمي شيئاً ما «هوساً» أو «إلهاً» . ان تعبد هَوَساً شيء بغيض ولا يليق بالكرامة ، لكن أن تعبد إلهاً أمر لا شك انه احفل بالمعنى وأكثر جدوى ، لأن معناه فعل خضوع لكائن روحي أعلى . ان التشخيص يتيح لنا رؤية الحقيقة النسبية للجملة النفسية المنفصلة المستقلة ، وبذلك نجعل من تمثلها أمراً ممكناً ونجرّد القدر من قواه . عندما لا نعترف بالله ، ينمو هَوَس الأنيّة ؛ ومن هذا الهوس يأتي المرض .

ان تعاليم اليوغا تعتبر الاعتراف بالآلهة امراً مسلّماً به . اما تعليماتها السرية فليست مرادة الا لمن أوشك نور واعيته على التخلص من قوى القدر ، لكي يدخل في الوحدة النهائية غير المنقسمة ، «مركز الفراغ» ، «حيث يسكن إله أقصى الفراغ والحياة» ، على ما يقول النص . أن تفهم مثل هذا التعليم لهو أمر صعب بلوغه في آلاف الدهور . واضح أن حجاب «المايا» لا يُرفع بمجرد قرار يتخذه العقل ، بل يتطلب اعداداً كلياً ودأباً ومثابرة تقوم على تسديد تام لجميع ديون الحياة . فما دام هناك تعلق غير مشروط من خلال الشهوات ، لا يرفع الحجاب ولا نبلغ اعالي الوعي الخالص من شوائب المحتويات والوهم ، كما لا تنفع الحيل ولا الخدع في الوصول الى هذه النتيجة . فهو مثل اعلى لا يتحقق تماماً الا بالموت . وحتى ذلك الحين تظل أشياء حقيقية نسبياً موجودةً في الخافية .

٢ . الأنيم والأنيمة*

يبين النص الذي بين أيدينا ان من الأشكال التي توجد في الخافية ـ اضافة الى الآلهة ـ الأنيم والأنيمة . فكلمة (هون) hun ترجمها ويلهلم بالانيم . والحق أن مفهوم

(*) بحسب المصطلح اليونغي ، الأنيم animus هو عنصر الذكورة في نفس المرأة ، والأنيمة anima

الأنيم لما يناسب الهون . فالحرف الذي يدل عليه هو الحرف الذي يدل أيضاً على «الغيم» وعلى «الشيطان» فيكون معنى الهون «شيطان الغيم» ، «نُفْس النَفَس» ، الذي يرجع الى مبدأ (يانغ) ، وبالتالي الى المبدأ المذكر . بعد الموت ، يرتفع هون الى الأعلى ويصبح شن shen ، اي الروح او الإله «المنتشر والمتجلّي بذاته» . اما الأنيمة فتسمى «بُوّو» ، وترسم بالأحرف التي تدل على الأبيض ، و«الشيطان» ، أي «الشبح الأبيض» ، الذي يرجع الى الروح الجسدية السفلى المقيدة الى الأرض ، الى مبدأ «ين» ، وبالتالي الى المبدأ المؤنث . بعد الموت ، تغوص الأنيمة (بْوُو) الى الأرض ، وتصبح شيطاناً (كْواي) ، وغالباً ما تسمى بـ «العائد» (أي العائد الى الأرض) ، أو الشبح او الـروح . ان يغادر الأنيم والأنيمة الجسد بعد الموت ويأخذ كل منهما طـريقاً مستقلاً لهو دليل على انهما ، بالنسبة للواعية الصينية ، عاملان نفسيان متمايزان ولهما آثار مختلفة بشكل بيّن ، وبالـرغم من انهما في الأصل متحدان في «الطبيعة البشـرية الحقيقية الفعّالة الواحدة» ، في «بيت المبدع» ، الا انهما اثنان مع ذلك . الأنيم يعيش نهاراً في العينين (اي في الواعية) ويبيت ليلاً في الكبد . انه ذلك الذي تلقيناه من الفراغ الأعظم ، ذلك الذي يتماثل في الشكل مع البداية الأولى . أما الأنيمة ، وهي «طاقة الثقيل والكثيف» ، فتتعلق بالقلب اللحمي ، وعنها تصدر «الشهوات وبواعث الغضب» . و«كل مكتئب عكـر المزاج فمقيد بالأنيمة» .

منذ سنوات خلت ، وقبل أن يعثر ويلهلم على هذا النص ، كنت استخدم مفهوم «الأنيمة» على نحو يشبه تماماً التعـريف الصيني لمفهوم «بْوّو» لكن في معزل عن كل طرْح ميتافيزيقي . بالنسبة لعالم النفس ، ليست الأنيمة شيئاً مفارقاً ، بل شيء يدخل في نطاق الخبرة . ذلك أن الحالات الانفعالية ، كما يبين ذلك النص الصيني ، ما هي الا حالات خبرة مباشـرة . لكن ، لماذا نتكلم اذن على الأنيمة ولا نقصر كلا منا على الأمزجة فقط ؟ سبب ذلك ان للانفعالات صفة الاستقلال ،

= هي عنصر الأنوثة في نفس الرجل . ويرى يونغ أن الأنيم والأنيمة هما الموازيان النفسيان للجينات المذكرة والمؤنثة التي تدخل في البنية العضوية في كل من المرأة والرجل ـ المترجم ـ.

وبالتالي فإن معظم الناس يقعون تحت سيطرتها . لكن الانفعالات ، كما رأينا ، محتويات محددة قائمة في الواعية ، أجزاء من الشخصية . وبما هي أجزاء من الشخصية ، تساهم في خاصيّتها وبمكتها ـ تبعا لذلك ـ في يُسْر ، وهو سياق لم يزل مستمراً حتى اليوم ، كما تبين ذلك الأمثلة المتقدمة . التشخيص ليس اختراعاً تافهاً ، من حيث إن الإنسان الذي يحرّضه انفعال ما لا يبدي عن خاصية محايدة ، بل عن خاصية متميزة تماماً ، تختلف عن شخصيته العادية . وقد أظهر البحث الدقيق ان الصفة الانفعالية في الرجل ذات ملامح أنثوية . هذه الحقيقة النفسية أنشأت التعليم الصيني المتعلق بالروح المؤنثة (بْوُو) ، كما أنشأت عندي مفهوم (الأنيمة) . واذا امعنّا النظر ، أو اختبرنا حالة الوجد ecstasy ، اكتشفنا وجود شكل أنثوي في الخافية ، ومن هنا جاء الاسم المؤنث للأنيمة أو النفس أو الروح . كذلك يمكننا تعريف الأنيمة بالقول انها صورة بدْئية أو نموذج بدْئي archetype ، أو هي جماع اختبارات الرجل للمرأة ، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نُسقط الأنيمة على المرأة . وكما نعلم ، لقد طالما وصف الشعر الأنيمة واحتفل بها. ان لصلة الأنيمة بالشبح أو الروح أهمية كبيرة بالنسبة الى علماء البارا ـ سيكولوجيا من حيث أن «الضوابط» هي في الأعم الأغلب من الجنس المضاد .

رغم ان ترجمة ويلهلم كلمة (الهون) بـ «الأنيم» لها ما يبررها عندي ، الا انه كان لديّ أسباب هامة لاختيار «اللوغوس» تسميةً لروح الإنسان ، بسبب ما في الوعي والعقل المذكرين من وضوح ، دون التعبيد المناسب الآخر الذي هو «الأنيم» . فقد وفر فلاسفة الصين على أنفسهم مصاعب معيّنة تثقل كاهل علماء النفس في الغرب ، لأن الفلسفة الصينية ، شأنها كشأن جميع اوجه النشاط العقلي والروحي في الأزمنة القديمة ، كانت حُكْراً على العالم المذكر . اذ لم يكن للجانب السيكولوجي دور في صياغة مفاهيمها ، وبالتالي لم تكن تدرس مدى انطباق هذه المفاهيم على النفس المؤنثة . لكن عالم النفس لا يستطيع تجاهل وجود امرأة وسيكولوجيتها الخاصة . الأسباب التي تجعلني أوثر ترجمة (هون) كما تظهر في الرجل بـ (لوغوس) ذات صلة بهذه الحقيقة . أما ويلهلم فيستخدم (اللوغوس) ترجمة لمفهوم (هْسنغ)

الصيني ، الذي يمكن ترجمته ايضا بجوهر [الطبيعة البشرية] ، أو الواعية المبدعة . بعد الموت ، هو يصبح شن ، روحاً ، وهو قريب جداً ، بالمعنى الفلسفي ، من هسنغ . وبما أن المفاهيم الصينية ليست منطقية بالمعنى الغربي ، بل هي أفكار حدسية ، لا يمكن فهم معناها جيدا الا من خلال الأساليب التي تستخدم فيها ، وبملاحظة تكوين الأحرف المكتوبة او أكثر من ذلك ، من خلال العلاقات القائمة فيما بينها ، كعلاقة الهون بالشن . فالهون ، مثلاً ، قد يكون هو النور الذي يميز الوعي والعقل في الرجل ، ويعود بعد الموت من خلال (شن) الى (الطاو). لهذا الاستخدام ، كان تعبير (اللوغوس) هو الأنسب ، لأنه يشتمل على فكرة الكائن العالمي أو الكوني ، وبالتالي يشتمل على كون وضوح وعي الرجل وقدرته على الحكم شأناً عالمياً أكثر مما هو شأن شخصي مفرد . زد على ذلك انه ليس بالشخصي ، بل هو بالمعنى الأعمق غير شخصي ، وبذلك يتعارض تعارضاً شديداً مع الأنيمة التي هي شيطان شخصي يعبر عن نفسه تماماً من خلال الأمزجة الحادة (ومن هنا كلمة) animosity !

لقد احتفظت باصطلاح «الأنيم» من أجل النساء حصراً ، آخذاً هذه الحقائق السيكولوجية بالاعتبار ، لأن السيكولوجية المؤنثة تحتوي على عنصر مشابه لأنيمة الرجل . قبل كل شيء ، ليس الأنيم من طبيعة انفعالية ، بل هو عنصر شبه فكري ، خير وصف له كلمة سابق الحكم أو التحيّز . الجانب الواعي من المرأة يتطابق مع الجانب الانفعالي من الرجل ، لا مع «عقله» . العقل من المرأة هو «روحها» أو «أنيمها» . وكما أن أنيمة الرجل تتكون من صفات متدينة ، مليئة بالانفعال ، كذلك يتكون أنيم المرأة من أحكام مبتورة او آراء متدنية . يتكون أنيم المرأة من كثرة من الآراء المبيتة ، ولذلك لا تقبل التشخص في شكل واحد ، بل تظهر في أكثر الأحيان على هيئة جماعة أو جمهور . (خير مثال على ذلك نجده في البارا ـ سيكولوجيا فيما يسمى بمجموعة «الامبراطور» في حال السيدة بايبر)[1] .

---

(١) Compare Hyslop, Science and a Future life, Boston, 1905 .

في المستوى الأدنى ، الأنيم لوغوس قاصر ، كاريكاتور عن العقل المذكـر المتمايز ، تماماً كما أن الأنيمة ، في المستوى الأدنى ، كاريكاتور عن الإيروس المؤنث . واذا مضينا في المقابلة قلنا ، كما أن (الهون) يتطابق مع (الهسنغ) ، الذي ترجمه ويلهلم باللوغوس ، كذلك ان ايروس المـرأة يتطابق مع (المنغ) ، الذي يتـرجم بالقدر أو المصير ، وقد ترجمه ويلهلم بالإيروس . الإيروس تناسج وتشابك ، أما اللوغوس فمعرفة مميزة (بالكسر) ، نور موضح (بالكسر) ؛ الإيروس اتصال أو قُربى ، اما اللوغوس فتمييز وانفصال . وبذلك يبدو اللوغوس القاصر في أنيم المـرأة شيئاً لا علاقة له بالموضوع أبداً . وبالتالي انحيازاً او رأياً يبعث على الغيظ تماماً لا علاقة له بالمرة بالطبيعة الجوهـرية للموضوع .

كثيراً ما يُنْحى عليّ باللائمة لأنني اشخص الانيمة والأنيم كما تفعل الميثولوجيا ، لكن هذا اللوم ربما كان له ما يسوّغه لو أنني ، في استعمالي السيكولوجي لهذين الاصطلاحين ، جَسّدْتهما على نفس النحو الذي تجسّدهما فيه الميثولوجيا . يجب عليّ ان اعلن مرةً واحدة والى الأبد أن التشخيص ليس اختراعاً من عندي ، بل كامن في طبيعة الظاهـرات . ولعلّه مما يتنافى مع الموقف العلمي ان أتغاضى عن كوْن الأنيمة جملة نفسية مستقلة ، وبالتالي شخصية . ما من أحد ممن يحمل عليّ ويتهمني يتردد لحظة في القول : «حلمت بالسيد فلان» ، بينما لو شاء الدقة لقال : «حلمت بصورة تمثل السيد فلان» ، وما الأنيمة غير صورة تمثل الطبيعة الشخصية للجملة المستقلة موضوع البحث . اما طبيعة هذه الجملة ، بالمعنى المفارق ، أي فيما وراء حدود الخبرة ، فشيء لا نستطيع أن نعرفه .

لقد حدّدْتُ الأنيمة في الرجل بما هي تشخيص للخافية عموماً ، ولذلك اعتبرتُها جسراً نجتازه الى الخافية . ثمة نقطة هامة في النص الصيني بهذا الصدد . يقول النص ان الواعية (أي الواعية الشخصية) تأتي من الأنيمة . بما أن العقل الغربي مؤسس على منطلق الواعية ، لا بد له الا ان يحدد الأنيمة بالطـريقة التي حددتها بها . لكن الشـرق ، المؤسس كما هو واقع الأمـر على منطلق الخافية ، لا يرى الواعية غيـر أثـر من الأنيمة ! لاشك ان الواعية قد نشأت أصلاً من الخافية . كثيـراً

ما ننسى هذه الحميقة ، حتى اننا نواحد النفس بالواعية ، أو على الأقل نحاول أن نصور الخافية وكأنها شيء مستمد ، أو أثر ، من الواعية (كما هو الأمر ، على سبيل المثال ، في نظـرية الكبت عند فرويد) . لكن للأسباب التي بحثناها فيما تقدم ، ان من الأساسي أن نبين اننا لا نستطيع أن ننتزع شيئاً من حقيقة الخافية ، وأن الصور التي تشتمل عليها الخافية يجب أن نفهمها باعتبارها مقادير فاعلة . ان من يفهم ما هو المـراد بالحقيقة النفسية ليس بحاجة الى النكوص نحو «العفرتة» البدائية . والحق اننا ان لم نفهم صور الخافية فهماً جاداً على انها عوامل فاعلة بطـريقة عفوية ، وقعنا ضحية ايمان احادي بالعقل الواعي ، الذي يؤدي بنا في نهاية المطاف الى حال من التوتـر لا تطاق . وعندئذٍ لا بد من وقوع الكوارث ، لأننا ، بالرغم من كل وعينا، قد أغفلنا النظـر الى القوى النفسية المظلمة . اننا لسنا نحن الذين نشخصها ، بل هي منذ البداية ذات طبيعة شخصية . ولا يمكننا أن نفكـر في نزع الصفة الشخصية عنها ، أي اخضاع الأنيمة كما يعبر عن ذلك النص الصيني ، الا اذا اعترفنا بها اعترافاً تاماً .

هنا أيضاً نجد فرقاً كبيراً بين البوذية وموقف العقل الغـربي . ثم ان هناك توافقاً ظاهـرياً خطـراً . ان تعليم اليوغا ينبذ كل محتويات التخيلات الطليقة Fantasy ، ونحن نفعل نفس الشيء ، لكن الشـرق يفعل ذلك على أسس مختلفة . في الشـرق ، المفاهيم والتعاليم التي يكتب لها أن تسود انما هي المفاهيم والتعاليم التي تعبـر عن التخيلات الطليقة على أغنى قياس ؛ في الحقيقة ان الوقاية من الإفراط في التخيل الطليق أمـر مطلوب . ثم اننا نعتبر التخيل الطليق شيئاً لا قيمة له ، حلم يقظة يتصف بالذاتية . بطبيعة الحال ، ان صور الخافية لا تظهـر مجردات منزوعا منها جميع الأشراك الخيالية ؛ على العكس ، تكون مُحتضنة ومتناسجة مع شبكة من التخيلات الطليقة ذات تنويعات فائقة للعادة ، وكثرة تبعث على الحيرة . ان الشـرق يستطيع أن ينبذ هذه الطلائق Fantasies ، لأنه منذ زمن بعيد قد استخلص منها الجوهر وكثّفه في تعاليم عميقة . لكننا ما اختبـرنا قط هذه الطلائق ، وأقل من ذلك بكثيـر استخلاص جوهرها . هنا نجدنا أمام جزء كبيـر من الخبرة علينا

ان نتداركه ، ولا نستطيع أن نفرّق بين ما له قيمة وما ليس له قيمة ما لم نجد المعنى في اللغو الظاهر . قد نطمئن الى أن ما نستخلصه من خبراتنا لسوف يختلف عما يقدمه لنا الشرق اليوم ، من حيث أن الشرق قد توصل الى معرفة الأشياء الداخلية وهو في جهل نسبي بالعالم الخارجي . اما نحن فسوف نبحث في النفس وفي أعماقها ، تؤيدنا في ذلك معرفة علمية وتاريخية واسعة الى أبعد الحدود . صحيح أن معرفتنا بالعالم الخارجي ، في هذه اللحظة الراهنة ، لهي أكبر عقبة في طريق المعرفة الداخلية ، لكن الشقاء السيكولوجي سوف يقهر جميع العقبات . ان ما نقوم به الآن هو تشييد علم نفس يعطينا مفتاحاً الى أشياء وجد الشرق مدخلاً اليها ، فقط من خلال حالة نفسية شاذة .

انفصال الوعي عن الموضوع

عن طريق فهمنا للخافية نحـرر أنفسنا من سلطانها . ان هذا هو الغـرض من التعاليم التي اشتمل عليها النص الصيني . فالتلميذ يتعلم على ان يجتمع على نور الإقليم الجوّاني ، وفيما هو يفعل ذلك فإنما يحـرر نفسه من جميع أشراك الخارج والداخل . ان باعثه على الحياة يـرشده نحو واعية بلا محتوى ، واعية تتيح لجميع المحتويات ان تكون موجودة مع ذلك . يقول كتاب (هوي منغ تشنغ) عن هذا الانفصال :

هالة من نور تحيط بعالم الناموس .
ينسى أحدنا الآخر ، ساكناً وصافياً ، كلنا شديد القوى وفارغ
الفراغ يضيئه نور القلب والسماء .
ماء البحر أملس ومرايا القمر على سطحه
السحب تتلاشى في الفضاء الأزرق ؛ الجبال تشع وُضاءةً
الواعية تعود الى التفكـر ؛ قرص القمـر يستريح وحيداً

هذا الوصف للإتمام يصور حالة نفسية ربما كان خير وصف لها هو انفصال الواعية عن العالم ، وانسحابها منه الى نقطة فوق هذا العالم ، ان صح التعبيـر .

وبذلك تكون الواعية في نفس الوقت فارغة وغير فارغة . لم تعد مشغولة بصور الأشياء ، بل تحتويها ليس إلا . ان امتلاء العالم الذي ظل حتى حينئذٍ يضغط على الواعية لم يفقد شيئاً من ثرائه وجماله ، لكنه لم يعد له سيطرة على الواعية . والمطالبة السحرية بالاشياء قد توقفت لأن الواعية المتناسجة مع أشياء العالم قد بلغت النهاية . الخافية لم نعد نسقطها على العالم ؛ كذلك بطلت المشاركة الصوفية مع الأشياء . ولذلك لم تعد الواعيةمنشغلة بالمقاصد الاضطرارية ، بل تحولت الى رؤية تفكرية ، كما يقول النص الصيني بجدارة عالية .

كيف حدث هذا الأثر ؟ (نفترض ، طبعاً ، ان المؤلف الصيني أولاً لم يكن كاذباً ، ثانياً انه ذو عقل سليم ؛ ثالثاً ؛ يتمتع بذكاء خارق للعادة) . ان نفهم أو نشرح «الانفصال الموصوف في النص هو أن تتطلب عقليتنا نوعاً من المقاربة غير المباشرة . لا فائدة من أن نسخر من الحساسية الشرقية ؛ ذلك انه لا شيء طفولياً أكثر من أن نرغب في تجميل حالة نفسية كهذه . هذا الانفصال شيء اعتدت عليه في ممارستي ؛ انه الأثر الشفائي بامتياز ، وقد عملت له مع طلابي ومرضاي ؛ هو انحلال المشاركة الصوفية . بضربة عبقرية اقام ليفي بروهل المشاركة الصوفية على انها العلامة المميزة على العقلية البدائية ؛ كما وصفها هو انها مجرد البقية الواسعة بلا تحديد من انعدام التمييز بين الذات والموضوع ، الذي ما زال قوياً جداً عند البدائيين حتى انه لا بد وأن يستوقف الأوروبي ، المتواحد كما هي عليه الحال بالمنطلق الواعي . بمقدار ما لا نعي الفرق بين الذات والموضوع ، تكون الهوية غير الشعورية هي السائدة . وعندئذٍ نسقط الخافية في الموضوع ، ويعود الموضوع فيلج الذات أو يعبر فيها ، أي انه يصير شأناً نفسياً عندئذٍ يتصرف النبات والحيوان كما يتصرف الإنسان ، فيكون الإنسان في نفس الوقت «هو نفسه وحيواناً أيضاً ، ويصبح كل شيء حيّاً بالأشباح والآلهة . طبعاً ، الإنسان المتمدن يعتبر نفسه فوق هذه الأشياء بما لا قياس له . لكنه ، بدلاً من ذلك ، غالباً ما يظل متواحداً مع أبويه طوال حياته ، أو يتواحد بعواطفه وأهوائه ، ثم لا يخجل من ان يتهم غيره بما لايراه في نفسه . لا بل انه مُبتلى ببقية من انعدام الوعي البداثي ، أو فقدان التمييز بين

الذات والموضوع . وبسبب من هذا الانعدام في الوعي يقع في عبودية ما لا حصر له من الناس والأشياء والظروف ، أي انه خاضع للتأثير بدون تحفظ . فعقله ، الذي يكاد أن يكوت مثل عقل البدائي ، حافل بالمحتويات المقلقة ، ويعدد هذه المحتويات يستخدم تعاويذ سحرية (لطرد العفاريت) . فلا يعود يتعاطى السحر بأكياس الدواء والتمائم والقرابين الحيوانية ، بل بأدوية الأعصاب ، وأمراض العصاب ، و«التقدم » وعبادة الإرادة ، وما الى ذلك . لكن ، لو اعترفنا بأن الخافية مقدار فاعل الى جانب الواعية ، وأقمنا حياتنا على نحو نعترف به ، على قدر الإمكان ، بالواعية والخافية جميعاً ، أو بالمطالب الغريزية ، اذن لا نتقل مركز الجذب في مجمل الشخصية عن موقعه ، فلا يعود قائماً في الأنيّة ego ، التي ما هي الا مركز الواعية ، الى نقطة مفترضة بين الواعية والخافية ، التي يمكن أن ندعوها بالنفس أو الذات The Self ؛ فإذا حصل هذا الانتقال ، تخلصنا من المشاركة الصوفية ، ونمت فينا شخصية لا تعاني الا في الطبقات السفلى ، ان صح التعبير ، لكنها تكون في الطبقات العليا منفصلة انفصالاً فريداً عن الحوادث المؤلمة والمفرحة على حد سواء .

ان خلق هذه الشخصية العليا وولادتها هو ما يراد به في النص الصيني عندما يتكلم عن «الثمرة المقدسة» ، و«جسد الألماس» ، أو عندما يشير على نحو آخر الى «الجسد الذي لا ينهدم» . ترمز هذه التعابير سيكولوجياً الى موقف لا تطاله غمرة انفعالية كثيفة ، وهو لذلك في مأمن من الصدمة القاضية ؛ فهي ترمز الى واعية منفصلة عن العالم . ان لدي من الأسباب ما يحملني على الاعتقاد بأن هذا الموقف انما يبدأ بعد منتصف العمر ، وأنه استعداد طبيعي للموت فعلاً . الموت من النفس في مثل أهمية الولادة ، وهو مثلها جزء لا يتجزأ من الحياة . اما ماذا يحدث للواعية المنفصلة في النهاية فمسألة لا ننتظر من عالم النفس ان يجيب فيها . ومهما يكن الموقع النظري الذي قد يتخذه ، فقد يعمد يائساً الى تخطي الحواجز التي أقامها العلم . وهو لا يستطيع الا أن يشير الى ان النظرات التي اشتمل عليها النص من حيث لا زمانية الواعية المنفصلة هي نظرات تنسجم مع الفكر الديني في جميع الأزمنة ، ومع فكر الأغلبية العظمى من البشرية . وأيما شخص يفكر بخلاف ذلك ، فإنما يقف

خارج النظام البشري على نحو ما ، ويعرض نفسه ـ بالتالي ـ الى اختلال في التوازن النفسي . ولذلك عمدت ، وأنا الطبيب الى بذل جهد كبير من أجل تقوية الإيمان بالخلود على قدر المستطاع ، خصوصاً لدى المرضى الطاعنين في السنّ الذين تعتبر هذه المسائل عندهم من الأمور الحاسمة . فلو نظرنا الى الموت نظرة صحيحة بالمعنى السيكولوجي ، لم يكن الموت نهاية بل غاية ، ولذلك تبدأ حركة الحياة باتجاه الموت حالما ينقضي وقت الظهيرة .

تقوم فلسفة اليوغا الصينية على أساس ان هذا الاستعداد الفطري للموت انما هو غاية ، وبما ان هذه الغاية تشبه غاية النصف الأول من العمر ، اعني الولادة والتناسل ، وهما الوسيلتان لإدامة الحياة الفيزيائية ، تتخذ هذه الفلسفة من الولادة الرمزية لجسد روحي نفسي (الجسد اللطيف) هدفاً للوجود الروحي ، وهو الجسد الذي يضمن بقاء الواعية المنفصلة واستمرارها . هذا الجسد الروحي انما هو الإنسان الروحي الذي يعرفه الاوروبي منذ القديم ، ويعمل على إنجابه بواسطة ممارسات سحرية واعتياد رموز مختلفة تماماً ، بواسطة الإيمان والمسلك المسيحي في الحياة . هنا أيضاً نقف على أساس يختلف اختلافاً تاماً عن الشرق . ثم ان النص يقرع في سمعنا شيئاً يخيل الينا فيه انه غير بعيد جداً عن اخلاقيات الزهادة المسيحية ، لكن لا شيء أكثر خطأ من الافتراض أنه يعالج نفس الموضوع . فخلف النص الصيني تقف ثقافة عمرها آلاف السنين ، وهي ثقافة مَبْنيّة عضوياً فوق الغرائز البدائية التي لا تعرف ـ تبعاً لذلك ـ شيئاً عن الأخلاقيات الاستبدادية التي تنتهك الغرائز ، مما يُعتبر علامة مميزة علينا باعتبارنا توتونيين برابرة لم ندخل المدنيّة الا حديثاً . لهذا السبب كان الصينيون مجردين من البواعث التي تحملهم على الكبت الشديد للغرائز الذي يسمم حياتنا الروحية ويبالغ في تسميمها الى حد الهستيريا . ان من يعيش غرائزه يستطيع أن ينفصل عنها ، وعلى نفس النحو الطبيعي الذي يستطيع فيه أن يعيشها . كل فكرة عن قهر بطولي للنفس قد تكون غريبة كليّاً عن معنى النص ، لكن هذا هو ما يراد منه لو اتبعنا التعليمات الصينية حرفياً .

يجب ألا ننسى مقدماتنا التاريخية أبداً . منذ ألف سنة ونيّف ، أقال عثرتنا من أغلظ بدايات البربرية ديانة شرقية كانت نامية الى درجة عالية ، وكنا حتى حينئذٍ من أنصاف الهمج ، فارتفعت بعقولنا الخيالية الى ذروة ما كانت لتتفق مع درجة نموّنا الروحي . ولكي نحافظ على هذه الذروة بطريقة أو بأخرى ، لم يكن أمامنا بدّ من كبت الحيّز الغريزي الى حد كبير . وبذلك اتخذت الأخلاقيات والممارسات الدينية صفة تميّزت بالعنف الشديد الذي كاد ان يصبح خبيثاً . طبعاً ، ان العناصر المكبوتة لا تنمو ، بل تظل حيّة في الخافية على بربريتها الأولى . نريد الارتقاء الى ذرى ديانة فلسفية لكننا عاجزون عن ذلك . ان اقصى ما نستطيع أن نأمل به هو الارتفاع الى مستواها . ان جرح (امفورطاس) وانشطار (فاوست) لم يُشف منهما الإنسان الجرماني حتى الآن ؛ فخافيته ما زالت مثقلة بتلك المحتويات التي يجب أن تصبح أمراً شعورياً أولاً قبل أن يتمكن من تحرير نفسه منها . تسلمت مؤخراً رسالة من مريضة سابقة تصف التغيير الضروري بكلمات بسيطة لكن في محلها . كتبت تقول : «من الشر جاءني خير كثير . ببقائي هادئة ، لا أكبت شيئاً ، وأظل متيقظة منتبهة ، وبتقبلي للواقع ـ بأخذ الأشياء كما هي ، لا كما اريد لها أن تكون ـ بفعل كل هذا ، جاءتني معرفة غير عادية ، وقوى غير عادية أيضاً ، ما كنت لأحلم بها قط من قبل . كنت دائماً أظن اننا بقبولنا . للأشياء فإنها تغلبنا بطريقة او بأخرى . لكن ثبت أن هذا غير صحيح أبداً ، وأنه ليس كالقبول بها ما يمكننا من اتخاذ موقف ازاءها[1] . لذلك اعتزم الآن أن العب لعبة الحياة ، لأني أصبحت قادرة على تقبل كل ما يحدث لي من خير وشر ، وشمس وظل يتعاقبان أبداً . وبهذه الطريقة نقبل أيضاً طبيعتنا الخاصة بجوانبها الإيجابية والسلبية . وبذا يصبح كل شيء أكثر حياة بالنسبة إلي . كم كنت حمقاء ! كم حاولت أن أقسر كل شيء على السير وفق ما كنت أظن أنه يجب أن يكون !

---

(١) ـ انحلال المشاركة الصوفية .

وليس الا على أساس من مثل هذا الموقف ، الذي لا ينكر شيئاً من القيم التي اكتسبناها في مجرى التطور المسيحي ، بل على العكس يحاول بالمحبة والسماحة المسيحيتين أن يقبل حتى أوضع الأشياء في أنفسنا ، ما يتيح لنا الوصول الى مستوى أعلى من الوعي والثقافة . هذا الموقف هو موقف ديني بالمعنى الأصح ، وبالتالي شفائي ، لأن جميع الأديان تشفي من الأحزان ومن أمراض الروح . ان تزايد نموّ العقل الغربي وإرادته أعطانا ما يكاد أن يكون قوة شيطانية على محاكاة مثل هذا الموقف ، بنجاح ظاهر ، بالرغم من احتجاجات الخافية . غير أن المسألة ما هي الا مسألة وقت حتى يجبرنا الوضع المضاد على الاعتراف به بطريقة أو بأخرى . ان محاكاة موقف تنتج دائماً وضعاً غير مستقر ، يمكن أن تقلبه الخافية في كل وقت ، واننا لن نجد أساساً صحيحاً الا اذا أولينا المقدمات الغريزية الموجودة في الخافية نفس الاعتبار الذي نوليه وجهات النظر العقلية الواعية . لا شك ان هذه الضرورة من إعطاء الاعتبار للخافية يتعارض تعارضاً شديداً مع عبادة الغرب للواعية ولا سيما الغرب البروتستانتي . ومع ذلك ، وإن كان الجديد يبدو دائماً عدو القديم ، فكل من يرغب في فهم يزيد على الفهم السطحي لا يسعه الا أن يتبين انه بدون أن نطبق القيم المسيحية التي اكتسبناها تطبيقاً أكثر جدّية ، لا يمكن أن يحدث التكامل الجديد .

الإتمام

ان زيادة معرفتنا بالشرق الروحي يجب الا تكون بالنسبة لنا غير تعبير رمزي عن إقامتنا لعلاقة مع العناصر الموجودة في أنفسنا وما زالت غريبة عنا . ان نكران مقدماتنا التاريخية حماقة بالغة وهو خير الطرق التي تقودنا الى اقتلاعنا من جذورنا . وليس الا الوقوف بثبات على أرضنا الخاصة بنا ما يتيح لنا أن نتمثل روح الشرق .

يقول شيخ قديم في وصف الناس الذين لا يدرون أين تقع منابع القوى الخبيئة : «الناس الدنيويون يُضيّعون الجذور ويتعلقون بأعالي الشجر» . ان روح الشرق طلعت من الأرض الصفراء ، وتستطيع روحنا ، بل يجب عليها ، الا تطلع الا من أرضنا . وإني ، لهذا السبب ، أتناول هذه المشاكل بطريقة كثيراً ما كانت موضع انتقاد بأنها «سيكولوجيزم» (= رد كل شيء الى علم النفس والمبالغة في ذلك) . فإن كان المراد بذلك «علم النفس» فإنه إطراء لي ، لأن قصدي هو حقاً أن اطرح بلا رحمة جميع الدعاوى الميتافيزيقية لكل تعليم باطني ؛ الغرض الخفي لاكتساب القوة من خلال الكلمات لا يتفق مع جهلنا العميق - الذي يجب أن نتحلّى بالتواضع لكي نقرّ به . وإن قصدي الثابت هو أن آتي بالأشياء التي لها رنين ميتافيزيقي الى وضح النار من الفهم السيكولوجي ، وأن أبذل كل جهد لمنع العامة

من الإيمان بكلمات القوة الغامضة . ليؤمن المسيحي المقتنع لأن هذا الإيمان هو واجبه الذي أخذه على عاتقه . أما غير المسيحي فقد خسر نعمة الإيمان (ربما كان ملعوناً منذ الولادة من حيث عدم قدرته على الإيمان ، بل على المعرفة فقط) . لذلك ليس من حقه أن يضع إيمانه في مكان آخر . ليس يسع الإنسان أن يفهم الأشياء ميتافيزيقياً ، لكنه يستطيع أن يفهمها سيكولوجياً . لذلك انزع عن الأشياء غطاءها الميتافيزيقي ، لكي أجعل منها موضوعات من السيكولوجيا . بهذه الطريقة أستطيع على الأقل ان استخلص شيئاً مفهوماً منها ، وأن أفيد نفسي منها . زد على ذلك اني أعلّم نفسي على معرفة الأحوال والشروط والسياقات السيكولوجية التي كانت من قبل محجوبة وراء الرموز وفوق متناول فهمي . واني بعملي هذا استطيع أيضاً أن اتتبع طريقاً مماثلاً وأختبر خبرات مماثلة ، بحيث لو ظل عنصر ميتافيزيقي لا يمكن التعبير عنه ، لأتيحت له خير فرصة للكشف عن نفسه .

ان اعجابي بكبار فلاسفة الشرق لهو إعجاب أصيل بمقدار ما يتّسم موقفي من ميتافيزيقياتهم بعدم التوقير(١) . وإنه ليخامرني ظن بأنهم علماء نفس رمزيون ، ليس أفدح من الضرر الذي ننزله بهم من ان نفهمهم حرفياً . فلو كان ما يريدونه هو ميتافيزيقيات حقاً . لكانت محاولة فهمهم أمراً لا جدوى منه ، لكن إن كان ما يريدونه هو علم نفس ، فإننا لا نستطيع أن نفهمهم وحسب ، وإنما نستطيع أن ان نجْني منهم فوائد جمّة ، لأن ما يُسمى «ميتافيزيقا» يدخل عندئذٍ في نطاق الخبرة . فلو سلمت بأن إلهاً ما يتصف بالإطلاق ويعلو على كل خبرة بشرية ، لغادرني بارداً . لا أؤثر فيه ولا يؤثر فيّ . لكن لو علمت بأن الإله باعث شديد القوة في نفسي ، لبادرت فوراً الى الاهتمام به ، لانه يستطيع أن يصبح أمراً هاماً عندئذٍ ، حتى ولو كان هذا لا يبعث على سرور ، بل حتى ولو كان هذا بطرائق عملية ، قد تبدو مبتذلة الى حد مخيف ـ شأن كل شيء يرجع الى نطاق الواقع .

---

(١) ـ فلاسفة الصين ـ خلافاً لدغماطيقيي الغرب ـ يرجع اليهم الفضل في مثل هذا الموقف ، لأنهم أيضاً سادة آلهتهم . (ر . و) .

ان التقريع بـ «السيكولوجيزم» لا ينطبق الا على أحمق يظن أن روحه في جيبه؛ والحق ان عدد هؤلاء الحمقى لهو أكثر من اللازم ، لأننا بالرغم من معرفتنا استخدام الكلمات الكبيرة عن «الزوح» ، الا ان الانتقاص من قيمة الأشياء النفسية لم يزل من سوابق الحكم الغربية النموذجية . فلو استخدمتُ مفهوم «العقدة النفسية المستقلة» لسارع القارىء الى سابق الحكم قائلاً ، ما هي الا عقدة نفسية . كيف يمكننا أن نتأكد ان الروح ما هي إلا ؟ أن الأمر ليبدو كما لو أننا لم نعرف ، أو أننا ننسى دائماً ، ان كل شيء نشعر به هو صورة ، وان هذه الصورة هي نفس . ان من يظنون أن الله يُنتقص منه لو أننا فهمناه شيئاً يتحرك في النفس ، مثلما هو قوة محركة لها ، أي لو فهمناه «عقدة مستقلة» ـ ان هؤلاء أنفسهم قد يخضعون لعواطف لا ضابط لها ولحالات عصابية في العقل بحيث تؤول ارادتهم وكل فلسفة لهم الى اخفاق بائس . هل كان على المعلم اكهارت ان يُتَّهم بالسيكولوجيزم عندما قال ، «يجب ان نلد الله في الروح مرة بعد مرة» ؟ ليس لتهمة السيكولوجيزم من مبرر الا في حالة نموذج العقل الذي ينكر طبيعة العقدة المستقلة ويعمل على تفسيرها بطريقة عقلية بما هي حاصل أسباب مجهولة ، أي بما هي موجودة بغيرها ؛ لا بما هي موجودة بنفسها . ان في هذا الرأي الأخير من الغطرسة مثل ما في التوكيد «الميتافيزيقي» ، الذي اذ يتخطى الحدود البشرية ، ينسب الى ألوهة تقع خارج مجال خبرتنا إحداث حالاتنا النفسية . «السيكو ـ لوجيزم» ليس الا نظيراً للانتهاك الميتافيزيقي ، الذي يتصف بنفس الصبيانية التي يتصف بها هذا الأخير . لذلك يبدو لي من المعقول جدا أن أمنح النفس البشرية نفس المشروعية الممنوحة للعالم التجريبي ، وان أسلّم بأن للأولى مثل «واقعية» الأخير تماماً . النفس ، كما أراها ، هي عالم يشتمل على الأنيّة . ولعل من السمك ما يعتقد انه ينطوي على البحر . يجب أن نتخلص من هذا الوهم العادي ان كنا نريد أن ننظر في الإبانات الميتافيزيقية من منطلق علم النفس .

ان توكيداً ميتافيزيقياً من مثل فكرة «جَسَد الألماس» ، جسم النَفَس الذي لا ينهدم وينمو في الزهرة الذهبية ، أو في فراغ الإنش المربع[1] ؛ هذا الجسم ، مثله

---

(١) ـ صحيح أن في النص الصيني شيئاً من غموض فيما يتعلق بـ «استمرار الحياة» بعد الموت ، حيث=

كمثل كل شيء آخر ، هو رمز لحقيقة نفسية رائعة ، بما هي حقيقة موضوعية ، تظهر أولاً مُسْقَطة في صور ولّدتها خبرات الحياة العضوية، أي ثمرة وجنين وولد وجَسَد حيّ ، وهكذا . هذه الحقيقة النفسية خير ما نعبر عنها بالقول : «انه لست انا الذي احيا ، بل هي التي تحياني . لكن الوهم المتعلق بالقوى الفائقة التي تتمتع بها الواعية تقودنا الى القول : «انني انا احيا» . فإذا أدى الاعتراف بالخافية الى تبديد هذا الوهم ، بدت الأولى شيئاً موضوعياً بما فيه الأنيّة ego . الموقف من الخافية اذن شبيه بشعور البدائي الذي يرى في وجود ابن له ضماناً لاستمرار الحياة . هذا الشعور

= لا يتضح منه ان كان المقصود به امتداداً لوجود فيزيائي . ان تعابير من مثل «اكسير الحياة» وما أشبه تعابير يكتنفها الغموض وتورث الضلال بالتالي . والحق ان الإضافات المتأخرة يتضح منها ان تعليمات اليوغا مفهومة أيضاً بالمعنى الفيزيائي الصرف . بالنسبة الى العقل البدائي ، هذا المزيج العجيب من الفيزيائي والروحي لا يبعث على القلق ، لأن الحياة والموت عنده ليس من الاضداد التي يتمم بعضها بعضاً كما هو حالهما عندنا . (ولعل ما يثير الاهتمام بهذا الصدد على وجه الخصوص ، بالإضافة الى المادة الإتنولوجية المعروفة ، «اتصالات دوائر الإنقاذ» الانكليزية بهذه الأفكار القديمة) . على أننا نجد أيضا نفس الغموض فيما يتعلق بالحياة بعد الموت في المسيحية الأولى حيث تعتمد على افتراضات مماثلة ـ أي على فكرة «جسد النفس» الحامل الأساسي للحياة . (ولعل نظرية جيلي Geley في الباراسيكولوجيا هي آخر إحياء لهذه الفكرة القديمة) . لكن ، بما اننا نجد في النص الصيني تحذيرات من استخدام هذه الفكرة على سبيل الشعوذة والخرافة ، مثلاً . تحذيرات من صنع الذهب ، نستطيع أن نلحّ واثقين ، بدون ان نتناقض مع معنى النص ، على المعنى الروحي لهذه التعليمات . في الأحوال التي تريد التعليمات احداثها ، يلعب الجسد الفيزيائي دوراً يتناقص باطراد ، لأن «جسد النَّفَس» يحل محله (من هنا اهمية التنفس في رياضة اليوغا بعامة) . «جَسَد النَّفَس ليس شأناً روحياً» بالمعنى الذي نفهمه . ان ما تميز به الانسان الغربي أنه شطر الجانبين الفيزيائي والروحي من الحياة بغرض اكتساب المعرفة ، لكن هذين الضدين موجودان معاً في النفس ، ويجب على علم النفس أن يعترف بهذه الحقيقة . «النفسي» يعني الفيزيائي والعقلي . والأفكار التي يشتمل عليها النص انما تتعامل مع هذا العالم المتوسط in - between الذي يبدو لنا مختلطاً غير واضح ، لأن مفهوم «الحقيقة النفسية» ليس شائعاً بيننا بعد ، بالرغم من أنه يحدد لنا مجال الحياة . بدون روح ، يكون العقل ميتاً كالمادة ، لأن كليهما مجردات مصطنعة ؛ على حين أن الإنسان أصلاً اعتبر العقل جسماً هوائياً ، والمادة لا تنقصها الروح .

المتميز قد يتخذ له أشكالاً غريبة ، أشبه شيء بحال الزنجي العجوز الذي صاح غاضباً من ابنه العاق : «هناك يقف بجسدي ، ولا يطيعني مع ذلك» !

انها مسألة تغير يطرأ على الشعور الداخلي شبيه بالشعور الذي يختبره أب يولد له ابن ؛ تغير نعرفه أيضاً من خلال شهادة القديس بولس : «لست أنا الذي (أحيا) ، بل المسيح يحيا فيّ » ان رمز «المسيح» بما هو «ابن الإنسان» هو خبرة نفسية مشابهة : كائن روحي أعلى في هيئة بشرية يولد ولادة غير مرئية في الإنسان ، جسد روحي ، يتيح لنا مسكناً مستقبلياً ، جسد نرتديه ـ كما عبر عن ذلك بولس نفسه ـ كما نرتدي ثيابنا (لأن من تعمد منكم في المسيح يوجد مثلهم من اتخذ من المسيح رداءً) . واضح أنه من الصعب دائماً أن نعبر بصيغ العقل عن المشاعر اللطيفة ذات الأهمية البالغة لحياة الإنسان ورفاهيته . بمعنى ما ، الشيء الذي نحاول أن نعبر عنه هو شعور بأننا قد «اسْتُبدِل بنا» ، لكن من دون أن «نُزحزح» عن موقعنا . انه شعور كما لو أن اتجاه شؤون الحياة قد انتقل الى مركز غير مَرْئي . ولعل المجاز الذي استعمله نيتشه حرّ ، في أقصى عبودية الحب ، مناسب هنا . والخطاب الديني حافل بالخيال الذي يصور هذا الشعور من الاتكال الحر ، والسكينة والعبادة .

في هذه الخبرة الرائعة أرى ظاهرة هي أثر من انفصال الواعية ، فيها يصبح الذاتي (أنا احيا) شأنا موضوعياً بالقول (يحياني) . ونشعر أن هذه الحالة أعلى من الحالة الأولى ؛ حقاً انها كما لو كانت نوعاً من الإفلات من ربقة الاضطرار والمسؤولية المستحيلة التي هي نتيجة لا مناص منها من نتائج المشاركة الصوفية . هذا الشعور بالتحرر إنما يملأ بولس تماما . انه الشعور بكونه ابنا لله الذي يحرر الإنسان من سحر الدم . وهو أيضاً شعور بالمصالحة مع كل ما يحدث ، وهذا هو السبب ، على ما جاء في كتاب (هُوي منْغ تشنْغ) ، الذي يجعل من بلغ الإتمام يعود الى جمال الطبيعة .

في رمز المسيح البولياني (= نسبة الى القديس بولس) يتلاقى اعمق الخبرة الدينية في الغرب والشرق وجهاً لوجه : المسيح البطل المثقل بالأحزان ، والزهرة الذهبية التي تزهر في القاعة الأرجوانية من مدينة اليشب ـ ما أبعد المفارقة ، وما أشد

الاختلاف ، وما أعمق هوة التاريخ . انها لمشكلة جديرة بأن تتوّج عمل عالم نفسي مستقبلي !

من المشاكل الدينية الكبرى في العصر الحاضر مشكلة لم تحظ الا بقليل من الانتباه ، مع انها المشكلة الرئيسية في هذا العصر ، وأعني بها مشكلة تقدم الروح الديني . ان كان علينا ان نبحثها ، فلا بد لنا من أن نشدد على الفرق بين الشرق والغرب في معالجتهما لـ «الدرّة» ، أو «الجوهرة» ، أي الرمز المركزي . الغرب يشدد على التجسيد البشري ، بل وحتى على شخصية المسيح وتاريخيّته ، بينما يقول الشرق : بلا بداية ولا نهاية ، بلا ماض ولا مستقبل(١) . المسيحي ، طبقاً لمفهومه ، يخضع نفسه الى الشخص الإلهي الأعلى أملاً في نيل «نعمته» ، بينما الشرق يعرف أن الخلاص يتوقف على «العمل» الذي يُجريه المرء على نفسه . الطاو يطلع من الإنسان . اما محاكاة المسيح Imitatio Christi ففيها هذا المأخذ : في السياق الطويل نعبد كمثال إلهي إنساناً جَسّد أعمق معاني الحياة ، ثم ننسى ، بفعل المحاكاة الصرفة ، ان نحقق أعمق معانينا ـ تحقيق الذات . في الحقيقة ، ليس بالأمر غير المريح اطلاقاً أن يتنكر المرء لمعناه الحقيقي . فلو أن يسوع فعل ذلك ، لربما صار نجاراً محترماً ، لا المتمرد الديني الذي قد يجري عليه اليوم ما قد جرى عليه في الماضي .

يمكننا ان نفهم محاكاة المسيح فهماً جيداً بطريقة أعمق . يمكننا أن نفهمها تحقيقاً لأعمق معتقداتنا ، التي هي أتم تعبير عن مزاج الإنسان ، بنفس الشجاعة ونفس التضحية بالذات التي أظهرها يسوع . لحسن الحظ ـ يجب أن نقول ـ ليس كل واحد مؤهلاً للقيام بمهمة قيادة البشرية ، وليس كل واحد مؤهلاً لأن يكون متمرداً ، ولذلك قد يكون ممكناً لكل واحد منا أن يحقق نفسه على طريقته الخاصة . ان هذا الإخلاص خليق بأن يصبح مثلاً أعلى حتى . بما أن البدع العظيمة تبدأ دائماً في الأمكنة التي لا تخطر على البال ، من ذلك مثلاً ان انساناً اليوم لا يكاد يخجل من عُريه تماماً مثلما كان

---

(١) ـ القسم الثامن من كتاب (هوي منغ تشنغ) .

يخجل منه من قبل ؛ ان هذه الحقيقة ربما تصبح بداية لتعرف الإنسان على نفسه كما هي . ثم يلي ذلك مباشرة تعرّف مطّرد على أشياء كثيرة كانت فيما مضى من المحرمات الغليظة ، لأن حقيقة الأرض لن تظل محجوبة الى الأبد مثل «عذارى فيلاندا» التي تكلم عنها ترتوليان* ، إن اماطة اللثام الاخلاقي ليس إلا خطوة واحدة الى الامام في نفس الاتجاه ، ثم هو ذا انسان يقف كما هو ، ويعترف لنفسه بأنه هو كما هو . فإذا فعل ذلك بطريقة لا معنى لها كان أحمق ، اما اذا عرف معنى ما يصنع فيمكنه الارتقاء الى مقام أعلى من الإنسان الذي يحقق الرمز المسيحي ، بصرف النظر عن الآلام . غالباً ما نلاحظ أن المحرمات الحسية كلياً أو الطقوس السحرية في مرحلة أولى من ديانة ما تصبح في المرحلة التالية مسألة شأن نفسي ، أو حتى مسألة رموز روحية كلياً . وبمرور الأيام ، يصبح القانون الخارجي قناعة داخلية . وبذلك قد يحدث لإنسان معاصر ، وخاصة ان كان بروتستانتياً ، أن يصبح شخص يسوع ، الذي ظل حتى حينئذٍ خارج نطاق التاريخ ، الإنسان الأعلى في داخل نفسه . عندئذٍ نكون قد بلغنا ، بطريقة اوروبية ، الحالة السيكولوجية التي تنطبق على «الاستنارة» بالمعنى الشرقي .

كل هذا خطوة في تطوير واعية بشرية أعلى على طريق يفضي بنا الى اهداف نجهلها ، لكنه ليس ميتافيزيقيا بالمعنى العادي . حتى الآن انه ليس إلا «سيكولوجيا» ، لكنه حتى الآن أيضاً سيكولوجيا يمكن اختبارها ، وقابلة للفهم - وبفضل الله - حقيقة . هذه حقيقة يمكننا صنع شيء بها ، حقيقة تحتوي على امكانيات ، وهي - بالتالي - حقيقة حسية ، ان اقتصاري على ما يمكن اختباره سيكولوجياً ، ونبذ ما هو ميتافيزيقي ، ليس معناه ، كما يمكن لكل ذي بصيرة أن يفهم ، انه إيماءة الى ريبية او لا أدريّة تجاه الإيمان أو الثقة بقوى عليا . ان ما أقوله هو تقريباً نفس الشيء الذي رمى اليه كانط ، وهو في صدد «الشيء في ذاته» عندما أسماه «مفهوم الحد السلبي ليس إلا Grenzbegrift يجب الابتعاد عن كل إبانة عن

(*) أحد آباء الكنيسة في عصور المسيحية الأولى ممن دافعوا عنها بحماس - المترجم -

المتعالي لأنها دائماً ليست غير فرضية مضحكة من جانب العقل البشري الذي لا يعرف حدوده . لذلك ، عندما نصطلح على أن الله ، أو الطاو ، هو دفق من الروح ، أو حالة من الروح ، فهذا يعني أن شيئاً ما يقال عن المعلوم فقط ، ولا شيء عن المجهول الذي لا يمكن تعيينه .

خاتمة

كان الغرض من هذا الشرح محاولة إقامة جسر من التفاهم السيكولوجي بين الشرق والغرب . فالاساس في كل فهم حقيقي هو الإنسان ، ولذلك كان علي أن أتكلم على أشياء بشرية . وهو عذري عن اقتصاري على معالجة المظاهر العامة فقط ، وعن عدم دخولي في تفصيلات تقانية . الوجهة التقانية ذات قيمة لمن يعرفون ، مثلاً ، ما هي ماكنة التصوير أو ما هو المحرك الانفجاري ، لكنها غير ذات جدوى لمن ليس عنده فكرة عن هذه الأجهزة . فالإنسان الغربي الذي أكتب له هو في وضع مشابه . لذلك بدا لي ان أهم شيء ان أشدد على التوافق بين الحالات النفسية ورموز الشرق والغرب بواسطة هذه المشابهات نفتح مدخلاً الى الحجرات الجوانية من العقل الشرقي ، وهو مدخل لا يتطلب التضحية بطبيعتنا ، ومن هنا لا يتهددنا باقتلاعنا من جذورنا . لا ، ولا هو منظار فلكي (تلسكوب) أو مجهر كيماوي (ميكروسكوب) يتيح لنا نظرة لا تعنينا بصفة أساسية لأنها لا علاقة لها بنا . وإنما هو جوّ من المعاناة والسعي والمجاهدة شائع بين جميع الشعوب المتمدنة ؛ وهو الخبرة الهائلة التي يصير فيها الإنسان واعياً ، خبرة فرضتها الطبيعة على البشرية ، وتوحد أكثر الثقافات اختلافاً في مهمة واحدة .

الواعية الغربية ليست بالواعية عموماً ؛ انها عامل مقيَّد تاريخاً ومحدود جغرافياً ، ولا تمثل غير جانب واحد من إنسانية الإنسان . ان توسيع واعيتنا يجب الا يمضي على حساب أنواع أخرى من الوعي ، بل يجب أن يحدث من خلال نموّ العناصر النفسية التي تشبه عناصر النفس الغربية ، تماماً كما ان الشرق لا يستطيع الاستغناء عن تقانيتنا وعلومنا وصناعاتنا . ان الغزو الأوروبي للشرق كان عملاً من أعمال العنف على نطاق واسع ، وقد رتب علينا واجباً ـ التزاماً نبيلاً ـ هو أن نفهم العقل الشرقي . وربما كان هذا أكثر ضرورة مما ندركه في الوقت الحاضر .

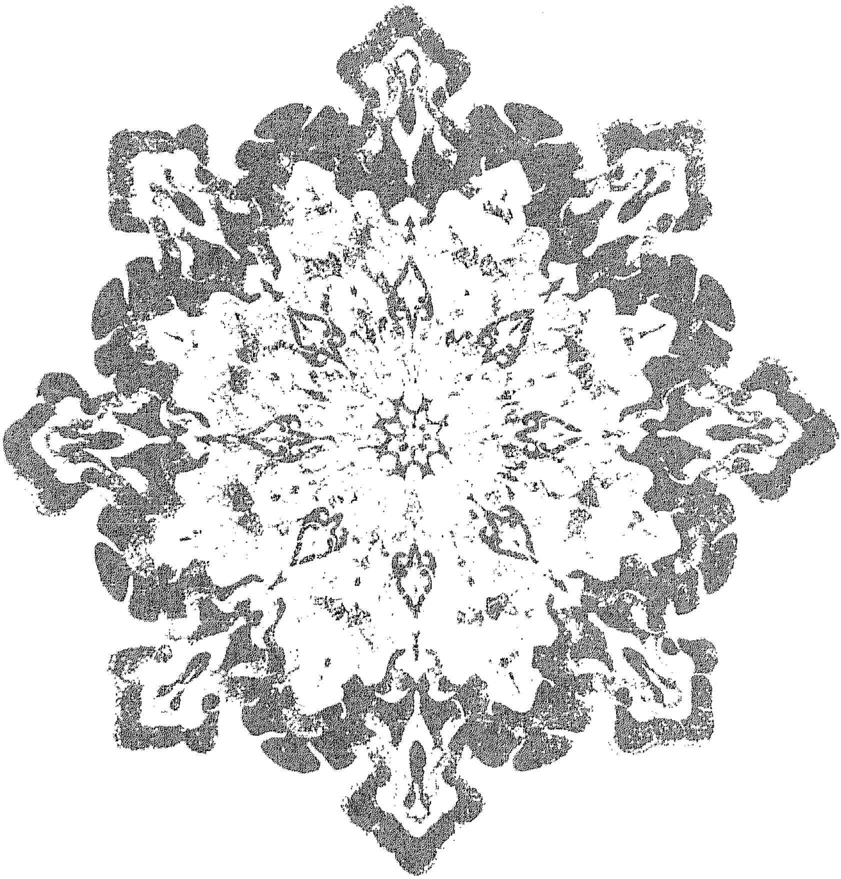
أمثلة على المنادل الأوروبية

رسم الصورتين بين الصفحات* و مريضان على نحو ما هو موصوف في النص الصيني . ترجع الأولى منهما الى ١٩١٦ . اما سداسيات (الآي تشنغ) في الصورة (٤) فجاءت من قراءة لترجمة Legge التي نشرت في سلسلة الكتب المقدسة الشرقية ، وقد رسمتها مريضة ذات ثُرّبة جامعية لما بدا لها فيها من معنى مخصوص لحياتها . لم أعرف مندلة اوروبية (ولدي منها مجموعة لابأس بها) تحقق من الانسجام والكمال المتفق عليهما تقليدياً ما تحققه المندلة الشرقية . وقد تخيّرت من المنادل الأوروبية عشراً من نوعيات كثيرة ، ولا بدّ لها ، في مجموعها ، ان تبين لنا بجلاء التقابل بين الفلسفة الشرقية وسياقات الخافية في الغرب .

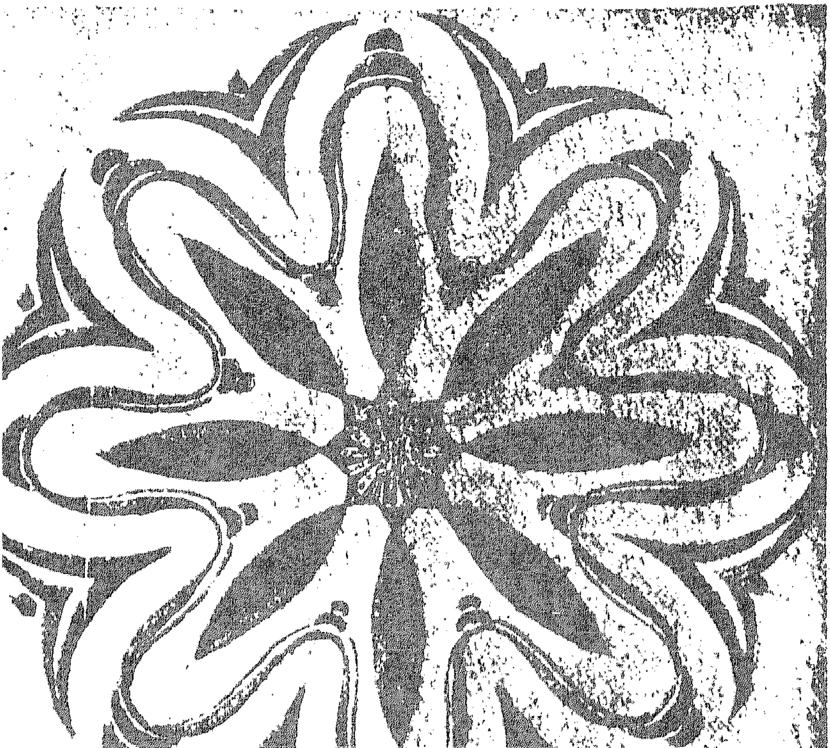
ك . غ . يونغ

---

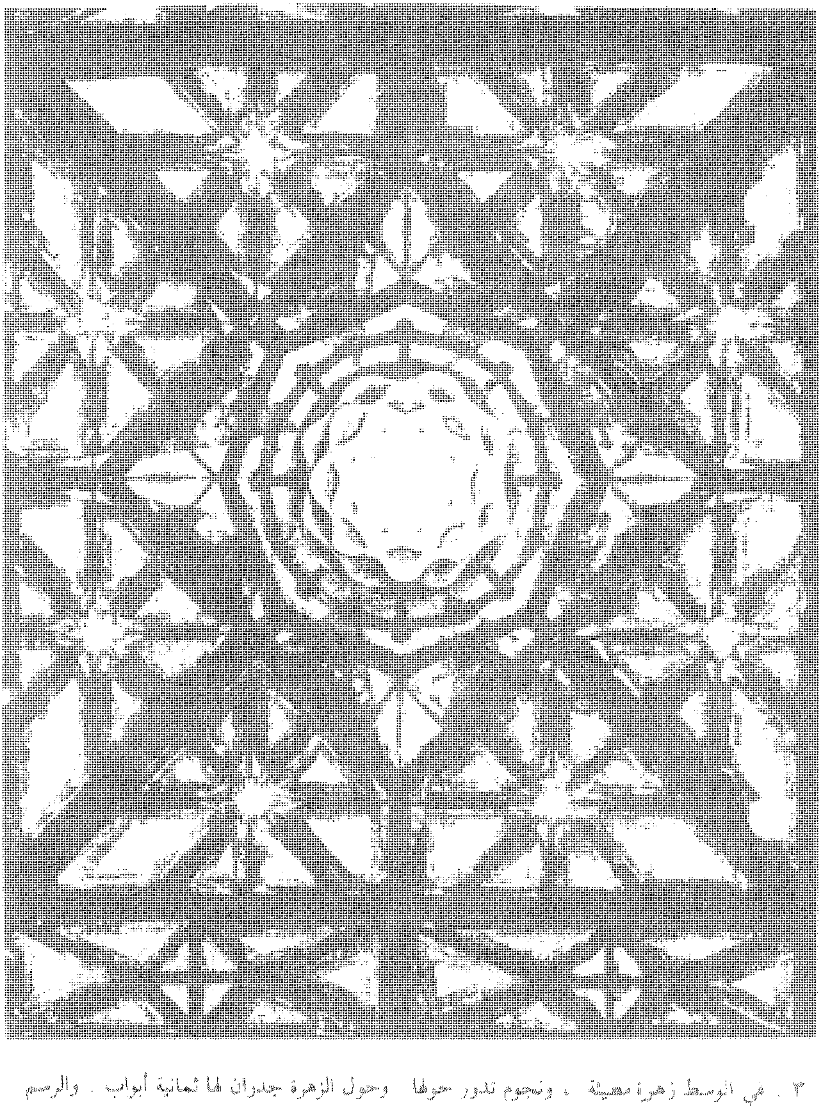
* في الأصل الانكليزي مليء الفراغ برقمي ١٣٦ و١٣٧ ، وبما أن الإشارة الى صورتين فليس هناك الا صورة واحدة على الصفحة المرقومة بـ ١٣٧ ! ـ المترجم ـ .



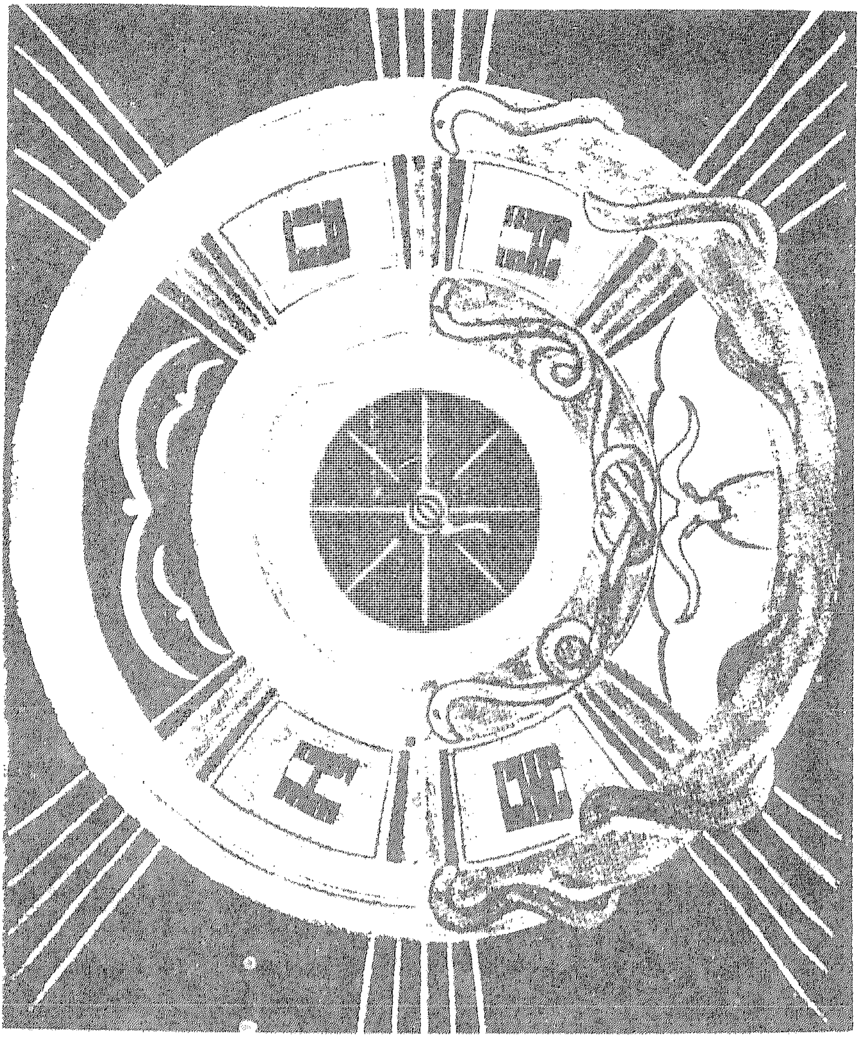
١ . الزهرة الذهبية متمثلة بما هي أروع من جميع الأزهار



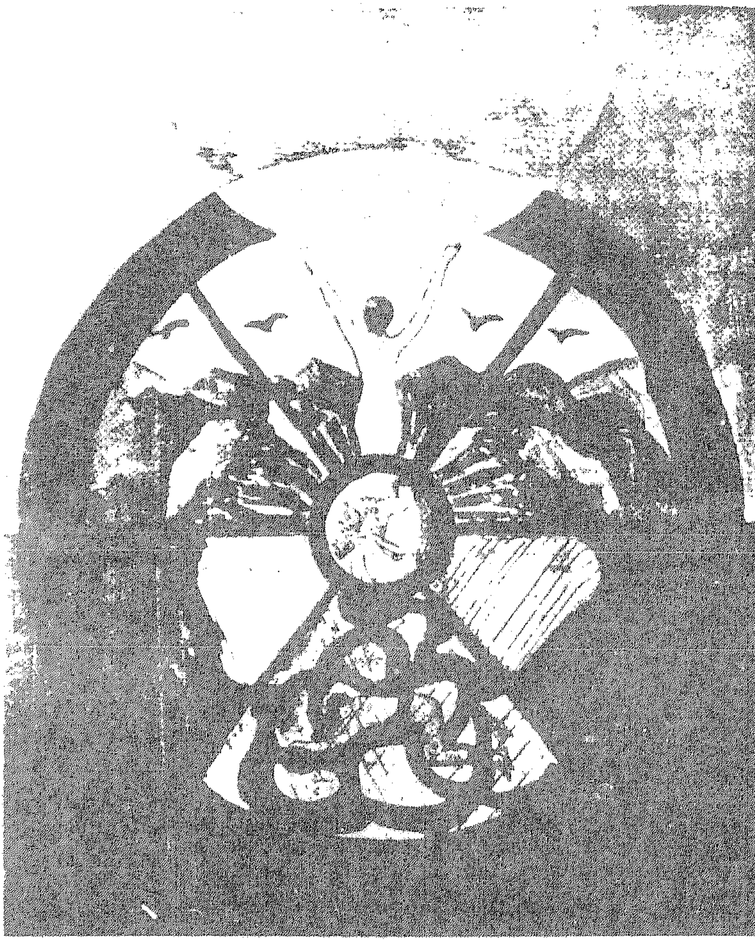
٢ . في المركز ، الزهرة اللهبية ، يشع منها الأسماك التي ترمز الى الخصوبة (تقابلها الصواعق في المنادل اللاماوية)



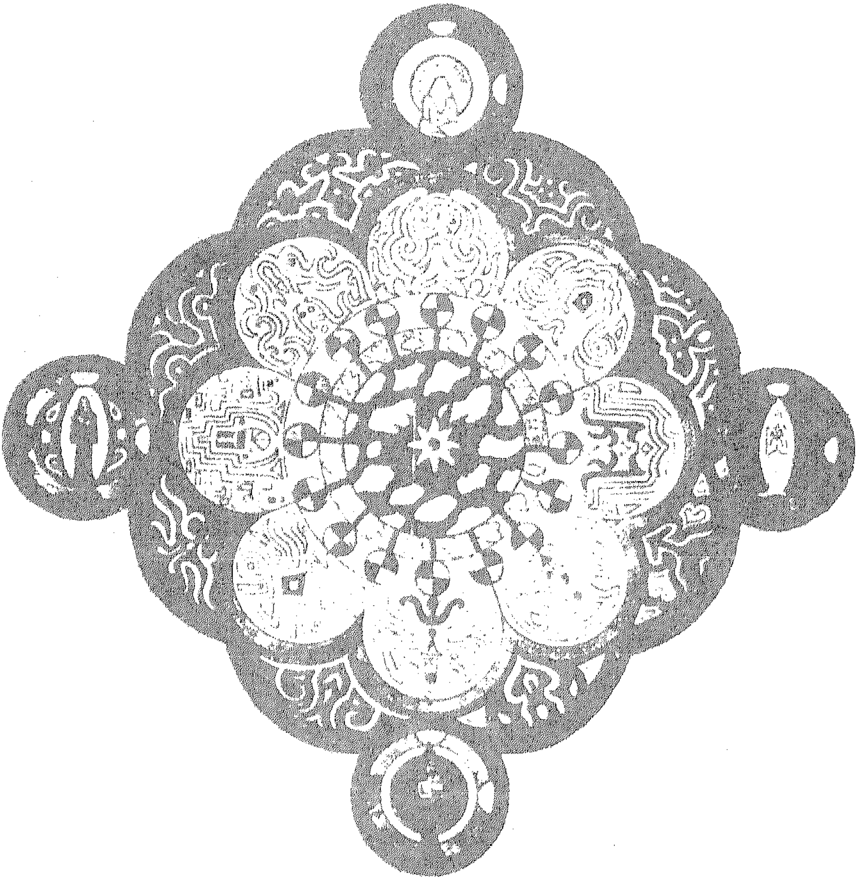
٣ . في الوسط زهرة مضيئة ، ونجوم تدور حولها وحول الزهرة جدران لها ثمانية أبواب . والرسم بجمله عبارة عن نافذة شفافة .



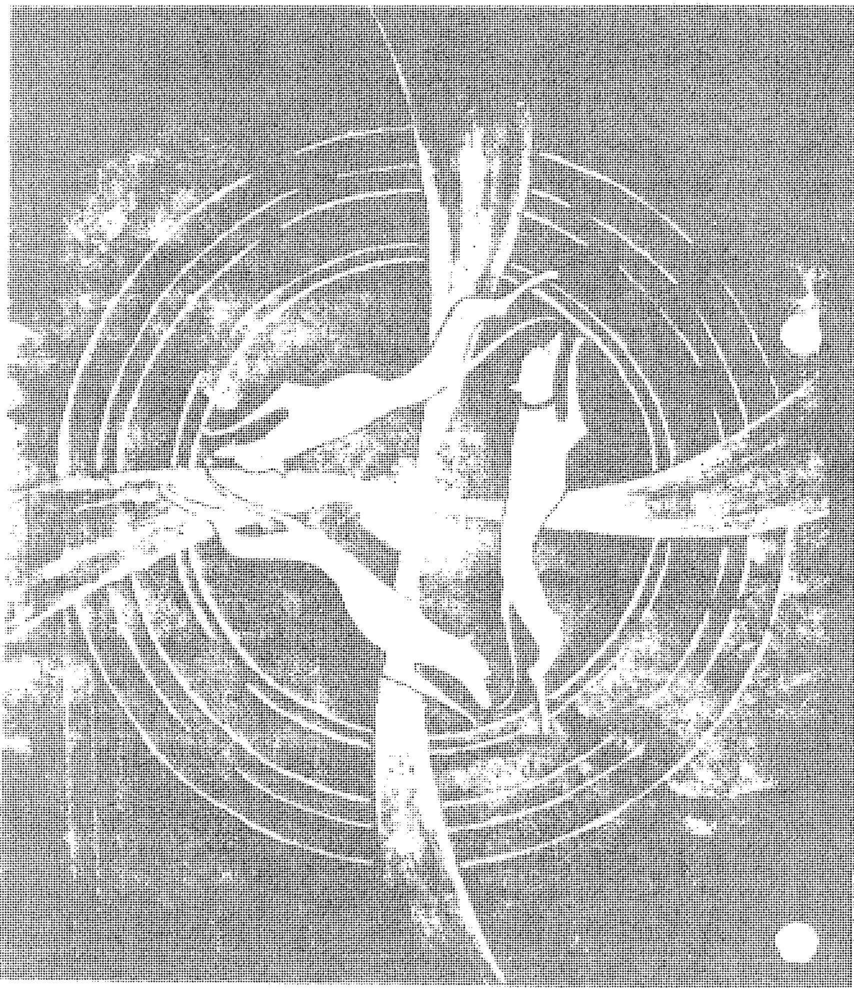
٤ . انفصال عالم الهواء وعالم الأرض . (الطيور والثعابين) .
في الوسط زهرة ذات نجم ذهبي



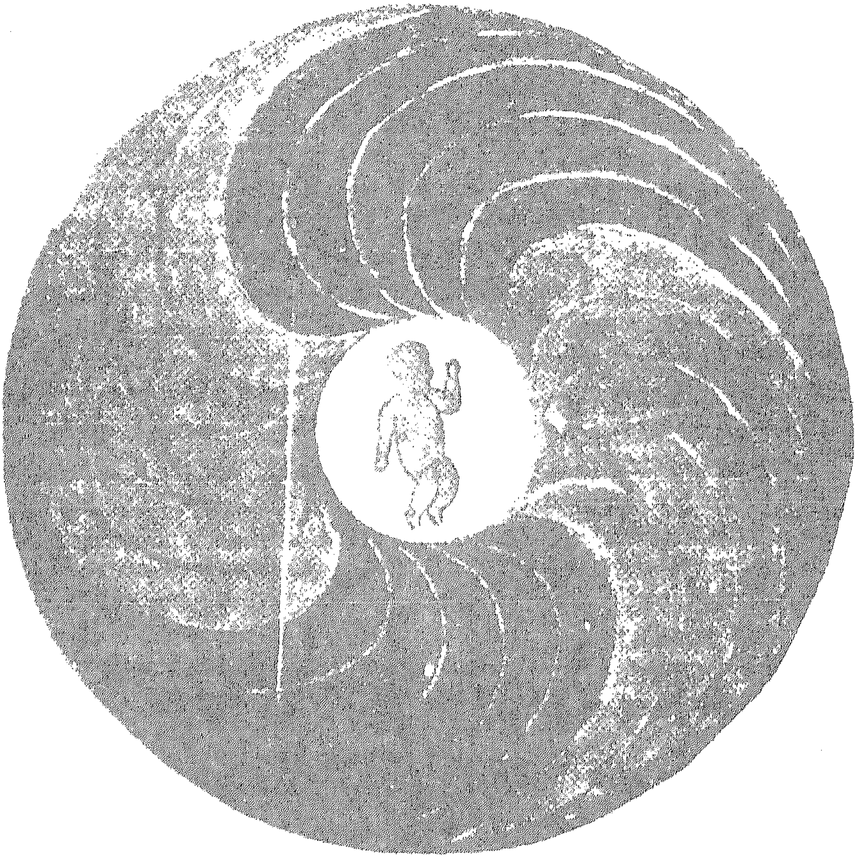
٥ . نفصال النور عن عالم الظلام ، الروح السماوي عن الروح الأرضي .
في الوسط رسم للتفكر



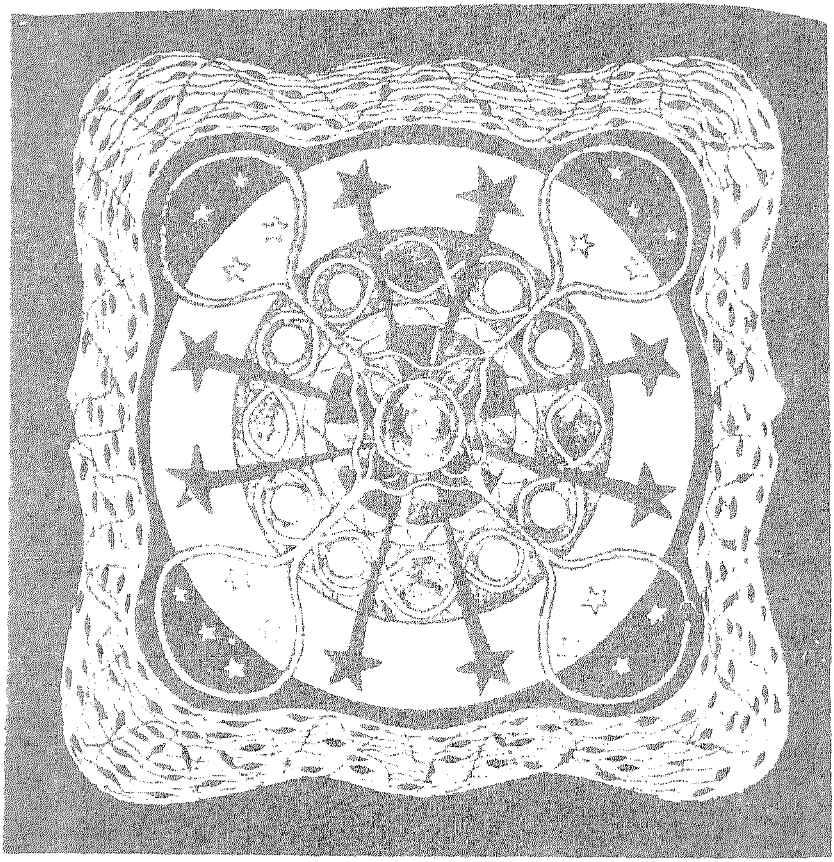
٦ . في الوسط ، النور الأبيض يشع في السماء ؛ في الدائرة الأولى ، بزر الحياة البروتوبلاسمي ؛ في الثانية ، المبادىء الكونية الدائرة التي تحتوي على الألوان الأولية الأربعة ؛ في الثالثة والرابعة القوى المبدعة التي تعمل باتجاه الداخل والخارج في الجهات الأصلية الأربع . الروحان المذكر والمؤنث ، كلاهما ينقسم ثانية إلى نور وظلمة



٧ ـ رسم يمثل الزوابع في حركة دائرية



٨ . طفل في الخريطة الجرثومية والألوان الأربعة الأولية داخلة في الحركة الدائرية .



٩ . في الوسط ، الحويصلة الجرثومية وفيها شكل يمثل انساناً يتغذى بأوعية دموية ذات أصل كوني . الكون يدور حول المركز الذي يجتذب ما ينبعث منه . حول القسم الخارجي يمتد نسيج عصبي يشير الى أن السياق يجري في الضفيرة الشمسية .



١٠ . منمنمة تمثل في مدينة محصنة ذات سور وخندق . في الداخل خندق غير عميق تحيط به سور ،
مخمس ستة عشر برجا وحصن داخلي آخر . والخندق الآخر محيط بقلعة مركزية ذات سطوح ذهبية
وفي مركزها معبد ذهبي

ملحق
في ذكرى ريتشارد ويلهلم(1)

ليس الكلام عن ريتشارد ويلهلم عن عمله بالمهمة اليسيرة ، لأن طريقينا ، رغم أن كلّاً منهما قد بدأ بعيداً جداً عن الآخر ، تقاطعتا كما تتقاطع المذنبات . لقد كان لعمله الحياتي مجالٌ ما أتيح لي أن أحيط به . لا ، ولا شاهدت تلك الصين التي صاغته في أول أمره ثم مضت من بعد في الاستحواذ عليه فكراً وشعوراً ؛ زيادة على ذلك اني لا أعرف لغتها ، وهي التعبير الروحي الحي عن الشرق الصيني . والحق إني لأقف كما يقف الغريب خارج اقليم واسع من المعرفة والخبرة عمل فيهما ويلهلم كما يعمل المعلم في حرفته . فهو العالم بالصينيات ، وأنا الطبيب ، ما كنا لنلتقي لو بقي كل منا في نطاق اختصاصه . ولكننا التقينا في حقل من العلم الإنساني يبدأ خارج حدود المناصب الأكاديمية . هناك تقع نقطة التقائنا ؛ وهناك انطلقت الشرارة التي أضاءت المصباح الذي كان مقدّراً له أن يصبح بالنسبة لي من أعظم الأحداث الحافلة بالمعاني في حياتي . بسبب هذه الخبرة يمكنني أن أتكلم عن ويلهلم وعن عمله ، وأنا أفكر الآن باحترام وامتنان لهذا العقل الذي شيّد جسراً بين الشرق

(1) ـ القي هذا الخطاب التذكاري في ميونيخ في ١٠ ايار (مايو) من عام ١٩٣٠ . لكنه لم ينشر مع «سر الزهرة الذهبية» باللغة الألمانية الا في الطبعة الخامسة في عام ١٩٥٧ . (ك . ف . ب) .

والغرب ، وأعطى الغرب ذلك الإرث الثمين لثقافة عمرها آلاف السنين ، ثقافة ربما كان محكوماً عليها بالتواري .

أمتلك ويلهلم من الإحاطة ما لا يمتلكه الا من تجاوز حدود اختصاصه ، ولذلك أصبحت معرفته همّاً يعني الإنسانية جمعاء ، أو انها كانت كذلك في البداية وبقيت كذلك دائماً . وإلا فأي شيء آخر كان خليقاً بأن يحرره من ضيق أفق الأوروبي والمبشر تحريراً تاماً، ويجعله يضحي بسابق حكمه في سبيل هذه الدرة النادرة ؟ والحق انه لم يكد يواجه سر الروح الصيني حتى عرف فيه الكنز المخبأ لنا . لا بد الا ان يكون هناك حب عظيم يعممّ البشرية كلها ، وعظمة قلب تؤله الكلّ ، اتاحت له أن ينفتح بلا تحفظ على روح أجنبية بهذا العمق ، وأن يضع في خدمة هذا التأثير المواهب والمقدرات الكثيرة التي يمتلكها عقله . وعندي أن انكبابه على موضوعه بحد ذاته لشاهد على روح عظيمة لا نظير لها ، هذا الى تخطّيه لكل ضغينة مسيحية وكل وقاحة اوروبية ؛ ذلك ان العقول المتواضعة (= المتوسطة) ما ان تحتك بثقافة أجنبية حتى تفقد نفسها اما في انسلاخ أعمى عن جذورها ، أو فيما يساوي ذلك من جنوح للنقد يتصف بالوقاحة وعدم التفهم . وهم اذ لا يلامسون من هذه الثقافة الأجنبية غير سطحها ومظاهرها الخارجية ، لا يأكلون من خبزها ولا يشربون من نبيذها ، وبذلك لا يدخلون في روحها العامة ، ويحرمون انفسهم من ذلك الامتزاج والانصهار الذي يهيء لولادة جديدة .

الأصل أن يكون عقل صاحب الاختصاص عقلاً مذكراً صرفاً ، عقلاً الخصوبةُ عنده سياقٌ غريب وأمرٌ غير طبيعي ، ولذلك يكون أداة رديئة التكيف خصوصاً من أجل استقبال روح أجنبية وتوليدها . أما العقل الكبير فيحمل خاتم الأنثى ، وهِبَ رحماً تستوعب وتثمر وتستطيع أن تشكل من جديد ما هو غريب في صورة مألوفة ، لقد امتلك ويلهلم الى اعلى درجة تلك الهبة النادرة من الأمومة الروحية ، وهو مدين لها بقدرته التي لا تُضاهى حتى الآن على القيام بترجمات منقطعة النظير .

وعندي أن أعظم عمل قام به ترجمته لكتاب (آي - تشنغ) والشروح التي وضعها عليه . قبل أن يتاح لي التعرف على ترجمة ويلهلم ، ظللت سنوات اعتمد

ترجمة legge غير المكافئة ، ولذلك كنت في وضع يسمح لي بالتعرف على الفرق الكبير بين الترجمتين . لقد وُفق ويلهلم في بعث هذا العمل القديم ، في صورة حية جديدة ، وهو العمل الذي لا يرى فيه الكثير من العالمين بالصينيات ، لا بل الكثير من الصينيين الحديثين أيضاً ، غير مجموعة من المعادلات السحرية التافهة . ان هذا العمل ، كما لا يجسّده عمل آخر ربما ، هو روح الثقافة الصينية ؛ ذلك أن خيرة العقول في الصين قد تعاونت عليه . وساهمت فيه على مدى آلاف السنين . لقد ظل يعيش ويعمل ، على الأقل من أجل الذين يفهمون معناه ، ولم تنل منه يد البلى بالرغم من عمره الخرافي . وأن نكون نحن أيضاً في جملة هذا الرهط المفضل فهذا ما ندين به الى الجهد المبدع الذي بذله ويلهلم . لقد جعل هذا الكتاب في متناولنا من خلال ترجمة دقيقة وخبرة شخصية اختبرها بوصفه تلميذاً لمعلم صيني من المدرسة القديمة ، ومريداً في سيكولوجية اليوغا الصينية كان عنده التطبيق العملي ل (آي - تشنغ) خبرة دائمة التجدد .

لكن ويلهلم ، الى كل هذه المواهب الغنيّة ، أثقل كاهلنا بمهمة لعلنا لا نستطيع في الوقت الحاضر غير تخمين ضخامتها ، ولكننا لا نستطيع أن نراها تماماً . كل من أسعده الحظ ، كما أسعدني ، أن يختبر ، في تبادل روحي مع ويلهلم ، ما في (الآي تشنغ) من قدرة تنبؤية ، لايستطيع أن يظل جاهلاً مدة طويلة بأننا انما نمَس هنا نقطة ارخميدس التي قد يتقوض منها موقفنا العقلي الغربي من الأساس . ان تَقدُم لنا ، كما فعل ويلهلم ، مثل هذه الصورةالشمولية الغنية الألوان من ثقافة أجنبية ، امر ليس بالخدمة الضئيلة . لكن ما هو أهم من ذلك بكثير انه نقل إلينا الجرثومة الحية للثقافة الصينية القادرة على إحداث تغيير جوهري في نظرتنا الى الحياة . لم يعد بإمكاننا ان نقف موقف المراقب المتعجب أو الناقد ، لأننا أصبحنا شركاء في الروح الشرقي الى الدرجة التي نجحنا فيها في اختبار القوة الفاعلة في (الآي تشنغ) .

تبدو الوظيفة التي يقوم عليها استخدام (الآي تشنغ) للوهلة الأولى متناقضة تناقضاً شديداً مع طريقتنا الغربية القائمة على التفكير السببي العلمي . بعبارة أخرى

، انها غير علمية الى أقصى حد ، لا بل هي من الأمور المحرمة ، وهي لذلك تقع خارج نطاق محاكمتنا العلمية ، لا بل هي غير مفهومة لها .

منذ بضع سنوات ، سألني رئيس الجمعية الانثروبولوجية البريطانية ، كيف استطيع أن أفسر أن شعباً كشعب الصين بلغ هذه المرتبة العالية من الفكر ولم ينتج علماً مع ذلك . أجبته أن قوله هذا ناشيء عن خداع بصري ، لأن الصينيين قد انتجوا «علماً» ، كان «عمله المقياس» هو (الأي تشنغ) . لكن مبدأ هذا العلم ، شأنه كشأن كثير غيره في الصين ، يختلف كلياً عن مبدأ علمنا .

صحيح ان علم (الأي تشنغ) لا يقوم على مبدأ السببية ، بل على مبدأ (حتى الآن لم يُسَمَّ لأننا لم نصادفه بيننا) حاولت تجريبياً ان اسميه المبدأ السنكرونستي Synchronistic Principle . كان انصرافي الى سيكولوجية سياقات الخافية قد اضطرني منذ زمن بعيد الى البحث عن مبدأ تفسيري آخر ، لأن مبدأ السببية بدا لي قاصراً عن تفسير ظاهرات معينة رائعة من الخافية. وقد وجدت ان هناك متوازيات لا يمكن ان تقوم فيما بينها علاقة سببية ، مما يقتضي أن تنهض على نوع آخر من العلاقة . وقد بدا لي ان هذه العلاقة تقوم بصفة رئيسية على تزامن نسبي للحوادث ، ولذلك كان التعبير بـ «السِنكرونُستيّة» Synchronicity . بل بدا لي كما لو أن الزمان ، من دون أن يكون تجريداً ، استمرارية حسيّة تحتوي على صفات أو شروط أساسية تتجلى في وقت واحد في أمكنة مختلفة بحيث لا يمكن تفسيرها بالتوازي السببي ، كما هو الحال ، على سبيل المثال ، في الظهور المتزامن لأفكار او رموز أو حالات نفسية متماثلة . مثال آخر هو تزامن الحقب الطرازية في الصين وفي اوروبا ، وقد أشار ويلهلم الى هذه الحقيقة . ولعل علم التنجيم astrology مثال ممتاز على سنكرونستية جلية لو كان تحت تصرفه لُقىً جرى اختبارها على جميع الأوجه . لكن هناك ـ على الأقل ـ بعض الوقائع التي جرى اختبارها من كل وجه وأيّدتها ثروة من الاحصاءات التي تجعل المشكلة الاسترولوجية جديرة بالبحث الفلسفي . (لا يجد علم النفس صعوبة في الاعتراف بالتنجيم لأنه كان يمثل ذروة المعرفة الفلسفية في العصور القديمة) .

ان يكون ممكناً رسم ملامح شخصية انسان لطريقة مكافئة استناداً الى المعطيات المتعلقة بولادته لدليل على ما في التنجيم من صحة نسبية . غير أن معطيات الولادة لا تتوقف أبداً على النجوم الثوابت ، بل على نظام توقيت استبدادي صرفاً ، ذلك بسبب تقدم أحد الاعتدالين (الربيعي والخريفي) على الآخر كانت نقطة الربيع منذ القديم تتجاوز نقطة الصفر من برج الحمل . بمقدار ما نجد تشخيصات استرولوجية (تنجيمية) صحيحة ، فإن صحتها لا ترجع الى تأثير الأفلاك بل الى الصفات الزمنية التي افترضناها . بعبارة اخرى ، كل ولادة أو عمل في لحظة ما فإنما يتصف بصفات هذه اللحظة .

هذه هي أيضا المعادلة الأساسية التي يقوم عليها استعمال (الآي تشنغ) . واننا لنكتسب المعرفة بالسداسي الذي يصف لحظة ما اذا اتبعنا طريقة الإمساك بعيدان حشيشة الخَزَنْبل Yarrow أو بقطع من النقود ، وهي طريقة تتوقف على مجرد الحظ . وكما تكون اللحظة ، كذلك تتساقط عيدان الحشيشة . والسؤال الوحيد هو : هل استطاع الملك (وين) العجوز وأمير (تشو) ، قبل المسيح بألف سنة ، أن يفسر الصورة الحادثة بتساقط عيدان الحشيشة تفسيراً صحيحاً ؟ فيما يتعلق بهذا ، لا شيء يمكنه أن يُنبئنا بذلك غير الخبرة .

في أول محاضرة له القاها في النادي السيكولوجي بزوريخ ، بيّن ويلهلم ، وكان ذلك بناء على طلب مني ، طريقة استشارة (الآي تشنغ) ، وفي نفس الوقت أجرى مطالعة Prognosis تحققت منها حرفياً وبوضوح لا يخطىء في أقل من سنتين . هذه الحقيقة يمكننا أن نؤكدها بخبرات عديدة موازية . غير أنني لست معنيا هنا بإثبات صحة نبوءات (الآي تشنغ) موضوعياً ، بل أسلّم بها كفرضية ، تماماً كما فعل ذلك صديقي الراحل ـ لذلك ، لن أبحث الا في الحقيقة المدهشة ، وهي ان «الصفات الخفيّة» قد أصبحت شيئاً مقروءاً بواسطة سداسي (الآي تشنغ) . اننا لا نتعامل بعلاقة الحوادث بالمقارنة مع علم التنجيم وحسب ، وإنما بما يرتبط منها ارتباطاً جوهرياً به . فلحظة الولادة تنطبق على العيدان المتساقطة ، والنجوم الثوابت على

السداسي ، والتفسير الاسترولوجي الناتج عن النجوم الثوابت على النص الموضوع فوق السداسي .

ان منهج الفكر المبني على المبدأ السنكرونشي ، الذي بلغ ذروته في (الآي تشنغ) ، لهو أنقى تعبير عن الفكر الصيني بعامة . اما في الغرب فقد غاب هذا الضرب من التفكير منذ زمن هيراقليط ، ولم يعد الى الظهور كصدى خافت الا عند لايبنتز . لكنه ، في غضون ذلك لم ينطفىء ، بل ظل حياً في غسق النظر الأسترولوجي ، ولم يزل الى اليوم عند هذا المستوى .

في هذه الحقبة من زماننا ، يلبي (الآي تشنغ) حاجة فينا الى مزيد من نموّ . فالعلوم الخفية Occultism تتمتع في ايامنا بانبعاث منقطع النظير ، حتى ليكاد نور العقل الغربي أن يعتم به . لست أفكر الآن في مناصبنا التدريسية ولا فيمن يمثلونها . فأنا طبيب وأتعامل مع الناس العاديين ، ولذلك أعلم أن الجامعات لم تعد تعمل كبذارات للنور . لقد تعب الناس من التخصص العلمي . وباتوا يريدون أن يسمعوا من الحقائق ما يوسع آفاقهم ولا يضيقها ، حقائق لا تظلم بل تنير ، لا تفلت من أيديهم كما يفلت الماء ، بل تتغلغل فيهم حتى النخاع . هذا المسعى يهدد بأن يفضي بالجمهور الى سبل خاطئة ان لم تكن مجهولة .

· حينما أفكر فيما أنجزه ويلهلم وفي أهميته ، أتذكر دائماً انكتيل دي بيرون ، ذلك الفرنسي الذي جاء الى اوروبا بأول ترجمة للأوبانيشاد ، بعدما يقرب من ثمانية عشر قرناً من نشوء المسيحية ، في نفس الحقبة التي حدث فيها شيء ما سمعنا بمثله من قبل : إلاهة العقل تخلع الإله المسيحي عن عرشه في نوتردام . واليوم ، عندما حدثت في روسيا أشياء أغرب مما حدث في باريس ، عندما أخذ الرمز المسيحي في اوروبا يبدي من الضعف ما حدا البوذيين الى اعتبار هذه الفترة اللحظة المناسبة لإرسال بعثات الى اوروبا ، إنه ويلهلم ، الممثل لروح اوروبا في حقيقة الأمر ، الذي يجيئنا من الشرق بنور جديد . لقد كانت هذه هي المهمة الثقافية التي شعر ويلهلم انه مدعّو إليها . لقد أدرك كم يستطيع الشرق أن يُعطي من أجل شفائنا من بؤسنا الروحي .

اننا لا نساعد الفقير حين نتكرم عليه بالصدقات ، رغم ان هذه قد تكون هي رغبته . اننا نساعده بطريقة أفضل من ذلك بكثير لو أننا بيّنا له كيف يستطيع أن يحرر نفسه من فاقته بصفة دائمة . لسوء الحظ ، ان الشحاذين الروحيين في زماننا هم أشدّ ميلاً الى قبول صدقات الشرق نقداً ، أي الاستيلاء بلا تفكير على ممتلكات الشرق الروحية وتقليدها تقليداً أعمى . ذلك الخطر الذي يستحيل بشأنه الإفراط في اطلاق التحذيرات ، وهو الخطر الذي شعر به ويلهلم شعوراً قوياً . اننا لا نساعد اوروبا الروحية بمجرد احساس جديد أو دغدغة جديدة للأعصاب . ان ما اقتضى من الصين آلاف السنين لكي تشيده لا يمكننا ان نحصل عليه بالسرقة . يجب علينا ، بدلاً من ذلك ، أن نسعى لاكتسابه ثم امتلاكه . كل ما على الشرق أن يعطينا اياه هو أن يساعدنا على عمل يظل علينا ان نقوم به بأنفسنا . ماذا تفيدنا حكمة «الأوبانيشاد» أو نفاذ رؤية اليوغا الصينية اذا نحن تخلّينا عن الأسس التي تنهض عليها ثقافتنا الخاصة بنا كما لو كانت أخطاء تجاوزتها الحياة ، ونزلنا كالقراصنة الذين لا وطن لهم على شواطىء أجنبية تحدونا نية السلب والنهب؟ قبل كل شيء ، ان نفاذ رؤية الشرق ، وكذا حكمة (الآي تشنغ) ، لا معنى لها اذا نحن أغلقنا عقولنا عن مشاكلنا الخاصة ، وحجبنا انفسنا عن طبيعتنا البشرية الحقيقية بكل ما فيها من تيارات جوفية وظلمات حافلة بالأخطار . ان نور هذه الحكمة لا يضيء الا في الظلام ، لا في ضوء مصباح المسرح الاوروبي الوهاج من الوعي والإرادة . ان حكمة (الآي تشنغ) نشأت في الأصل من أرضية نستطيع أن نتلمس هولها في غموض لو قرأنا عن المذابح الصينية ، والسلطة الرهيبة التي تتمتع بها الجمعيات السرّية الصينية ، والبؤس الذي يعجز الإنسان عن وصفه ، والقذارات والنقائض الميؤوس منها ، والجماهير الصينية .

نحن بحاجة لأن تكون لحياتنا ثلاثة ابعاد إن كنا نريد اختبار الحكمة الصينية اختباراً حيّاً . نحتاج أولا الى الحقائق الأوروبية عن أنفسنا ، لأن طريقنا يبدأ من الواقع الاوروبي لا من ممارسات اليوغا التي ربما لا تفعل شيئاً غير أن تخدعنا عن حقيقتنا . علينا أن نتابع ما بدأ به ويلهلم في الترجمة بمعنى أوسع ان كنا نريد أن نكون

تلاميذ جديرين بالمعلم . فكما ترجم ويلهلم كنز الشرق الروحي الى معنى اوروبي ، كذلك يجب علينا أن نترجم هذا المعنى الى حياة .

لقد ترجم ويلهلم المفهوم المركزي ، الطاو ، بـ «المعنى» ان نترجم المعنى الى حياة ، قد يكون ذلك من مهمة التلميذ . لكن الطاو لن يخلق أبداً بالكلمات او بالوصايا الحكيمة . هل نعرف بالضبط كيف ينمو الطاو فينا أو حولنا ؟ هل يتم هذا بالمحاكاة ، بالفكر ، ببهلوانيات الإرادة ؟ نشعور أن هذا كله لا يتكافأ الا بصورة مضحكة مع المهمة . لكن أين يجب علينا أن نبدأ المهمة التالية ؟ هل تكون روح ويلهلم معنا أو فينا ان لم نحل هذه المشكلة بطريقة اوروبية - أي ، في الواقع ؟ أم يجب أن يبقى هذا ، في التحليل الأخير ، سؤالاً خطابياً يضيع الجواب عنه في التصفيق ؟

لننظر الى الشرق : هناك قدر طاغٍ يحقق نفسه . المدفع الاوروبي فجّر الأبواب الآسيوية ؛ العلم والتكنولوجيا الأوروبيان ، العلمانية الأوروبية والطمع الاوروبي ، كل ذلك قد غرّق الصين . لقد غزونا الشرق سياسياً . لكن ، هل تعلمون ماذا حدث عندما قلبت روما الشرق الأدنى سياسياً ؟ لقد دخلت روح الشرق الى روما . لقد أصبح «ميثرا» إله الجيش الروماني ، ومن ابعد زوايا آسيا الصغرى احتمالاً جاء روحيٌّ جديد الى روما . ألا يستدعي ذلك أن نفكر في احتمال حدوث نفس الشيء اليوم ثم ما نلبث حتى نجد أنفسنا مصابين بنفس العمى الذي أصاب مثقفي روما الذين كانوا يندهشون من خرافات «الكريستوي» ؟ من الجدير بالملاحظة ان انكلترا وهولندا ، وهما اكبر دولتين تستعمران آسيا ، هما أيضاً أكثر الدول تأثراً بعدوى الثيوسوفية الهندوكية . اعلم ان خافيتنا حافلة بالرمزية الشرقية . ان روح الشرق على أبوابنا فعلاً . لذلك يبدو لي أن ترجمة المعنى الى حياة ، البحث عن الطاو ، قد أصبح ظاهرة عامة فيما بيننا ، والى مدى أبعد بكثير مما ندركه بعامة . كذلك يبدو لي أن من اهم علامات الأزمنة أن يُطلب الى ويلهلم وإلى هاور Hauer ، (أحد علماء الهنديّات) ، ان يحاضرا في اليوغا في مؤتمر هذا العام الذي يعقده أطباء النفس الألمان . لِنتبين ماذا يعني لطبيب ممارس يعالج مريضاً ،

وبالتالي متقبّلاً ، أن يقيم صلة مع نظام شفائي شرقي ؟ معنى هذا أن روح الشرق تنفذ في جميع مَسَامِّنا وتصل الى أضعف الأمكنة من اوروبا . قد تكون هذه عدوى خطرة ، لكنها قد تكون أيضاً دواء ناجعاً . ان اختلاط الألسنة البابلية في الغرب قد خلق مثل هذا الضلال الذي جعل كلاً منا يتطلع الى حقائق بسيطة ، أو على الأقل الى أفكار عامة لا تخاطب الرأس وحده ، وإنما تخاطب القلب أيضاً ، حقائق تتيح الوضوح للعقل المتفكر والسلام للمشاعر التي ما تنفك تتعرض للضغط والتوتر . لقد عدنا اليوم ، مثل روما القديمة ، نستورد كل شكل من أشكال الخرافات الوافدة الينا من الخارج لعلنا نجد فيها العلاج الذي يشفينا من أمراضنا .

تعرف الفطرة البشرية ان كل حقيقة عظيمة فهي بسيطة ، ولذلك يحسب الإنسان الضعيف الفطرة ان الحقيقة العظيمة موجودة في جميع التبسيطات والتفاهات الرخيصة . او هو يقع في الخطأ المضاد ، نتيجة للخيبة ، فيحسب ان الحقيقة العظيمة يجب أن تكون بالغة الغموض والتعقيد . اننا نشهد اليوم حركة غنوصية في الجماهير المغفلة الاسم تتطابق كل المطابقة من الناحية السيكولوجية مع الحركة الغنوصية التي قامت لتسعة عشر قرناً خَلَتْ . في ذلك الزمان ، مثلما هو الحال اليوم ، قام جوابون مفردون من أمثال ابولونيوس الكبير بغزل الخيوط الروحية بدءاً من اوروبا رجوعاً الى آسيا ، وربما الى أقاصي الهند .

اذا نظرنا الى ويلهلم في هذا المنظور التاريخي ، لرأيناه متقنعاً قناع احد وسطاء الغنوصيين العظام الذين عقدوا الصلة بين تراث آسيا الوسطى الثقافي وبين الروح الهليني ، فكانوا سبباً في قيام عالم جديد على أنقاض امبراطورية روما . وفي ذلك الزمان ، مثلما هو الحال اليوم ، عمّ الفيضان قارّة الروح ، ولم يترك غير قمم مفردة طالعة كالجزر من الطوفان الذي لا حدود له . وفي ذلك الزمان ، مثلما هو الحال اليوم ، كانت جميع الطرق الملتوية تشير الى العقل وتزدهر حنطة الأنبياء المزيفين .

وسط هذا التنافر الصارخ في الرأي الأوروبي ، يكون من البركة فعلاً ان نستمع الى لغة ويلهلم البسيطة ، الرسول القادم من الصين . من الواضح انها لغة

تدربت في مدرسة العقل الصيني الذي يشبه النبات في عفويته ، القادر على التعبير عن الأشياء العميقة بلغة واضحة ؛ تكشف النقاب عن شيء من بساطة الحقيقة العظيمة والمعنى العميق . لقد انغرس في تربة الغرب حبّة غضّة . الزهرة الذهبية ، تهبنا حدساً جديداً للحياة والمعنى ، يريحنا من توتر استبدادية الإرادة والغرور .

عندما واجه ويلهلم ثقافة الشرق الغريبة ، ابدى لها درجة عالية من التواضع غير مُعتاد من اوروبي لقد تدانى منها تجربةً ، بلا تغرض ولا ادعاء معرفة أفضل ؛ لقد انفتح لها قلباً وعقلاً . ترك لها نفسه تستحوذ عليها وتشكلها ، حتى عندما رجع الى اوروبا جاءنا بصورة حقيقية للشرق ، لا بروحه وحسب وإنما بكيانه أيضاً . هذا التحول العميق لم يكتسبه قطعاً بدون تضحية عظيمة ، ذلك أن مقدماتنا التاريخية تختلف اختلافاً كلّياً عن مقدمات الشرق . كان لا بد لحدّة الواعية الغربية ومشكلاتها المتوهجة ان تلْطُف امام طبيعة الشرق الأكثر عالمية والأكثر رصانة ؛ وكان على العقلانية الغربية وتمايزها الأحادي أن تخضع امام رحابة الشرق وبساطته . بالنسبة لويلهلم ، لم يكن هذا التحول ليعني تحولاً في المنطلق الفكري وحسب ، وإنما اعادة ترتيب أساسية للأجزاء التي تكون شخصيته أيضاً . ان الصورة التي أعطانا اياها عن الشرق ، وهي صورة خالصة كما هي في حقيقة الأمر من الغرض ومن كل أثر للاستبدادية ، ما كانت لتخلق بمثل هذا الكمال لو لم يكن قادراً على أن يدع الأوروبي في نفسه ينكفىء الى القاع . فلو انه اباح للشرق والغرب أن يصطرعا في داخله بخشونة لا تعرف هوادة ، اذن لأخفق في مهمته الرامية الى تزويدنا بصورة صحيحة عن الصين . لقد كانت التضحية بالإنسان الاوروبي امراً لا فكاك له منه ، وأمراً ضرورياً لإنجاز المهمة التي ألقاها القدر على عاتقه .

لقد أنجز ويلهلم مهمته بأعلى معنى للكلمة . فهو لم يضع في متناولنا كنوز العقل الصيني الغابرة وحسب ، وإنما ـ كما بيّنت ـ جاءنا حاملاً معه جذره الروحي أيضاً ، ذلك الجذر الذي ظلّ حيّاً كل هذه الآلاف من السنين ، وشتله في تربة اوروبا . بإنجازه لهذه المهمة ، قد بلغت مهمته ذروتها ، ولسوء الحظ نهايتها أيضاً . وفقاً لقانون الانقلاب الضدّي ، الذي فهمه الصينيون بكل وضوح ، لقد طلع من

نهاية المـرحلة الواحدة بدايةُ ضدّها . هكذا ينقلب (يانغ) ، في ذروته ، الى (ين) ، وما قد كان إيجابياً يصبح سلبياً . كان اقترابي من ويلهلم في السنوات الأخيرة فقط من حياته ، وقد استطعت يومئذٍ ان ألاحظ كيف أخذت اوروبا والإنسان الاوروبي يصطدمان في نفسه ويلقيان بثقلهما عليه ، وهو يكمل عمل حياته . وفي نفس الوقت ، كان ينمو في نفسه شعور ان بمقدوره الوقوف على حافة تحول كبيـر ، ثورة لم يستطع ـ والحق يقال ـ ان يفهم طبيعتها بجلاء . كان كل ما استطاع ان يعرفه انه كان يواجه أزمة حاسمة . لقد كان مـرضه الجسماني يمشي جنباً الى جنب مع نموه الروحي . كانت احلامه تحفل بذكـريات الصين ، لكن الصـور التي كانت تطوف أمامه كانت دائماً صوراً حزينة ومخيفة ، وكان هذا دليلاً بيّناً على أن المضامين الصينية قد أصبحت سلبية .

لا شيء يمكننا ان نضحي به الى الأبد . كل شيء يعود فيما بعد في صورة مغايـرة ، وحيثما تحدث مثل هذه التضحية الكبيـرة ، حين يعود الينا الشيء الذي ضحينا به ، يجب أن يلاقيه جسد صحيح قادر على المقاومة لكي يتلقى صدمة الثورة الكبيرة .لذلك ان ازمة روحية بهذه الأبعاد انما تعني الموت في كثيـر من الأحيان اذا حدثت في جسم اضناه المـرض . عندئذٍ يكون السكين في يد الضحية ، والموت مطلوباً من المضحي .

كما ترون ، لم أتمسك بآرائي الشخصية ، لأنني لو لم أنبئكم كيف عرفت ويلهلم ، لم يكن بامكاني ان اتكلم عنه بهذه الطـريقة ؟ ان عمل حياة ويلهلم ذو قيمة عظيمة عندي لأنه فسّر وثبت كثيراً مما كنت أسعى اليه وأجاهد من أجله ، فكراً وعملاً ، لكي اواجه آلام اوروبا النفسية . لقد كان لي خبـرة هائلة ان اسمع من خلاله ، في لغة واضحة ، عن الأشياء التي كانت تطلع ظلالاً معتمة من اختلاط الخافية الأوروبية . في الحقيقة ، أشعر بأنني قد ازددْت به غنىً كثيراً حتى ليبدو لي الأمـر كما لو أنني تلقيّت منه أكثر مما تلقيته من كل إنسان آخر . وهذا أيضاً هو السبب الذي يجعلني لا أشعر بأنها جرأة مني ان كنت انا الذي من ينبغي أن يقدم على مذبح ذكراه امتناننا واحترامنا جميعاً .

ك . غ . يونغ

الفهرس

القوى الروحية وعلم النفس التحليلي

ينبغي على الروح أن يتكيء على العلم بما هو دليل له في الواقع ، وعلى العلم أن يلتفت إلى الروح من أجل معنى الحياة .

هذا هو الخطاب الذي يسعى إليه الكتاب، من خلال البحث في القوى الروحية، على ضوء علم النفس التحليلي ، والمؤلفان، العالمان الكبيران : ويلهلم ويونغ، ينتزعان في هذا الكتاب الحكمة الشرقية من ميدان الميتافيزيقيا ليضعاها في نطاق الخبرة السيكولوجية، إنها مقاربة جديدة وهامة للشرق، ومساهمة جديدة وهامة في علم النفس وفي فهم الانسان .

من منشوراتنا في علم النفس أيضاً :

- علم النفس التحليلي ـ يونغ
- الإله اليهودي ـ يونغ
- البنية النفسية عند الانسان ـ يونغ
- جدلية الأنا واللاوعي ـ يونغ